383

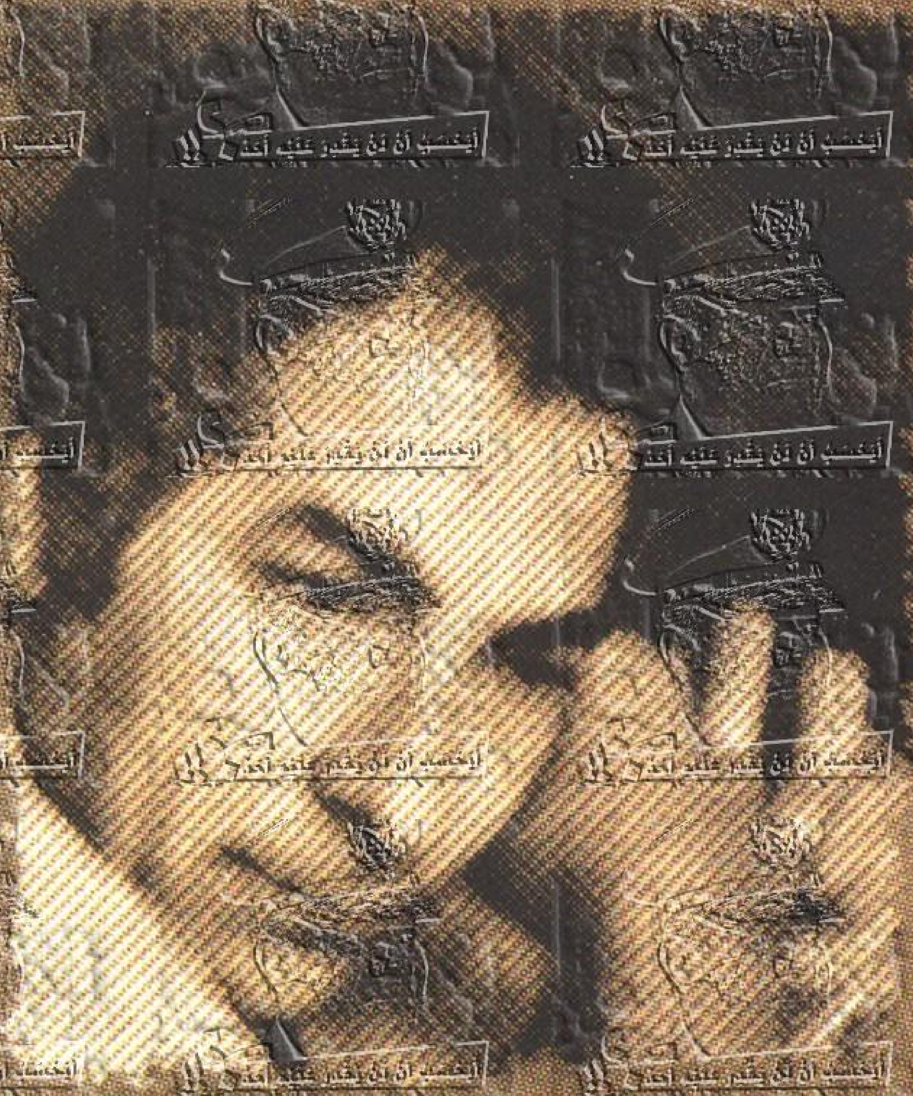
الطبعة الثالثة

أنيس منصور

والله زمان يا حب

A.M.

Sunday
28/7/2013



والله زمان يا حب

لكل زمن حب ولكل حب زمان كنا نقنع بالنظرة ونحلم بالقبلة واليوم لا قبلة ولا نظرة ولا أمل في ذلك! كانت هناك بنت الجيران صغيرة حلوة وكانت بعيدة عن العين واليد ولكنها استقرت أملاً ووشماً في القلب وكانت قادرة على أن تلتهم كل شيء في حياتي كأنها عصا موسى واليوم حياتي زحام من الوجوه والأصوات والألوان والآمال والآلام وعواصف من الناس وطوفان من الأمل وتسونامي من السخط على ما كان وما هو كائن وما سوف يكون.

فقد توارى القلب في ضوء العقل ونفذت سهام العقل فقضت على الدفء والوهم والخيال والشفق والغسق فقد قررت أن أعيش في قرص الشمس لا أرى ويراني أحد فألف رحمة على خيالات وأوهام زمان

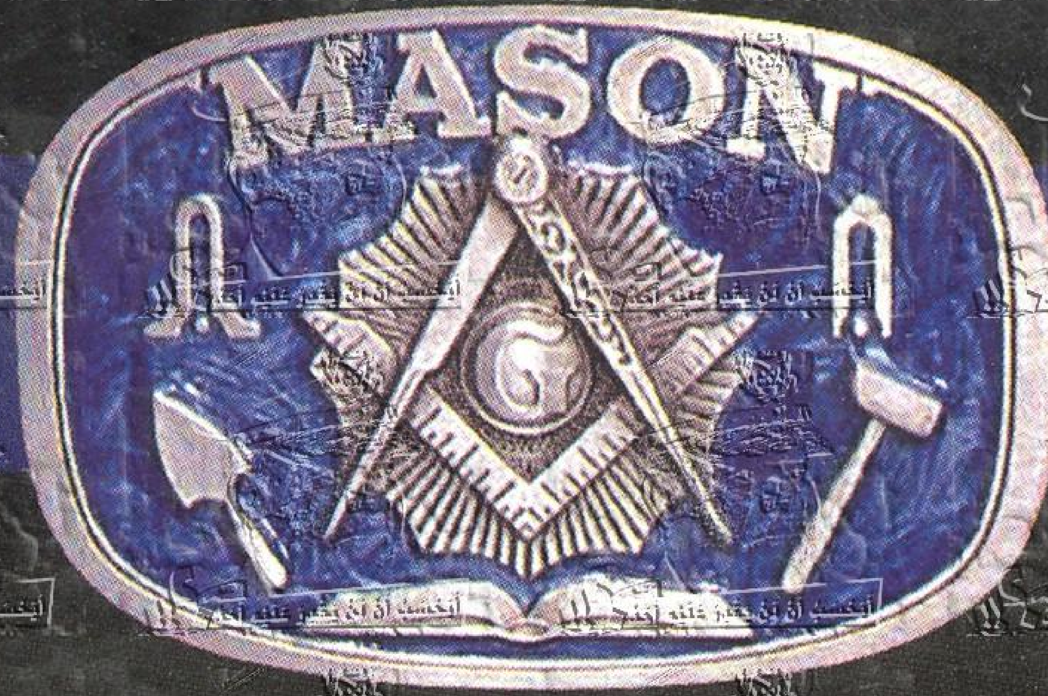


6 221133 339650



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
www.nahdetmisr.com

11



حكومة العالم الخفية

كتابنا القادم

عظماء ومشاهير اغتالتهم الماسونية

أشهر الاغتيالات السياسية

التي نفذتها حكومة العالم الخفية قديماً وحديثاً

Masonic Assassinations



منصور عبد الحكيم

أنيس منصور

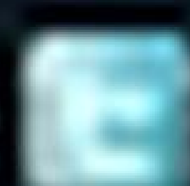
والله زمان يا حب





"ليعلم أبناءنا أن أباءهم وأجدادهم
كانوا رجالاً ، لايقبلون الضيم
ولا ينزلون أبداً على رأي الفسدة
ولايعطون الدنية أبداً من وطنهم
أوشرعيتهم أو دينهم"

د. محمد مرسي رئيس الجمهورية - ٢ يوليو ٢٠١٣





من يقول ومن يسمع لنا؟!

كنت أقوم بتدريس الفلسفة في كلية الآداب عشرين عامًا. ونحن طلبة كان عددنا ثلاثين، وعندما قمت بالتدريس كان عدد الطلبة ثلاثمائة، وأحيانًا يجيء طلبة من الأقسام والكليات الأخرى يستمعون إلى محاضراتي. لا لأنها فلسفية، ولكن كأنها فلسفية.. فهي تدور حول المعاني وتقترب برفق. ولذلك لم يهرب الطلبة من المصطلحات الفلسفية الخاصة التي لا ألجأ إليها إلا نادرًا.

وأيام كنت طالبًا، كان نشاطنا كله في مكتبة الكلية أو في الجلوس نتناقش أمامها.. ولا أذكر أنني انشغلت بأي شيء آخر.. لا صحف ولا مجلات ولا أفلام ولا حتى الحديث إلى الزميلات من كلية الآداب أو كليات الحقوق والزراعة والهندسة.. فالفتاة لا تهم. لا هي ولا حديثها ولا الانشغال بها. ولم نكن نرى في ذلك سلوكًا غريبًا. فنحن لا نعرف إلا أن نجيء إلى الكلية وإلى قاعات المحاضرات ثم المكتبة العامة وإذا اتسع الوقت ذهبنا إلى إحدى الغرف نستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية. ولا أدَّعي – أنا على الأقل– أنني أفهم الموسيقى الكلاسيكية، ثم أنني لا أجدها في بيتنا.. فلا عندي راديو ولا عندي أسطوانات. ولا سبيل إلى

ذلك وإنما الموسيقى والكلام عنها استمرار للدراسات الفلسفية. ويوم جاءنا أستاذ سويسري يلقي محاضرة موضوعها «ميتافيزيقا الموسيقى» لم يجد إلا خمسة من الطلبة: ثلاثة سويسريون وواحد ألماني وأنا – وأنا نيابة عن ألف طالب في الدراسات الأدبية والفلسفية!

والسبب أنهم مشغولون بالقراءة المباشرة في الفلسفة وأنهم غارقون في أبحاثهم، وعندما كنت أجلس إلى تلاميذي، لا أذكر الآن أن أحدًا سألني عن كتاب أو رواية أو مسرحية.. إنهم شبان في غاية المرح والفرفشة. وكل ذلك يشغلهم وهو بالضبط ما لا يشغلني ومنتهى أملهم أن يذهبوا في رحلة خارج القاهرة.. وبس.

وكنت أنا المستفيد الوحيد.. فأنا ألقي محاضراتي وكأنني أكتب.. أي أنني أفكر بصوت مرتفع.. أو أقوم بتجربة صوتية لما سوف أنشره بعد ذلك.. فالمهمُّ – بالنسبة لي – أن أوضح نفسي أمام الطلبة.. وأضرب الأمثلة والحكايات والأغنيات والأمثال الشعبية.. أي كل ما يساعدني على أن أكون مفهومًا.. أي الذي أقوله مفهوم، والذي سوف أكتبه أيضًا ولذلك ترسب عندي شعور بأنني لا أستحق أجرًا على هذه المحاضرات، فأنا أقول كأنني أكتب، وأكتب كأنني أقول.

ومن الأشياء الغريبة أنني نسيت أن أتقاضى مرتبي سنتين. فقد كان مرتبي في الصحافة أضعاف مرتبي في الجامعة.. وبعد عشرين عامًا تذكرت، فذهبت فقالوا: لقد سقط بالتقادم. أي أن هذه مسألة قديمة جدًّا، ولأنها قديمة جدًّا، فكأنها لم تكن.. لا يهم. وإنما المعنى هو الذي يهم.. فقد كنت أجرب القول والكتابة وأقول وأعيد وأزيد. وكلما سألني طالب

عن موضوع حكيته بأشكال مختلفة، ولذلك فقد كان طلبة الكلية من كل التخصصات يستمعون إلى محاضراتي؛ لأنها ليست فلسفية تمامًا.. ولكنهم كانوا يستمعون، أما الآن فالوقت ليس كافيًا إذا نظرت إلى المحاضرات والأساتذة والطلبة. وسوف يكون من الترف المبالغ فيه أن نتحدث عن مستقبل التعليم والعلم والمتعلمين والعلماء في بلدنا – ولا أعرف ماذا يحدث في بلاد أخرى!

... أشهر عبقري مشلول!

هذه أول محاضرة يلقيها العالم الرياضي الفيزيائي البريطاني ستيفن هوكنج في جامعة آسيوية. فقد استجاب لدعوة من جامعة العلوم والتكنولوجيا في هونج كونج، ونفدت 2300 تذكرة حضور في ساعة واحدة، وقد ذهب العالم الكبير ومعه ابنته وزوجته، وكان قد أعلن قبل ذلك أنه يستعد لأن يصدر كتابًا أو مسلسلاً مثل هاري بوتر عن الكون، وللأطفال في عبارة سهلة.

وعندما صدر كتابه التحفة (موجز لتاريخ الزمن) قال إنه استبعد منه كل المعادلات الرياضية حتى لا يفقد نصف القراء. وأما كتابه للأطفال فسوف يستبعد منه كل التعبيرات العلمية ليكون مفهومًا لدى أصغر الناس سنًّا وأقلهم تخصصًا. وقد أعلن أحد الناشرين أنه مستعد أن يتعاقد على مليون نسخة فورًا!

وقبل أن يظهر أمام الجمهور الآسيوي أعلن أنه لا بد أن يستقر الإنسان على كوكب المريخ بعد خمسين عامًا؛ فالأرض لم تعد تصلح، ثم إن الحياة على سطح المريخ سوف تكون أسهل كثيرًا من الحياة على سطح القمر.. ويقوم الرواد الأمريكان في الصحارى بتجارب على المشي والحياة على سطح المريخ..

وفجأة هاجمه العلماء في كل مكان فقالوا: إنه يحب الدعاية؛ ولذلك يتحدث فيما لا يعنيه.. وفي الذي لم يتخصص فيه.. فهو رجل رياضيات وفيزياء ومن أروع العقول المعاصرة. أما الكلام عن الفضاء فليس هذا من تخصصه. بل إنها غلطة كبيرة أن يحشر نفسه في هذا المجال.

وقالوا: إنه بالفعل إذا ظهر في أي مكان فإنه يستولي على كل الاهتمام. وهناك علماء في الفيزياء أعظم منه، ولكن أحدًا لا يعرفهم. فالناس ينظرون إلى ستيفن هوكنج على أنه الإنسان المعجزة فهو غير قادر على الحركة والكلام، ومع ذلك يلقى اهتمامًا أعظم من القادرين على الحركة والكلام! وكأن هذا الحقد على الرجل لا يكفي، فقد انضمت مطلقته وأم أولاده الثلاثة فقالت: إنه لا يطيق أن يتحدث أحد عن غيره من العلماء إنه مجنون بالظهور وأن يكون في المقدمة! ولذلك نجحت زوجته الثانية في الحياة معه، فهي تنظر إليه على أنه عبقري زمانه.. وإن واجبها أن تخدمه، ولذلك قال هو عن زوجته الثانية: إنها التي استطاعت أن تجعل لحياته لونًا وطعمًا!

ويقول الحاقدون: إن الناس تذهب إلى محاضراته؛ لأنه عقلية فريدة، ولأنه في نفس الوقت معجزة طبية. فقد كان الأطباء يتوقعون موته من أربعين عامًا، وهو الآن عمره 65 سنة. ولكن فوجئ الأطباء بأنه استطاع بالإرادة والصبر أن يتغلب على كل المشاكل النفسية والجسمية والطبية وأن يكون وجوده معجزة – تحديًا لكل ما جاء في الكتب.

يا ولداه.. لقد قال شاعرنا القديم على مثل حال ستيفن هوكنج:

حتى على الموت لا أخلو من الحسد!

كبار جعلهم الحب صغارًا

الحب عند الكبار كالنقش على الحجر وعند الصغار كالنقش على الماء، فكان أستاذنا عباس العقاد يقف وراء الباب في انتظار السمراء القادمة إليه سيرًا على قدميها، وكان يروح ويجيء ويكتب شعرًا.

وكان طه حسين يطلب من توفيق الحكيم إذا جاءت المحبوبة أن يجلس بعيدًا ثم يسألها إن كان توفيق الحكيم يسترق السمع، فتؤكد له أنه يصعب عليه ذلك، وكان الموسيقار محمد عبد الوهاب يتحدث طويلاً جدًا إلى عاملة تليفون في فندق انتركونتيننتال وظل يفعل ذلك ويشغلها عن عملها حتى فصلوها من عملها فهرب.

وكان الشاعر كامل الشناوي يرغمنا بحبنا له أن نركب معه سيارته فيجلس الواحد منا إلى جوار السائق ويجلس هو والمحبوبة في المقعد الخلفي يقول لها شعرًا ويبكي ونحن ندور في شوارع القاهرة ونتصنع بأننا لا نسمع وإن كنا نشفق عليه.

وكان الشاعر أحمد رامي يقابلنا ثم يهرب إلى فتاة دمشقية شقراء ولا يكف عن الكلام وهي لا تخرج عن الصمت.

والرئيس أيزنهاور كان يحب سائقته الإنجليزية، وعندما قرر الزواج منها منعه الحزب. وتشرشل لم ينس الفتاة الأرستقراطية التي أحبها وحاول بكل ما يملك من بلاغة وذكاء الزواج منها ولكنها رفضت، أما

رسائله إليها فقد عرضها أحفادها في المزاد فاشترتها أسرة تشرشل، وفي هذه الرسائل يقول ما لا يقوى عليه إلا مراهق. وكان الدوتش موسوليني يحب فتاة متواضعة جدًا وكان لا يتحدث إليها إلا واقفًا يخطب، فكان يقول لها مثلا: باسمي وباسم الشعب قررت أن أحبك حتى الموت، وصدق في ذلك فقد علقوه مِن ساقَيْه وهي أيضًا.

وفي هذا الأسبوع صدر كتاب عن غراميات رئيس وزراء بريطانيا لويد جورج عنوانه (عندما كان الحب كل شيء غراميات لويد جورج) من تأليف جون كامبل، فقد كانت سكرتيرته ثم جعلها وزيرة، وكان رئيس وزراء بريطانيا من فحول الرجال في زمانه بشهادة عدد من المعشوقات والغانيات. وعندما التقى بالفتاة التي أحبها قال لها: تاريخي مليء بالحكايات والنوادر، هن يقلن ذلك ولن تسمعي مني اسم أية واحدة كانت لي بها علاقة، فقط أقول لك بمنتهى الوضوح وبلا حرج فأنا مفتون بجمالك وأحاول أن أكون أسيرًا لحبك، فإذا أحببتك فلا تطلقي سراحي فهذه هي نقطة ضعفي.

أما سيد العشاق في هذا الزمان فهو الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، أحب الكثيرات وأحبته الكثيرات وقلن فيه شعرًا، فهو الساحر الذي يستولي على العقول وهو الحيوان العاشق المدرب تدريبًا جيدًا وهو الحَمَل الوديع ثم الذئب الذي أبته كل ضحاياه.

أبلغ ما قالته عنه معشوقته قارئة الكف الفرنسية جاكلين مرسييه: أكثر الأطفال شراسة.

كل هذه الحريات يا بختكم

طلبت من الموسيقار حسن أبو السعود ليلة واحدة، أي أريد أن أسهر ليلة واحدة، في شارع محمد علي، شارع الفن والفرفشة والطرب والانفلات زمان، أما الآن فقد تقلص الناس، تواروا ولم يعد أحد يعرف ما الذي كان يجري وراء النوافذ المغلقة معظم الوقت والأبواب المفتوحة طول الوقت.

ولكن حسن أبو السعود انشغل ومددت يدي إلى التليفون أطلب الموسيقار حلمي بكر وخجلت وذهبت وحدي ودخلت وعلى أول مقعد جلست وكان الناس يدخلون ويخرجون ويتساءلون ويتهامسون هل أنا من أهل الطبقة هل أنا مباحث هل أنا قريب لأحد؟ هل أبحث عن عمل؟

وجاءت سيدة ضخمة جريئة العينين مفتولة الذراعين غليظة الساقين وأخرقتني عيناها ولم تدع لى فرصة أقدم نفسي وإنما دخلت في الموضوع وقالت لى: وبسلامته مين؟ قلت: واحد باحب الموسيقى والرقص الشرقي والفرفشة وقد ضقت بحالنا اليوم لا الموسيقى ولا الغناء ولا الرقص يعجبني.

وكأنها لم تسمع كلمة واحدة مما قلت ومضت تقول صحيح إنت مين؟ وعاوز إيه؟ أنا أساعدك إحنا ناس بسطاء حياتنا كما تعرف وليست لنا مشاكل فالذي نعمله اليوم سوف نعمله غدًا نرقص ونبكي،

ونأكل اللقمة بعرق الجبين هذه حياتنا إن كنت تريد أن تعرف. وكأنها تقرأ في كتاب بصوت غليظ وبعبارة باردة محايدة عندنا سهرات أشكال وألوان وانت حر تسمع وانت جالس على الأرض وانت جالس على مقعد وانت تأكل وانت تشرب وأنت تشارك في الغناء والرقص وتقول مثلنا وتصرخ وتضرب دماغك في الحائط إنت حر، وممكن أن تلعن كل من تشاء من الناس لن يحاسبك أحد، فليس فينا واحد ليس في ضيق من الحياة ومن الناس ومن بعض الناس بصفة خاصة ابتداء من الوزير حتى الخفير، اشتم يا حبيبي والعن وابصق على من تريد من الناس الذين تراهم هنا أو تتخيل وجودهم، إنت هنا على العين والراس إنت جيت تفش غلك أي تستريح من الغيظ والقرف الذي أمام الباب. هنا وراء الأبواب المغلقة إنت منفتح متفتح إنت منطلق أنت متحلل من كل ما يربطك بالناس، تعرف لو أكلت وشربت ونسيت تدفع أي مبلغ من المال ولا يهمك نحن نجد أعذارًا جاهزة لكل الهاربين من بيوتهم ومكاتبهم وحياتهم ولا يهمنا إن كنت رأسمالية أو من الإخوان المفلسين، قلت إيه يا حبيبي، ولم أجد ما أقوله، ولكن قلت لنفسي: وعندكم كل هذه الحريات يا أولاد الإيه يا بختكم ثم قلت لها: يا ست إيه.

قالت أنا الست فرفشة

صافحتها بحرارة.. وقلت لها: جاي بكره وبعد بكره إنتم الناس يا أبناء شارع محمد علي.

إنها تفاصل مع عزرائيل

هناك نظريات تفسر لماذا تحب المرأة أن تشتري وأن تفاصل وأن تدخل محلاً وتخرج لتدخل محلاً آخر ساعة ساعتين، ولذلك يهرب الرجال من مرافقة المرأة في ملحمة الشراء، نظرية تقول: إن المرأة تجد لذة في المناقشة وهي محتاجة إلى أن تحقق لنفسها نصرًا على الباعة وخصوصًا إذا كانوا رجالاً.

ونظرية تقول: بل هي متعة عند المرأة أن تبدد أموال الرجل في أتفه الأشياء، فهي دائمًا بين رجلين، واحد يعطيها الفلوس وواحد تتغلب عليه فتعطيه فلوسًا أقل مما يستحق.

ونظرية تقول: بل هي تحب أن تدخل في معركة من اختيارها على أمل أن تفوز في النهاية وقد تدخل المرأة عشرين محلاً وتناقش ساعة وراء ساعة ولا تشتري. وقد تعلم الباعة الصبر عليها وتدربت هي على تعذيب الرجال.

وقد تشتري المرأة في النهاية نفس الشيء وبنفس السعر الذي رفضته في أول المشوار، وبعض السيدات الثريات لا يذهبن إلى المحلات وإنما تذهب إليهن المحلات تعرض الفساتين والفرو والمجوهرات. وأصحاب المحلات يعلمون يقينًا أن المرأة هي المرأة، وأن هؤلاء

السيدات الغنيات لا بد أن يفاصلن وأن يكسبن في النهاية. طبيعي أن تقدم هذه المحلات بضائعها بأسعار مرتفعة فإذا أصابها التخفيض كانت المحلات هي الرابحة ولو شاءت هذه المحلات أن تعطي بعض بضائعها هدية فلن تسعد المرأة لأنها لا بد أن تفاصل وأن تخفض الأسعار. وكلما أفلحت في تخفيضها أكثر كانت المتعة أكبر. وقد سمعت من سيدة تعمل في مؤسسة كارتييه للمجوهرات أن قدمت ساعة هدية، الساعة مرصعة بالماس. ثم جاء دور المشتريات، وكان الطبيعي ألا تفاصل السيدة كثيرًا بعد أن تلقت هدية وإنما مضت السيدة في التخفيض والتخفيض حتى وصلت إلى أرقام غير مقبولة ولما أبدى مندوب الشركة بعض الاعتراض، ردت السيدة الهدية وامتنعت عن الشراء، السبب أن مندوب الشركة قد حرمها من غريزة الفصال ومتعة الأخذ والرد والانتصار في النهاية.

الكاتب الساخر برناردشو يقول إن عزرائيل يقبض روح الرجل في ثانية وروح المرأة في ساعة لأنها تفاصله، وتقول له: اتركني لكي أعيش جارية لك أو جارية لكل أولادك، اتركني أقتل أي عدد تريد من الرجال. ثم إن عزرائيل يقبض روحها لأنه لا يصدقها.

أن يدفنوا موتاهم واقفين

هذه العبارات التاريخية: أن أموت على الخشب لا في الخشب، أي يموت على خشبة المسرح وليس في خشبة النعش.. وعبارة أن أموت واقفًا لا أن أعيش راكعًا، وعبارة أن أموت وفي شعر رأسي بقايا القنديل، أي يظل يعمل في ضوء القنديل الذي يحرق شعره حتى يموت لآخر لحظة، يقرأ ويكتب.

ولم يكن أحد يعرف أن عبارة الموت واقفًا، ستصبح حقيقة واقعية وليست تعبيرًا مجازيًّا، ففي بريطانيا مثلاً عندهم مشكلة أنهم لا يجدون أماكن لدفن الموتى، فقد تكدست المقابر وتزاحم الموتي، مع أن ثلاثة أرباع الموتى يحرقون جثثهم ويضعون الرماد في زجاجات صغيرة.. عدد الموتى سنويًا حوالي المليون.

وهناك عدة حلول، إما أن يدفن الموتى في مقابر قديمة، وقد فعلت الكنيسة ذلك من مئات السنين، وإما أن تقام طبقة عليا للمقابر، أو بأن تكون المقابر جماعية، وذلك بالاتفاق بين أهل الموتى القدامى والموتى المحدثين.

أما آخر الحلول، فهو الموت وقوفًا، بدلاً من أن يتمدد الميت في المقبرة، فإنهم يدفنونه واقفًا لكي يحتل مساحة أصغر.

وألمانيا الشرقية «سابقًا» كانت تحت الاحتلال السوفياتي متفوقة في فنون العذاب والتعذيب، وقد اختبرناها في مصر على أيام الرئيس عبد الناصر فكرة الموت وقوفًا، أو الحياة وقوفًا، أو العذاب على القدمين، وذلك بأنهم يحدثون تجويفًا في الحائط يقف فيه المعتقل أو السجين ثم يطبقون عليه بابًا يضغط عليه حتى يحطم ضلوعه أو يعترف بما يريدونه أن يقول. ويقول خبراء التعذيب في مصر، إن هذا الأسلوب كان أثره قويًا، فلا يكاد يدخله أحد ويضغطون عليه، حتى يصير صراخه أعلى من صوت عظامه، وقد أضفنا إلى هذا الأسلوب الألماني السوفياتي شيئًا من عندنا، فكانوا يحشرون الاثنين، الرجل وزوجته أو أمه معًا، وبدلا من أن يتحطم الواحد بين الحائط والباب، فإن الاثنين يحطمان بعضهما بعضًا.

بعض الأغبياء السفهاء في أمريكا قرروا أن يدفنوا فوق القمر، وقد دفنوا الملايين من أجل ذلك، أما الأكثر سفاهة فهم الذين قرروا أن يدفنوا في إحدى سفن الفضاء لتظل تدور بهم عشرات أو مئات السنين فإذا خرجت عن مدارها تحولت إلى رماد يتبدد في الفضاء. وبعض الناس أوصوا بأن ينثر رمادهم في الأماكن التي أحبوها، الزعيم الهندي غاندي الذي كان ضئيل الحجم أمر بأن يدفن عند رأس كومرون في أقصى جنوب الهند.

مـــن أجمـــل الليـــالي

كنا صغارًا أكثر حرية وأكثر جرأة، فالمكان هو بيت الفنان الكبير صلاح طاهر، والفرقة الموسيقية الغنائية كانت الأديب الكبير إبراهيم زكي خورشيد، والفنان الكبير حسين بيكار، والمطرب الكبير إبراهيم الحجار، والراقصة الكبيرة زينات علوي، والشاعر الكبير كامل الشناوي، والموسيقار الكبير زكريا أحمد، وأنا. ونلتقي مرتين في الشهر، وكل واحد عارف مكانه وعارف دوره في هذه الجلسة. والجلسة ليس لها جمهور، وإنما الجمهور هم المطربون والعازفون.. إبراهيم خورشيد على العود وزكريا أحمد يصفق بيديه ويتمايل وكامل الشناوي وأنا نقول آه.. الله يا سيدي.

أما الطعام أمامنا فقليل من الجبن والخبز والطماطم والترمس والفول الأخضر والمسلوق والحمص. شيء غريب، لم يحدث أن طلب أحد طعامًا أو أحد شعر بالجوع. فقط نريد أن نغني معًا وأن نسمع وبس. وفي يوم سألتني أم كلثوم: عاوزة أتفرج، قلت أهلا وسهلاً. ولكن أعضاء الفرقة الموسيقية الغنائية قالوا: أبدًا، إن وجود أم كلثوم سوف يربك الجميع، بلاش الست وبلاش محمد عبد الوهاب وبلاش الأمير العاشق للطرب عبدالله الفيصل. ولا أنسى ليلة قررنا أن نحتفل بعيد ميلاد الشيخ

زكريا أحمد وأن يغني بهذه المناسبة وغنى وأمتعنا وأسعدنا وصفقنا وأسعدنا الكثير مما قال وتمايلت زينات علوي ذات الأداء الجميل المهذب، وكان لا بد أن يقول كل منا كلمة في عيد ميلاد الموسيقار الكبير زكريا أحمد.

قال صلاح طاهر: ميلادك ألف لون ولون وقد رسم الزمن بفرشاته لوحة نادرة اسمها زكريا أحمد.

وقال حسين بيكار: ليست لوحة وإنما صنع الزمن تمثالاً ندور حوله خاشعين كأننا وثنيون نعبد الجمال والصدق.

وقال إبراهيم خورشيد: لو كان هنا بيتهوفن لأبدع لك سيمفونية أخرى أسماها دقات القدر، فأنت الدقات التي تفنن القدر في صنعها وأعطاها لمصر والعرب.

وقالت زينات علوي: لو كنت أعرف لقلت ولكنني كما ترون، ولكن سوف أفتح أحضاني لصاحب القلب الكبير والنغم الأصيل، أهلا يا أبا الطرب والجمال.

وقال كامل الشناوي لقد قررت أن أنقص وزني؛ ولذلك سوف أرافقك في كل مكان لكي أبكي كيلوجرامًا من الدموع كل ليلة كلما استمعت إليك.

وقال زكريا أحمد: لو كنت أعرف أن عيد ميلادي سوف يكون الاحتفال به هاها هاها..

ولم تكن إلا واحدة من أجمل الليالى.

دوختني كلمة (بوشير)

لا أنطق أي اسم أجنبي إلا إذا قرأته حتى لا أخطئ في النطق. فإذا لم يتيسر لي أن أقرأ هذا الاسم فإنني أتفادى نطقه. وقد وقعت صحف مصر والإذاعة والتليفزيون في مشكلة كيف ينطقون اسم الزعيم السوفياتي خروشوف، فقد نشرته الصحف والإذاعة هكذا حروتششوف وخروتشيف وخرشوف، وكان لا بد أن نسأل السفارة الروسية كيف ينطقون اسم زعيمهم. ووزير داخلية بريطانيا اسمه هوم وينطقونه هيوم وبطل الكرة الإنجليزية دافيد بكهام وينطقونه بكام، وغير ذلك من الأسماء الألمانية والإيطالية والإسبانية، وهناك حكايات ونوادر. وفي حديث مع الصديق حسن إبراهيم نائب رئيس الجمهورية جاءت على لسانه – وكان رجلاً أنيقًا– كلمة بوشير.. قميص بوشير. ولم أجد في القاموس الفرنسي هذه الكلمة ولا في الإنجليزي ولا في اللغات الأخرى. ونظرت إلى قميصه ولم أعرف الفرق بينه وبين القمصون الأخرى ولم أجد الشجاعة في أن أسأل مصممات الأزياء كما كنت أفعل عندما كنت محررًا للموضة في صحيفة «الأهرام» من خمسين عامًا.

وقررت أن أعرف ذلك بنفسي. وظلت هذه الكلمة واقفة في أذني لا أعرف كيف أتخلص منها ولا كيف أصرفها عني كالعفاريت.

وأخيرًا في مذكرات إليزابيث تايلور وجدتها تتحدث عن أحد أزواجها، فقالت: أنه (بو) العصر الحديث.. وبو كلمة فرنسية بمعنى: جميل.. ولم تتحدث عن جماله، وإنما عن أناقته وشياكته وكيف أنه كان يختار ملابسه الداخلية، وكيف يجعلها تتماشى مع الخارجية مع أن أحدًا لا يرى ذلك.

وعرفت أن (بو) هذا هو اسم شخص اسمه جورج بو روميل، مات 1840 عن 78 عامًا. هو شاب إنجليزي تسلل إلى البلاط الملكي حتى صادق ولي العهد الذي صار بعد ذلك الملك جورج الرابع. وكان هو الذي يختار ملابسه، ثم طرده الملك، فقد كان مسرفًا وكان يأخذ منه ومن غيره الذين ذهبوا إلى القضاء وسجنوه. وخرج يقامر ويسرف ودخل السجن وخرج ليستأنف الأناقة والسفاهة، وهرب إلى فرنسا. وفي فرنسا عينه الملك قنصلاً عامًا، وضاق به الناس وضاق بهم واتسع له مستشفى الأمراض العقلية ومات فيه مجهولاً من الناس، وبقيت قصة حياته يتناولها الناس، يرددون ويضيفون إليها نوادر، حتى صار جورج بو روميل أسطورة القرون.. وفي القرن العشرين أعادته إلى الحياة إحدى دور الأزياء الأمريكية فوضعت اسمه على القمصون بو شيرت، أي (قميص بو) وكرافتات.

وفي مصر كان أشيك الناس الصحافي الكبير محمد التابعي والممثل أحمد سالم والرئيس أنور السادات. أذكر أنني بعد أن فرغت من الحديث مع الرئيس السادات أن سمعته يقول لسكرتيره هات لي البنطلون

الأبيض القصير والقميص أبو خيوط زرقاء.. البنطلون في الصف الثالث في الدولاب على الشمال والبنطلون تحت، هو خامس واحد من تحت.

وسألت السكرتير إن كان الذي يقوله السادات صحيحًا، فأكد لي أنه هو الذي يرتب ملابسه ويعرفها بالتفصيل واختاروه أحد أكبر المشاهير أناقةً في العالم.

وتغزلت نيابة عن بطرس غالي!

قال لى الدكتور بطرس غالي لا بد أن تشرب أكبر عدد ممكن من القهوة السادة، والسبب أن الرئيس سياد بري سوف يقابلنا بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين نظامه كده، وهذا ما لا أستطيع؛ فأنا أبدأ في محاولة النوم عند منتصف الليل، ولا يمضي وقت طويل حتى تكون هذه المحاولة قد أرهقتني وهزمتني، ساعة أو ساعتين، ولكن لا بد أن أنام هذا القليل من الزمن، ولكن شربت القهوة أحجامًا وأشكالاً وألوانًا، وجاء موعد اللقاء، وقدمني الدكتور بطرس غالي بأنني المستشار السياسي للرئيس السادات. وحاول في كل كلام يقوله أن يستشهد بي وأن يهزني حتى لا أتساقط من الإعياء، وكنت مرهقًا، وكنت أرى فيما يرى النائم أنني نائم، وأن أحدًا يوقظني بقوة، ثم أنني أصحو على سماع اسمي، ولكن لا أعرف لماذا، وانتهت المقابلة مع خيوط الشروق، وعدنا إلى الاستراحة لننام، وفي ساعة مبكرة جاءني من يقول لي: حاول بسرعة أن تستحم وتحلق ذقنك، فالماء سوف ينقطع.

أما تناول الإفطار فكان يجيء مبكرًا فخمًا، ووقف حولى عدد من السفرجية.. هذا يقدم الشاي وهذا يقدم الزبدة والكيك والأمليت، ومن بعيد يتعالى صوت الدكتور بطرس غالي يشكو من انعدام المياه وأن

الإفطار لم يأت. وذهبت أسأل فعرفت أنهم يظنون أنني وزير الخارجية وليس هو، والسبب أنني أتكلم الإيطالية التي يحرصون عليها، وبطرس غالي لا يعرف الإيطالية، وحاولت إقناعهم بأنه هو الوزير وليس أنا، وفشلت تمامًا، ورأوا أن هذا بسبب تواضعي الشديد.

وجاءني من يقول لي: تريد فاكهة؟

فقلت: نعم.

– هل تريد أن تأكلها هنا أو تعود بها إلى مصر؟

فقلت: هنا يكفي، شكرًا.

ثم عاد يقول لي: إن عددًا من الفتيات الجميلات جدًّا يردن توقيعك في دفتر الذكريات.

قلت: موافق.

وكتبت بالإيطالية: أحبك من أول نظرة، وأنت أحبك وأتمنى لو تزوجتك، وأنت لو جئت إلى القاهرة فسوف يقف الشارع على قدم واحدة، فأنت فتنة الدنيا، وأنت – وأقولها بمنتهى الصدق والشجاعة أجمل امرأة في الدنيا.

أما الإمضاء: بطرس غالي!

ونشرتها الصحف!

ما أقسى أن تكون فلسطينيًّا

كل زمان له سؤال وكل سؤال له زمن..

كان السؤال عن معنى الجاذبية وسؤال عن معنى الكهرباء وسؤال عن النسبية وعن الحساسية وعن الإيدز وعن أصل الكون متى بدأ ومتى انتهى، وهل هناك بداية وهل هناك نهاية، إن البداية والنهاية من كلمات البشر، ولأن الله سبحانه وتعالى لا بداية ولا نهاية له، فالكون أيضًا أو الأكوان.

وسؤال هذا الزمان ومن خمسين سنة مضت، وربما لخمسين سنة تجيء، ما فلسطين؟ ما القضية؟ والمأساة والمشكلة والمعضلة والحل؟ ومن هم أطراف المشكلة وأطراف الحل؟ ومن الذي دفعه اليأس إلى أن يخون ويرشد إسرائيل إلى ضحاياه من أبطال المقاومة، ووضع السم لياسر عرفات؟ ومن الذي سوف يقدم لإسرائيل رأس هنية على طبق من فضة، نفس الطبق الذي قدموا به رأس (يوحنا المعمدان) إلى الملك هيرود لتكون المكافأة أن ترقص له سالومي عارية؟ من هو يوحنا ومن هيرود ومن زوجته التي خانت زوجها، ومن هي سالومي؟

ولو كنت فلسطينيًّا أنا، لكفرت بكل القيم الأخلاقية والإنسانية، فلا يكون عندي إلا شعور واحد يتسلط على كل مشاعري، هو الظلم، فالفلسطيني مظلوم والعرب مقهورون.. أغنياء وفقراء.. الفلسطيني

المتعلم المستنير الذي لم يستفد من ثقافته، صاحب القضية الواحدة والهم الواحد والإصرار على أن يموت مقاتلاً لا أن يعيش قتيلاً.. لو كنت فلسطينيًا لكرهت كل العرب ولاحتقرت كل البشر.

ومناحم بيجن يوم أطلق شارون يرتكب المذابح في صابرا وشاتيلا لم تهزه صرخات العرب ولا سخط أوربا وأمريكا، وإنما قال قولته الشهيرة: إن هتلر عندما عذبنا بالملايين وقف العالم كله يتفرج علينا ولم يفعل شيئًا. وهذا هو شعور شعب فلسطين؛ فالعالم يتفرج عليهم وقد جفت الدموع، فلا أحد يبكي على أحد، والأيدي تمتد فقط لكي تقلب الصحف وقنوات التليفزيون. فقد زهق الناس من المذابح الفلسطينية، والحقيقة أن الناس لم يزهقوا مما يرون، ولكن مما يشعرون به من النذالة والجبن والهوان، وأنهم مقهورون ولأن حكمة كل العرب: ياجاري أنت في حالك وأنا في حالي. ولكن لم يعد هناك جار لأحد، فكلنا في بيت واحد، في زورق واحد، في قبر واحد يتسع للغني والفقير. أما عزرائيل الأمة العربية فهو عارها.

لو كنت فلسطينيًا لخجلت أن أكون عربيًا، وربما كان هذا هو الحق الثاني للشعب الفلسطيني. حقه الأول أرضه وعرضه وكرامته واستقلاله، وسوف يموت واحدًا واحدًا حتى يأخذها أو يموت دونها.

إنه مثل أعلى للفداء في أرض العرب التي لم تعد فيها مثل عليا ولا استعداد عند أحد للفداء في سبيلها!

عقبال 120 سنة يا ريس!

في الإسماعيلية كان الرئيس السادات، وفي لحظة ابتسام وسط مناقشة عنيفة مع بيجن والوفد الإسرائيلي، وقد قال لي المشير الجمسي إنهم في غاية الخشونة، رغم أننا نتحدث إليهم بحساب، ولكن إحساس بيجن بأنه يخسر كل يوم شيئًا، وأنه يلمح في عيني الرئيس السادات التعالي والتفوق والشماتة، ولكني لم ألاحظ ذلك. إن الرئيس السادات قادر على إخفاء مشاعره بالابتسام والضحك، ولكن بعد كل مقابلة أسمع منه كلامًا آخر، فالابتسام سلوك عام، أما الاهتمام والحذر فهو سلوكه، هو الذي يوصينا باتباعه.

وأراد الرئيس السادات أن يغير الجو وأن يؤجل المناقشات إلى جلسة أخرى في إسرائيل، فطلب من المشير الجمسي أن يعجل، أما الذي أراده أن يعجل به فهو (تورتة عيد الميلاد)؛ ففي ذلك اليوم تصادف عيد ميلاد الرئيس السادات، ولم يشأ أن يخبر أحدًا حتى لا يفاجأ بالوفد الإسرائيلي يقدم له هدايا محرجة، كأن يعطوه مثلاً نسخة من التلمود أو من الوصايا العشر. ولكن أكدت للرئيس السادات أن علاقتي بالصحافيين الإسرائيليين تؤكد غير ذلك، فالهدايا عندهم رموز صغيرة جدًّا، ففي رأس السنة العبرية يبعثون بعلبة من عسل النحل، أي أن تكون

السنة الجديدة كالعسل، وفي إحدى المرات عندما جاء موشى ديان للقاء السادات قدم له هدية تبعث على الخجل، خجلنا نحن، فقد أخرج من حقيبة زوجته قطعة من الشيكولاتة وقال للرئيس: هذه لأحفادك، ولم يعرف الرئيس السادات والسيدة زوجته ماذا يفعلان وماذا يقولان، ولكنها هدية، أو رمز لهدية!

وفوجئ الرئيس السادات بهدية من الذهب، الهدية عبارة عن نسر صغير، وأنا نشرت الخبر، واتصل بي الرئيس السادات ضاحكًا، قائلاً: يا أخي فضحتني، سوف أرسل لك النسر وهو في حاجة إلى قاعدة كبيرة حاول أن تتفق مع أحد الفنانين لكي أضعه في صدر الصالون عندي في البيت.

وجاءتني الهدية وهي عبارة عن نسر في حجم الإصبع الصغير. وليس من الذهب، وإنما من الخشب المذهب!

ونحن ندور حول التورتة ونقول للرئيس عقبال مائة سنة يا ريس، جاء بيجن والوفد الإسرائيلي يقولون: عقبال مائة وعشرين يا ريس! وسألني الرئيس: فقلت إن 120 سنة هي عمر موسى عليه السلام – كما تقول الكتب اليهودية – وربما كان أعضاء الكنيست 120 مقعدًا لهذا السبب!

لا (سوهور) فـي موسكو!

كنـا في طريقنـا إلى هـافانـا عـاصمة كوبـا، وكـان لا بد أن نتوقف في موسكو، ودعينـا إلى تنـاول طعـام الإفطار في الكرملين، فقد كنـا في شهر رمضـان المبـارك، وجلسنـا، نحن وفد دول عدم الانحيـاز، إلى مـائدة طويلـة جدًا، وجلسنـا ننتظر، وطـال الانتظـار، وسألنـا: فيـه إيـه أيـهـا الرفـقـاء؟ فـأشـاروا إلى ثـلاثـة يصلـون المغرب حسب التوقيت المحلي لمدينة موسكو، الثلاثة هم خـالد محيي الدين المصري وأحمد الفاسي السعودي وعبد الله بن يحيى العلوي اليمني! أمـا المـائدة فعليهـا عصير برتقـال وإلى جواره كأس فودكا، فودكا في رمضـان؟! إنهم لا يعرفون إن كانت حلالاً أو حرامًا، إنهـا موجودة. وأي كوب فـارغ في روسيا يمتلئ من تلقاء نفسه بـالفودكا!

ونظرت أمـامي، لم أجد شيئًا أستطيع أن آكله، اللحوم لا أذوقهـا، فمـا بـالك إذا كـانت لحم خنزير، ثم هذا الشيء كريه الرائحة.. إنه الكرنب، ولا أعرف إن كـانت هذه بطاطس أو بصلاً أو نبـاتـات أخرى، ولم أجد مـا آكله، وسألوني، قلت: نبـاتي، وكأنه كـان ينقصهم فقط أن يملئوا إحدى خـانـات بطـاقتي الشخصية، ولم يفكر أحد في أن يقدم لى طعـامًا، يعني يجب أن أواصل الصيـام وأن أكتفي بعصير البرتقـال، وحكيت لصديقي الشـاعر

اليمني يحيى العلوي، فهز رأسه بما معناه ولا يهمك سوف أجد حلاً، وهو لا يعرف لغة أجنبية، وكانوا قد كلفوا أحد أساتذة جامعة موسكو بمرافقته، وكان الأستاذ يتكلم العربية، فطلب منه أن يذهب إلى المطبخ، وذهب، وأشار إلى الزبدة، ثم أشار إلى البصل والبطاطس والبيض والطماطم، وقال كلامًا معناه اطبخ هذه المواد معًا وفورًا، وتهامس الناس وتغامزوا وانتقلت المواد إلى وعاء كبير، وتصاعد بخار الكرنب والبصل، رائحة تبعث على القرف!

وهززت رأسي أنني لا أستطيع، وأعلنوا أن هذا أقصى ما يستطيعون وخرجنا، وفوجئنا بطفل صغير جميل، وأشار إليه الأستاذ العلوي فصرخت الأم واحتضنت طفلها، واندهشنا، فهو قد أشار إلى الطفل، ولم يكن في النية أن نأكله كأننا أكلة لحوم البشر، وإنما وجدنا الطفل يأكل حبات حمص، فطلبت مثل هذه الكمية لكي أتناول إفطاري. وجلسنا ننتظر الإفطار. وجاءت جرسونة حلوة، حلوة جدًا، وقالت ما لم نفهم بالروسية. وترجم لنا الأستاذ جريجوري المكلف بمساعدة الشاعر اليمني، قال إنها على استعداد أن تقدم لنا ما شئنا من هذا الحمص، فوافقت، وجاء نصف طبق من الحمص، فأشرت إليها أننا نريد أن نفطر، فأتت بكمية أكبر، وقالت ضاحكة: أنتم لا ينقصكم إلا بغبغان أو قرد ليشارك في هذه الوجبة! ولم نكد نمد أيدينا على هذه الوجبة البغبغانية حتى جاءت واحدة أخرى وسحبت الطبق بمنتهى الشدة، ونظرت في ورقة وقرأت: (سوهور) أي سحور، يعني أن نمتنع عن الطعام، وامتنعنا!

نشروها على ظهر غانية!

الزميلة الصحافية، حلوة ظريفة، فهي جميلة جدًا، وكلامها حلو، وعندها حكايات وغراميات وبطولات، ولا بد أن من يجلس إليها يحرص على ألا تنتهي هذه المقابلة، وهي قريبة جدًا إذا تكلمت، وبعيدة جدًا بعد ذلك، فالاقتراب اقتراب من النار. وهج وحرارة، وبس!

قالت لي: خدمة. قلت: تحت أمرك. قالت: رئيس الوزراء. قلت: ماله؟ قالت: هو هدفي، أريد أن أجلس إليه وأن أسأله، وأنا مستعدة تمامًا لهذا اللقاء، قرأت عنه في مصر وفي أمريكا، وأعرف دوره في المخابرات عندما كان رئيسًا لها، ودوره كرئيس لوزراء مصر، ما رأيك؟ قلت: أسأله.

وذهبت إلى الصديق كمال حسن على رئيس الوزراء، وقلت شعرًا في الصحافية الحلوة التي تنشر مقالاتها في عشرين مجلة، أي أن قراءها مائة مليون على الأقل، ثم إنها تقرأ في التليفزيون، فأي كلام يقوله رئيس وزراء مصر سوف ينتشر في الدنيا، وفي إسرائيل، وقلت له: أنا أعرف معظم الأسئلة أي معظم الموضوعات، فما رأيك؟ قال: خلاص على مسئوليتك! قلت: نعم لا تخش شيئًا، فهي صحافية كبيرة ولا تغير ولا تبدل في كلمة واحدة مما تقول ويمكنك أن تسأل عنها فلانًا وعلاّنًا!

ولا بد أنه سأل وتحرى وتحقق وتأكد؛ فهو رجل المخابرات ومثل هذه الإجراءات الصغيرة لا تفوته. وذهبنا إليه، وقد ارتدت (ج.م) فستانًا رائعًا، وتعطرت وتلونت وكشفت الكثير من فتنتها. وأعجبني ما قاله كمال حسن على في السياسة الخارجية وموقف مصر من إسرائيل ورأي مصر في حل القضية الفلسطينية تدريجيًا ومن الذي يستطيع أن يحقق ذلك، ولم أشأ أن أنشر ما قاله كمال حسن على، فالأهم هو أن تنشر هي، ولما عرضت الصور التي التقطتها، رجوتها ألا تنشر بعض هذه الصور، فلا علاقة لها بالحديث، ووافقت على عدم نشر كل هذه الصور! وشكرها كمال حسن علي وشكرني وشكرتها أيضًا، وانتظرنا الحديث منشورًا في صحف أمريكا.

وجاءني مظروف ضخم فخم من الرئيس السادات، وعليه هذه العبارة: يرسل للأستاذ أنيس. وفتحت المظروف، يا نهار أسود ومنيل بستين نيلة! الله يخرب بيتك والبيت اللي جنب بيتك، لقد نشرت حديث كمال حسن علي في مجلة «بلاي بوي» فالصور الجنسية أمام الحديث ووراءه، ثم من هذا الذي يقرأ كمال حسن علي ويغفل هذه الروائح الجنسية!!

ولم تكن مجلة «بلاي بوي» إلا واحدة من عشرين مجلة أخرى نشرت هذا الحديث، صحيح لم تغير كلمة واحدة مما قال رئيس وزراء مصر ولكن...) ولم يعرف هذه المصيبة إلا قليلون، وكان لابد أن نشكرها، وشكرتها أنا!

من كان سعيدًا فليرفع صوته!

مهمة صعبة جدًا. أن أقنع شابًا متعلمًا ناضجًا أن يتزوج وهو مُصرٌّ ألا يفعل ذلك، وعنده أسباب. وطلب مني والده أن أحاول إقناعه بعد أن بلغ الثلاثين، وقد آن الأوان أن يتزوج والبنات «على قفا من يشيل» كما يقول المثل الشعبي. أما أسباب والده فلم تقنعني، ولأنه أب ويرى ما لا أرى، ذهبت إلى الشاب وتكلمنا في كل شيء إلا الزواج. واستدرجته إلى الكلام عن الزواج. وكأنه كان مستعدًا لهذا اليوم. تمامًا كما لو كان محاميًا أعد أوراقه والدفوع الشكلية والقانونية، ووقف أو تخيلت ذلك، وقال: يا حضرات المستشارين. إنني مؤمن تمامًا بعدالتكم. القضية يا حضرات السادة هي محاولة مستمرة على وضع السلاسل والقيود في يدي وقدمي شاب متعلم غني ذكي. يريد أن يموت حرًا كما عاش حرًا. ولكن الذين ينصحون بالزواج هم أقل الناس استحقاقًا لهذا الدور فقد تعذبوا بالزواج. ولم يفلتوا من القيود وهم لذلك يحسدون الأحرار ويريدون أن يتحول العالم إلى سجن كبير. هذه هي القضية يا حضرات المستشارين.

ثم جلس وقلب أوراقه واستأذن في أن يبل ريقه بقليل من الماء. واستأذن في إكمال المرافعة: يا حضرات المستشارين يا حضرات القضاة العدول إن الماثل أمامكم هو ابن الزوجة الأولى لوالدي ونحن

خمسة، ورغم التضحيات الهائلة التي بذلتها أمي الغنية جدًّا من أجل أن يقف والدي على قدميه فقد طلّقها. وفي الصف الأول من هذه المحكمة الموقرة يجلس أخي غير الشقيق وهو ابن الزوجة الأستاذة في الجامعة، الأستاذة المرموقة التي حصلت على جائزة الدولة التقديرية في العام الماضي. وله ثلاث بنات في غاية الجمال. وقد طلقها والدي أيضًا. وأما أخوتي من الزوجة الثالثة بنت الباشا فهم أطفال رضع، ولم أفلح في أن آتي بهم إلى المحكمة. يا حضرات المستشارين إنني أكبر الأولاد وشاهد على العصور الثلاثة لوالدي، ولقد تزوج الغنية، وتزوج العالمة الجليلة، ثم تزوج بنت الأكابر وسيدة الصالونات.

يا حضرات المستشارين هل هناك أدلة أقوى وأوضح وأفدح من هذه الأدلة على بطلان أي زواج أو على فشل الحياة الزوجية أو على أن الزواج هو أسوأ رباط اهتدى إليه الإنسان. أنا أعرف أن الذي أقوله بصوت مرتفع يتردد في أعماق الحاضرين جميعًا بصوت منخفض. إنني لا أترافع وإنما أقر حقيقة وأنا لا أطلب العدل وإنما أشير إليه واسمحوا لي يا حضرات المستشارين أن أطلب إلى السادة الحضور في القاعة أو في القفص أو على المنصة. من كان منكم سعيدًا في زواجه فليرفع أصبعه.

لم يرفع أحد. وصفقت أنا للمحامي، ولما طلبني أبوه في التليفون وجدتني، وبمنتهى الهدوء، أغلقت السكة في وجهه.

فقد رفعت الجلسة.

أنت مرفوضة شكلاً!

سعداء الذين لديهم سكرتيرون أو سكرتيرات يفهمون معنى هذه الوظيفة الهامة في حياة كبار المسئولين، ولسوء حظي استبعدت ثلاثة من السكرتيرين في شهر واحد. واحد طلبت منه أن يتصل بمكتب رئيس الوزراء. ونبهته إلى أنني أريد أن أكلم سكرتير رئيس الوزراء وليس رئيس الوزراء نفسه، يعني يطلب لي السكرتير وأنتظر حتى يكلمني رئيس الوزراء. الأصول كده. حاضر يا أفندم- كان الرد التقليدي، وانشغلت بعض الوقت، عشر دقائق. وفوجئت به يقول: السيد رئيس الوزراء على التليفون. وفعلاً وجدت رئيس الوزراء وظللت أعتذر كثيرًا بأن هذا سكرتير جديد ولا يفهم الأصول، وأتيت بسكرتير آخر. وطلبته من سويسرا أسأله عن الذين سألوا عني، فذكر عشرين اسمًا وفي آخر القائمة كان مكتب سيادة الرئيس! يا خبر أسود! وطلبت الرئيس وكان في الإسماعيلية واعتذرت وقلت إنني في سويسرا وسكرتيري جاهل، فضحك الرئيس السادات وقال: يا أخي مش جاهل للدرجة دي، مش قال لك مكتب الرئيس؟ هاهاها.

وأتيت بواحد ثالث: وحذرته وشددت عليه. وفي يوم كنت أتناول العشاء في بيت أم كلثوم عندما سألتني: باقول لك إيه، هوه انت عندك مكتب آخر غير مكتبك في أخبار اليوم؟ قلت: لا. قالت: أنا افتكرت أن لك

مكتبًا في أحد المقاهي. قلت: ليه؟

أما الحكاية فهي أنها طلبتني ورد عليها السكرتير، وقال لها: مين سيادتك؟ قالت: أنا الست، فسألها: الست مين؟ قالت: هو فيه ست غيري؟ وقال لها السكرتير: فيه ألف واحدة ست يا ست. قالت: ما تعرفش الست أم كلثوم! ولم يرد وأغلق التليفون في وجهها. وعاودت أم كلثوم الاتصال تداعبه وهي تحب المداعبة مع مثل هذا الطراز من الناس. ولما رن جرس التليفون رد عليها سكرتير آخر وقال: أهلا يا ست، شرف عظيم يا ست، والله أنا كنت باحلم أنني أسمع صوتك، يوم تاريخي يا ست! فما كان من السكرتير الذي لم يعرف أم كلثوم إلا أن قدم استقالته، ولم يعد.

وطلبت من أحد أصدقائي أن يبحث لى عن سكرتيرة تعرف عدة لغات والآلة الكاتبة والكومبيوتر. وفعلاً جاءت السكرتيرة. ولم أكد أراها، حتى قلت: يستحيل أن تعمل هنا. إنها جميلة جدًا. وسوف يقال إنها صديقة السيد رئيس مجلس الإدارة. مستحيل! وسألتها: تعرفين لغات؟ قالت: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، لأن أمي إيطالية وأنا ولدت في باريس! ورحت أبحث فيها عن عيب؛ وسألتها: متزوجة؟ قالت: ليس بعد. وسألتها: أنت وحيدة أبويك؟ فأجابت: نحن ثلاث بنات وبهذا الجمال؟ (ضحكت وهزت رأسها بما معناها نعم).

– وأنت تقدرين لنفسك مرتبًا شهريًا كم؟

– بالدولارات؟!

– دولارات إيه؟ هنا حكومة، بالجنيه المصري، وجاء تقديرها عشرة أمثال مرتبي أنا كرئيس مجلس إدارة دار المعارف ومجلة «أكتوبر»، ووجدت أن هذا العيب هو الوحيد فيها، وهي في دهشة من تساؤلاتي وعدم حماسي لها. واختصرت الدهشة من جانبها والحيرة من جانبي وقلت: شوفي يا جميلة أنت مرفوضة شكلاً!

وسألتني: يعني إيه! أجبتها: بسبب شكلك الجميل جدًا لا أستطيع أن أستعين بك، دون أن يساء فهمنا نحن الاثنين!

وعدت إلى الشر الذي لا بد منه: السكرتير الرجل!!

وكان انتقام الله أعظم!

كان في أعماقي شيء ما، هذا الشيء هو أن رجلاً قد أهان والدي منذ خمسين عاما. ذهبت أبحث عنه لكي أصفعه، وأعود إلى القاهرة. وطلبت من صديقي الدكتور كامل دياب صاحب جريدة «مصر اليوم» ابن الصحفي الكبير توفيق دياب، أن أبحث عن هذا الرجل في إحدى قرى محافظة البحيرة. واهتدينا إليها. وكان الطريق صعبًا. فكان لابد أن أسير في طرق ضيقة وأن أعبر إحدى الترع فوق أنبوبة رفيعة، وخلعت حذائي لكي أعطي لقدمي فرصة التوازن على هذه الأنبوبة. وكدت أقع في الماء. ولكن الذي في داخلي أقوى. سألنا.. قالوا: هذا بيته.

وتذكرت هذا الرجل.. لقد كان شابًا نحيفًا شاحب الوجه، وادعى كاذبًا أن والدي أساء معاملته. وكان والدي طيبًا مؤمنًا، متصوفًا زاهدًا في الذي في أيدي الناس، ولكن هذا الرجل اللص شكا والدي واستدعوه ليلاً. وكانت ليلة سوداء - لا نمت فيها ولا أمي ولا إخوتي. فنحن لا نعرف معنى الاستدعاء أو التحقيق، فقد ظننا أن والدنا أدخلوه السجن، ومع الفجر جاء الوالد ونام من الإرهاق النفسي، ونحن لم ننم، وبقيت هذه الحادثة الأليمة في مكان ما من نفسي. والرغبة في الانتقام منه لا تبعد كثيرًا عن مكان الألم الذي لم يخمد نصف قرن، ودخلنا على الرجل، وقد تكوم في جانب من السرير، فقد صار ربع نفسه، رفع جسده ونظره وسمعه، وابتلعت ريقي.

وعدت راضيًا فقد انتقم لى الله من ظالم لعين!

وتذكرت أنني كنت أتناول الغداء في بيت السفير الأمريكي فرانك وزنر على شرف حرم الرئيس كارتر، وكانت هناك السيدة جيهان السادات. وقفت أتحدث إليها عندما اعترضت على حديث السيد محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية، الذي استقال في كامب دافيد اعتراضًا على اتفاقية السلام. وكان ذلك دليلاً على سوء تقديره وقصر نظره وسذاجته السياسية. وقبل السادات استقالته واستغل هذه الحادثة للضغط على مناحم بيجن، مؤكدًا له أن الاتفاق مع إسرائيل يلقى اعتراضًا حتى من مستشاريه!

ثم أصدر إبراهيم كامل كتابًا هاجم فيه الرئيس السادات، وقد ساعده في هذا الكتاب الدكتور أحمد ماهر مدير مكتبه ووزير الخارجية الأسبق. واقترب من السيدة جيهان السادات، وقال لها: طبعًا يا هانم حضرتك زعلانة مني؟ فقالت: ليه؟ قال: لأنني هاجمت الرئيس السادات. فقالت: ما دمت مقتنعًا برأيك فلماذا تعتذر، الرئيس السادات زعيم يختلف الناس ويتفقون عليه، وليس كل مؤهلاته أنه زوجي! وكانت لهجة جيهان السادات حادة قاطعة كأنها رصاصات لا تطلق نارًا ولا دخانًا. سألتها: يا هانم لهجتك هادئة معه، فقالت: وهل أفعل به أكثر مما فعله ربنا.

فقد كان مريضًا عاجزًا عن الحركة شاحبًا، وبعدها توفي إلى رحمة الله. وأنا لم أهاجمه قط دفاعًا عن الرئيس السادات، لأنه قريبي!

.. نهاية من نار!

ما الذي تغير؟ الجو تغير، الهواء أنقى والسحاب قد اختفى من السماء، والهدوء ليلاً ونهارًا. ولكن ما الذي أستطيع أن أفعل، أما البحر فلا أعرف كيف اقترب منه. وقد حاولت أن أتعلم السباحة، وفشلت. أو فشل السباح العالمي عبد اللطيف أبو هيف في أن يعلمني الضربة الأولى بذراعي أو ساقي للماء، وكل ما قاله أبو هيف سمعته من عشرين غيره. كان عندهم نفس الأمل في أن يجعلوا مني حوتًا عابرًا للقنوات، وبقيت القنوات وظهرت للحوت رجلان وتمدد بعيدًا عن الماء.

فالبحر أمامي. بعيد أو لا بعيد ولا قريب وإنما هو صورة مرسومة على الأرض. وإذا كانت الزوارق تروح وتجيء، فلأن الزوارق قادرة على الطفو ولأن ركابها قادرون على العوم.

وكما أن هناك طيورًا تطير ولا تسبح، فهناك آدميون لا يطيرون ولا يسبحون. ومثلي مئات الملايين.

ولاحظت أنني إذا كنت أعرف السباحة، فسوف أجلس إلى أربعة أو بين خمسة من المصطافين، ولكن الذين لا يعرفون السباحة يستطيعون أن

يشاهدوا المئات، اختلفت عندهم ألوان المايوهات طولاً وعرضًا ولونًا واهتزازًا وموسيقى.

وقديمًا غنى محمد عبد الوهاب:

كلنا نحب القمر.. والقمر بيحب مين؟

حظنا منه النظر.. والنظر راح يرضي مين؟

يرضيني يا أخي. الحد الأدنى لحريتي في اللمس بالعين!

في يوم فوجئت بالسيد صلاح الشاهد مدير المراسم في رياسة الجمهورية يرشحني لأكون رئيسًا لاتحاد سباحة المسافات الطويلة، قفشة. كيف يكون رئيسًا من لا يستطيع أن يتحرك من طرف حمام السباحة إلى الطرف الآخر. نكتة!

وفوجئت بأنه جاد في هذا الترشيح وحاول إقناعي قائلاً: أنت تعرف فلانًا رئيس اتحاد موظفي الطيران، إنه ليس طيارًا!

وأكدت له أنني لا أخاف من الماء، سافرت بحرًا كثيرًا، عبرت البحار والمحيطات أيضًا، وشاهدت جبال الموج، ووقفت أتأمل جمال بركان استرومبلي، وأنا أعبر خليج مسينا بين إيطاليا وجزيرة صقلية، ورأيت بركان هاواي، من الجو، واقتربت منه بطائرة كانت ألعوبة بين الماء والهواء، الماء يقذفها إلى فوق والهواء يردها إلى تحت!

وآخر مرة تشجعت وأدليت بساقي في الماء، الشعور لذيذ، حركة الماء تدغدغ قدمي. وصرخ الأصدقاء: أول الغيث قطرة، طريق الألف ميل يبدأ بخطوة على سطح الماء..

عندها صرخت وكدت ألقي بنفسي في الماء. فقد التصق بساقي (قنديل البحر) وهو حيوان يفرز سمًّا أشعل النار في كل جسمي.

وكان ذلك إعلانًا ملتهبًا بقطع كل علاقة لي بالماء من قريب أو بعيد!

أطول العيدان ينكسر!

قلت لصديقي: أحكي لك حكاية، أنا ترجمت مسرحية لعميد المسرح الفرنسي جيرودو. المسرحية اسمها بالفرنسية (من أجل لوكريس) ولكني ترجمتها بعنوان «من أجل سواد عينيها» وهي مأخوذة عن قصة إغريقية قديمة عن سيدة فاضلة. أو السيدة الفاضلة الوحيدة في المدينة، وهي سبب غيظ جميع السيدات، فالمقارنة مستمرَة بين هذه السيدة وبين كل الزوجات. فكل زوج يقول لزوجته: شوفي لوكريس، ماذا فعلت، وماذا ترتدي وكيف تتكلم وكيف يحتار الرجال في مدحها والتقرب منها.

وأصبحت لوكريس صداعًا يوميًّا في كل بيت. وكان لابد أن تتفق كل النساء عليها، واتفقن، ثم استدرجن الرجال جميعًا إلى غداء خارج المدينة، فذهبوا وذهبن إلا لوكريس. فأرسلوا لها من يعاكسها ويغازلها ويحاول، وأخبروا زوجها. وذهب الزوج ليرى زوجته وهذا الرجل. فضيحة، وهذا هو المطلوب، إذن لوكريس سافلة ومنحلة مثل كل النساء الأخريات، فلا أحد أسوأ ولا أحط من أحد، سقطت لوكريس، وأصبحت المدينة تضم نساء كلهن ساقطات. وسكت الرجال عن زوجاتهم!

والتفت إلى صديقي أقول له إنها قضيتك يا سيدي. والقضية كما ترى قديمة. ولكن الطبيعة البشرية واحدة. والشر أبدي والحقد كذلك والحسد والرغبة في الانتقام.

فأنت يا سيدي العزيز، كما قال لك طه حسين في إحدى المحاضرات، وكانت التفاتة رفيعة من أستاذنا الجليل، هل نسيت أنه قال لك: يا سيدي أنت عود من القمح سليم، وأطول العيدان وأصحها، فإن لم تحطمك الريح فسوف تمتد إليك ألوف الأيدي، حتى تكون في طول قامتها، أو لا تكون لك قامة أو قومة!

وكان صديقي قد نسي، عدت أقول له: أحكي لك حكاية، من عيوب الشيوعية أن تساوي بين كل الناس، أو بعبارة أخرى تريد أن تقص أصابع اليد فتجعلها كلها في طول أصغر الأصابع، أي تجعل أطول أصبع في ارتفاع أقصر أصبع، يعني كل زملائك ورؤسائك في العمل لا يطيقون موهبتك وذكاءك واستقامة خلقك، ولذلك لا بد أن تختفي كما اختفت لوكريس وعود القمح!

وأظن أنه قد فهم!

الذين انتهكوا حرمة الموتى!

كانت إحدى المجلات الإيطالية قد نشرت صورة للأميرة ديانا وقد وضعوا أجهزة الأكسجين على أنفها، ولكنها كانت قد ماتت قبل ذلك بدقائق. ثم أعادوا نشر الصورة لها مع صديقها دودي محمد الفايد والسائق هنري بول.

وغضب أخوها وولداها وبعثوا بشكوى إلى القضاء الإيطالى. ورأوا في ذلك عدوانًا على ميثاق الشرف الصحافي وعلى حرية الصحافي وعلى حرمة الموتى. والمجلة كانت تملكها أكبر شركة نشر في إيطاليا وهي شركة موندا دوري التي يملكها الآن برلسكوني رئيس الوزراء السابق.

وقد علق المحامي الإيطالى روبرتو فرسكاني بأن القانون في صف ديانا، وأنه من الممكن أن يدخل رئيس التحرير السجن سنوات لأن الجريمة فادحة، فليس من حق أحد أن يعتدي على كرامة الإنسان الميت أو الحي. وهذه الصورة ليست خبرًا قد انفردت به المجلة الإيطالية وإنما هي قد انفردت بإهانة وتجريح الموتى. والقانون الإيطالي الخاص بأخلاقيات الصحافة الذي صدر سنة 1948 صريح في ذلك تمامًا. ولا يهم إن كانت الأميرة ديانا قد قتلت من تسع سنوات أو تسعين.

وقد حدث نفس الشيء في مصر، فقد نشرت إحدى المجلات صورة الرئيس السادات مسجى في المستشفى العسكري، وهي نفس الجريمة. وغضبت الأسرة وملايين المصريين، فالصورة إهانة لرجل عظيم، ولم ينكر أحد أنه مات. فالمجلة لم تضف إلى معلوماتنا شيئًا جديدًا. وإنما إهانة للرجل الشهيد ولنا جميعًا.

ولم يلق رئيس التحرير أي عقاب، ولا حتى اعتذر لأسرة الفقيد، أي أسرة السادات ومصر كلها!

ربما كان السبب أن الموتى في بلادنا ليست لهم حرمات، ففي المتاحف مئات الجثث لأجدادنا الفراعنة.. مومياوات وتوابيت، فقد اعتدنا على ذلك، وليس من قبيل الصدف أن تكون أكبر معالمنا التاريخية هي الأهرامات.. وهي أعظم مقابر هندسية في التاريخ!

ومن الحكايات التي يدرسها الطلبة في كليات الصحافة أن صحيفة «التايمس» البريطانية نشرت صورة لواحد هرب من البوليس فأطلقوا عليه النار. وتغيرت هذه الصورة في الطبعة الثانية للصحيفة، ولجأ أهل الميت إلى القضاء فحكمت المحكمة بتعويض مليون جنيه، لسببين: السبب الأول أن الصحيفة في طبعتها الأولى وصفت الفقيد بالمجرم، مع أنه لم يصدر حكم قضائي بهذه القضية واستدركت ذلك في الطبعة الثانية وقالت: المتهم. ثم إنها نشرت صورة لرجل ميت، وهذا انتهاك لحرمة الميت، سواء كان مجرمًا أو متهمًا!

وقد توعد أهل المتهم أنهم سينشرون صورة لرئيس التحرير إذا مات ويوزعونها في الشوارع، فأكد لهم المحامون أن هذه جريمة مع سبق الإصرار والترصد وعقوبتها السجن الطويل!

صدقني: الكلاب أحسن!

كان لا بد أن أذهب بنفسي إلى العيادة، الطبيب صديقي، كل الأطباء أعرفهم. وسألوني: ما المشكلة؟ قلت: لاحظت في الأيام الأخيرة أنه يعطس ويسعل. وفيما عدا ذلك سلوكه عادي جدًا.. يلعب ويأكل وينام بعمق. ولكن فجأة يسعل.. وسعاله شديد لدرجة أنه يقفز من فوق الأرض.

ونظر إليه الطبيب وقلب رأسه وفتح عينيه.. وضغط على عنقه.. ثم على بطنه.. وقال: بسيطة وسيادتك تتركه في الحفظ والصون. وسوف نتولى كل شيء.

وودعته. ولكن وجدت سيدة إيطالية قابلتها في هذه العيادة عدة مرات، جلست إليها تتكلم عن التعديلات الوزارية في إيطاليا.. وذكرتني بأننا التقينا في بيت ابنة الزعيم موسوليني في مدينة تورينو أيام حملتها الانتخابية، وكيف أنني حدثتها عن صوفيا لورين وأن والدها كان من القاهرة. ولا يزال في حي شبرا بالقاهرة شارع يحمل اسم والدها: شيكولاني.. فصوفيا لورين ابنة غير شرعية، وقد غيرت اسمها واختارت اسمها الفني صوفيا لورين.. ولما أصبحت معروفة وأعطت والدها الكثير من الفلوس اعترف بها.

وحكيت لها قصتي مع نجمة السينما الإيطالية: إليانوره روسي دراجو.. وسألتني إن كان رأيي لا يزال كما هو وأنها أجمل مَنْ خلق **الله**. رأيتها يوم وقفت في حمام السباحة في فندق ميناهاوس وأحسست أن أبا الهول قد استدار ليرى هذه التحفة الفنية!

وقطع حوارنا الهادئ صوت التمورجي يقول: ريكو أنيس منصور.. ريكو.

أما ريكو هذا فهو كلبي. وهنا في عيادة الأطباء المصريين ينادون على الكلاب بأسماء أصحابها. ولم يضحك أحد من الحاضرين.. فهذه عادة عند الأطباء.. وسألتني: عندك أولاد؟ قلت: لا.. كلاب فقط!

وجاء صوت غليظ يقول: لوليتا السجروني! وقامت السيدة الإيطالية! لقد تزوجت مصريًا قبطيًا اسمه جرجس السجرون.. والكلبة اسمها: لوليتا السجروني. وجاء الطبيب واندهش من أنني مازلت جالسًا، وقد ظن أنني قد تركت العيادة. فكلبي مع الممرضين. واستأنفنا حوارنا.. وقالت: إن لوليتا صدمتها سيارة.. ولما أفلتت من تحت عجلاتها داسها أتوبيس.. والنتيجة: بقايا لوليتا.. انكسرت ساق.. وثلاثة ضلوع.. وعين واحدة.. وهي ترى بصعوبة وتسمع بصعوبة وتتحرك بصعوبة والسيدة السجرون ليس عندها أولاد.. وإنما كلاب فقط.

وأحسست بأننا تقاربنا، وأحسست بدفء يدها وعينيها وقلت لها مواسيًا: صدقيني الكلاب أحسن!

أشهر قبلة في التاريخ!

فشلت كل المحاولات الطبية التي تقول إن القبلات من الناحية الكيميائية ضارة. ففي الفم كل أنواع الميكروبات والفيروسات والبكتريا! ولكن لم يتوقف الناس عن القبلات في كل مكان وفي كل وقت.. وأول قبلة وآخر قبلة. والقبلة التي لا تنسى! دلالات القبلات على الجبهة وعلى الشفتين وعلى اليدين وعلى الأرض أمام القدمين.

والعلماء يقولون ويحذرون، والناس يقابلون ويتقابلون ويقبلون كأن أحدًا من العلماء لم يقل شيئًا!

وفي كتاب صدر أخيرًا عن حياة عبقري الفيزياء في القرن العشرين أينشتاين، وهو رجل ذئب لا قلب له، وإنما له عقل في دماغه، وعقل آخر مكان القلب، يقول: نصف لذَّاته الجنسية في القبلات!

والشاعر بيرون الذي تعب من النساء كان يتمنى لو اجتمعت النساء كلها في امرأة واحدة ليقبلها مرة واحدة ثم يموت!

وأشهر قبلتين في التاريخ: قبلة يهوذا الأسخريوطي للسيد المسيح. وكان يهوذا من الحواريين، أي من تلامذة السيد المسيح. وقد أراد الرومان القضاء على المسيح. فوجدوا يهوذا وساوموه ودفعوا له وقبل الخيانة رغم

ثمنها البخس. وقال لهم: إن الشاب الذي سوف أعانقه وأقبله هو المسيح.

وعرفوه. وكان ما كان في التاريخ من عدوان وحشي على السيد المسيح عليه السلام!

صحيح أن كتابًا ظهر أخيرًا من مخطوطة قبطية وجدوها في مصر تقول إن يهوذا كان عزيزًا على السيد المسيح وأنه لم يخنه – ولكن ليس هذا رأي المسيحيين في عشرين قرنًا.

أما القبلة الثانية فهي للشاعر الصيني الرومانسي «بي لو». كان ذئبًا وكان سكيرًا وكان لا يجد لذة إلا في أن يجلس وحده ويشرب ويكتب، وكان لا يحلو له ذلك إلا جالسًا فوق شجرة، فوق مكان مرتفع ليشهد السموات والأرض على عذابه.. فهو عابد للجمال في السماء، وعاشق للجمال على الأرض، وأمله في أن يموت وهو يغني.

وفي إحدى الليالي ركب زورقًا، وكان الزورق يترنح مثله تمامًا. ودفع الزورق بعيدًا عن الشاطئ ومضى في الشراب وتساقط في جانب من الزورق واعتدل ليجد صورة القمر الفضي مطبوعة على الماء.. فانحنى يقبل القمر وكانت قبلة الموت، سقط الشاعر تحت الماء ليكتشفوا جثته بعد يومين ويقولون: إنه كان مشرق الوجه، وتقول الأسطورة إن الممرضة التي حاولت تغطية جسد الشاعر فوجئت به ينهض ليقبلها ويموت مرة أخرى!

الذين رفضوا الحياة!

كثيرون حاولوا الانتحار: العقاد وصلاح جاهين وجمال حمدان وكافكا وولف ولرمونتوف وكاتب هذه السطور، ضيقًا بأنفسهم أو بالحياة أو يأسًا من كل شيء. فلم يكن الموت إلا رفضًا واحتجاجًا وحذفًا لأنفسهم من دفاتر الأحياء وانتقالاً بأيديهم إلى قبورهم. وبعض الأدباء أحرقوا كتبهم.. أو أمروا بإحراقها.. أي أحرقوا صورتهم بعد الموت.. أي أنهم حاولوا فقتلوا مستقبلهم أيضًا.. وكثير من الفاشلين والمفلسين والمرضى الذين لم يجدوا علاجًا.. أو لأنهم كانوا صغارًا لم يعرفوا لذة الحياة في الكفاح حتى الفوز بشيء وليس كل شيء.

ومن الغريب أن أستاذنا العقاد هاجم التشاؤم وهاجم الهروب من الحياة. ولكن العقاد كان شديد التأثر بفيلسوف التشاؤم العظيم أستاذنا الفيلسوف الألماني شوبنهور.. وكتب العقاد مقالاً يقول فيه: أنا أقول للحياة نعم! وهو الذي رفض قبل ذلك أن يكون للحياة قول أو رأي.. فرفض الحياة.. وحاول الانتحار عدة مرات.. بينما الفيلسوف شوبنهور يرى أن الحياة، غريزة الحياة، هي التي تسخرنا أن نفعل ما تريد هي لا ما نريد نحن.. فالحب مثلاً ليس إلا صورة زائفة للجنس الذي يؤدي إلى استمرار الحياة. فالحياة خدعتنا حتى نروح ونكمل مسيرتها ولو على جثث المفكرين.

وقد فوجئ العالم كله بالأديب الياباني الحاصل على جائزة نوبل، ينتحر على الطريقة اليابانية: هارا كيري. إن الأديب ميشيما (1925 – 1970).. وهو كاتب قصة قصيرة ورواية ومسرحية وله رباعية طويلة، مثل «رباعية الإسكندرية» وثلاثية نجيب محفوظ.. والخيط الذهبي في أعماله الأدبية، أنه ساخط على اليابان الحديثة حزين على ماضي اليابان القائم على القيم الأخلاقية والجمالية واحترام الكبير وتقديس الماضي العظيم لبلاده. وأنه يشفق على الشعب الياباني الذي وقع أسيرا للأدوات الإلكترونية التي اخترعها ونافس الدنيا في إبداعها.

وقد صارح كل أصدقائه وأولاده أنه اتخذ قرارًا بعد أن فشلت كل أعماله الأدبية، التي استحق عنها أعلى الجوائز، في أن تقنع الشعب الياباني بأن يعود إلى ماضيه. فقرر أن يعود هو وحده إلى الماضي. وأن يتخذ قراره وحده. وأن ينتحر بأن يقتل نفسه بالسيف، كما كان يفعل النبلاء في العصور القديمة. وكما يفعل الجنود حتى لا يقعوا في الأسر.. وانتحر ومات!

وكان موته إحياء لتقاليد (الساموري) أي النبلاء والإقطاعيين القدامى الذين يتعجلون الموت إذا طال مرضهم، أو هربًا من الفضيحة أو هربًا من الحياة التي لم تعد تطاق!

حاولت ولا يهم أنني فشلت!

قالها أستاذنا العظيم أرسطو: الدهشة بداية المعرفة، فأنت ترى الشيء وتندهش وتتساءل: ما هذا؟ وكيف هذا؟ وما المعنى.. حتى تصل إلى شيء من الفهم وتتوالى المحاولات المدهشة حتى تعرف الكثير عن الأشياء وتحلم بالباقي. وقد جربت وحاولت، ولم تكن المحاولة ناجحة ويكفيني شرفا أنني رأيت وحاولت.. تجربتي أنني كنت في الكونغو مرافقًا للقوات المصرية تحت علم الأمم المتحدة للدفاع عن الزعيم لومومبا، وقد ترك البلجيكيون هذه البلاد وخربوها، ولم نجد مكانًا ننام فيه إلا غرفة واحدة وكنا خمسة من الصحافيين سنة 1961، وفي الغرفة سرير واحد ومصباح واحد، هذا المصباح يضيء وينطفئ من غرفة أحد الرهبان، فالغرفة ملحقة بالكنيسة. وجاء الليل بأصواته الرهيبة التي لا نعرف أي أنواع الوحوش هذه التي ملأت الدنيا رعبًا، أما الحشرات حول المصباح فمئات، أشكال وأحجام وألوان وبعضها يتساقط علينا حيًا وميتًا. ولم يأت النوم، ولا أعرف كيف أتصيده وحاولت أن أندهش واندهشت وحاولت أن أعرف ما هذه الحشرات فوجدت أن معلوماتي محدودة وأنها لا تسعفني في فهم أو معرفة أسماء هذه الحشرات وكلها ذات أجنحة ولها طنين. حاولت ولما عدت إلى مصر كتبت ونشرت وعدت إلى ما كتبت فلم أجده شيئًا مهمًا

وإنما حاولت، ولكن ليس عندي وسائل العبور من الجهل إلى المجهول وعذري أنني حاولت.

ومنذ أيام صدر كتاب بعنوان «حدث في كوستاريكا» للدكتور جلبرت ماونسه المتخصص في الحشرات يقول إنه كان يمضي إجازة عندما وجد نفسه في إحدى الحدائق، وأهم من الحدائق هذا العدد الهائل من الحشرات، ولأنه عالم باحث وعارف فقد أحصى أكثر من مائة نوع من الفراشات، هذه الفراشات كلها راحت تدور حول المصابيح كما تدور الأجرام السماوية في الكون، ففي الكون كل شيء يدور حول نفسه وحول غيره. والله أعلم.

ولأنه عالم متخصص فقد أمسك في ثلاثين ليلة كل هذه الحشرات، ووضعها وصورها وألصقها على أوراق جافة وحللها وأعادها إلى عائلاتها الحشرية، وأسكنها كل أزمنتها التاريخية.

وسألت نفسي عن سر هذه المحاولة. وعرفت السبب، فالكاتب الروسي الكبير نابكوف مؤلف رواية «لويتا» كانت له هواية جمع الفراشات، وقد نجح في أن يكتشف فراشة جديدة لم يكن عرفها أحد حتى أطلق عليها العلماء اسم «فراشة نابكوف». إذن هذا هو السبب، ولكني لم أكتشف فراشة وإنما اكتشفت عجزي، وفي الوقت نفسه احترامي لنفسي والعلماء، فأنا حاولت وهذا أقصى ما أستطيع!

بعيدًا عن غرفة العمليات!

الذين ترددوا على مطاعم المكرونة (الفريدو) والذين رأوا الرجل نفسه كيف يلقي بالمكرونة إلى أعلى وينتظرها في طبق كبير واحدة واحدة.. فبهرهم هذا الساحر الظريف. ولكنهم إذا دخلوا المطبخ ورأوا الطهاة والأطباق المتناثرة في كل مكان، فوق وتحت وهم في حالة عصبية ويتخبطون بعضهم في بعض ويتصايحون فلن يكررها فالمكرونة في الأطباق وعلى الموائد أجمل وأنظف. والذين يشاهدون صناعة السينما.. أي صناعة الفيلم مشهدًا مشهدًا، عصبيون مرتبكون والمخرج يصيح ومساعدوه يستعجلون الممثلين والكومبارس، فإنه يكره هذه الصناعة القائمة على الخدع الفنية. ولذلك بعض الممثلين لا يرون أفلام الآخرين، لأنهم يعيشون نفس الخدع..

ولي عدة تجارب. فأول فيلم رأيت مشهدًا قصيرًا منه كان في حديقة الأسماك بالقاهرة. رأيت المخرج صلاح أبو سيف يلقن عماد حمدي ماذا يقول لعقيلة راتب. والاثنان يتمددان على العشب. واستغرق المشهد دقيقتين أو ثلاثًا. ولما رأيت الفيلم بعد ذلك لم أجد هذا المشهد. فلسبب ما حذفه المخرج! والفيلم اسمه (دايمًا في قلبي).. ورأيت بالقرب من الأهرام

مشاهد خروج اليهود من مصر في فيلم (الوصايا العشر) من إخراج سيسل دي ميل وبطولة ريتشارد هستون.

رأيت عددًا كبيرًا من المصريين أشكالاً وألوانًا وقد تزاحموا ليخرجوا وراء موسى عليه السلام. وقد رأيت الفيلم بعد ذلك في مدينة سيدني بأستراليا، ولما عدت سألني سكرتيري إن كنت قد رأيته في الفيلم، فقد كان واحدًا من ألف من اليهود الخارجين من مصر؟! ورأيت فيلم (كليوباترا) في الإسكندرية، الفيلم من بطولة إليزابيت تايلور وريتشارد برتون. ولكن عندما رأيته على الشاشة كان رائعًا. ولم يكن كذلك عند إخراجه، فللمخرجين عيون وقرون استشعار لا نعرفها فهم يرون ما لا نري ويتخيلون ما لا نستطيع أن نتخيل!

وكذلك الكاتب والرسام.. إن حالتهم لا تسر القارئ مهما كان شديد الولع بهم.. فقد اكتشفت زوجة الفنان الكبير صلاح طاهر أن فتاة تقف في الشارع تري الأضواء في بيته ولا تعود إلى بيتها إلا إذا أوى إلى فراشه.. وهي تفعل ذلك صيفًا وشتاء.. فأشفقت عليها.. وطلبت منها أن تعيش يومًا واحدًا لتري فنانها الذي تتعبد فيه..

ورأت البنت ما جعلها تهرب من الوهم الذي تعيش فيه.. فالفنان يصحو من النوم يزعق وينادي الخدم ويشتم.. منكوش مبهدل الثياب.. ويدخل المطبخ يستعجل القهوة وينادي على البواب ليستعجل الصحف.. فرأت الفنان الكبير غجريًّا.. وليس كما يقول نزار قباني: والشعر الغجري يطير شمالاً ويمينًا.. ولما رأى العاشقة الصغيرة تساءل: خادمة جديدة؟ وكان ذلك كافيًا جدًّا لأن تكفر البنت بالفنان والفن والأدب والأدباء والممثلين أيضًا!

نادية كومانتشي: مثلاً!

كان يعلمني السباحة السباح المصري المعروف عبد الباقي حسنين. تعب. ولم أتعلم. إنه خوف قديم جديد عندما غرقت في النيل وأنا طفل. فقد رأيت الأطفال أقاربي يلقون بأنفسهم في الماء، وفعلت، ولم أعرف أنهم قد تعلموا السباحة، فالقفز إلى الماء ممارسة سهلة لمن عرف العوم.. وأخرجوني وقد امتلأ بطني بالماء. ومن يومها لا بحر ولا سباحة.

وحكيت في التليفزيون تجربتي مع عبد الباقي حسنين والسباح العالمي عبد اللطيف أبو هيف. وقلت إنهما فشلا تمامًا في تعليمي كيف أطفو على سطح الماء!

وفي اليوم التالى فوجئت بعبد الباقي حسنين يحاول الدخول إلى مكتبي. وسكرتيري يمنعه. لماذا؟ لأنه قد أتي بطشت من البلاستيك وقرر أن يعلمني السباحة في الطشت وفي مكتبي ما دام قد عجز عن تعليمي في حمام السباحة.

ولا بد أن يكون وزير الشباب يداعبني عندما أرسل لى كتابًا عن فتاة هي معجزة الألعاب الرومانية نادية كومانتشي (44 سنة). ونادية هذه قد

حصلت على ميداليات ذهبية.. ولكنها بهرت الدنيا سنة 1976 وكان عمرها 14 سنة، فقد أعطاها الحكام السبعة عشرةً على عشرة في كل حركاتها.. فما علاقتي أنا بنادية؟

مضيت في قراءة الكتاب. ووجدت أنها وهي طفلة كان منتهى أملها أن تأكل آيس كريم ولو مرة واحدة وبعدها تموت. وكان المدرب يمنعها تمامًا. وفي يوم صعدت نادية إلى الأجهزة الرياضية لتمارس حركاتها المحكمة. فأعجب بها المدرب، وقرر أن يحقق لها أمنية سنوات طويلة أن تأكل قطعة آيس كريم.. وأكلتها واستمتعت وخرجت ورقصت.. وفجأة طلب منها أن ترتدي ملابسها وتستعد لمشوار طوله خمسة كيلو مترات بالخطوة السريعة.. لماذا؟ لكي تحرق السكر الموجود في الآيس كريم، الذي لا يحتاجه جسمها؟!

ومضيت في القراءة ولا أعرف إن كانت الرسالة التي أراد وزير الشباب أن تبلغني أنني ما أزال شابًّا، غير صحيح.. أو أنني وإن لم أكن شابًّا أستطيع أن أمسك يدي ولساني عن تناول ما لا ضرورة له ممكن!

ثم عدت إلى الكتاب وقرأت الإهداء. لم يكن لي، وإنما جاءني الكتاب خطأ، فالإهداء إلى وزيرة الشئون الاجتماعية. وتفسير هذه الهدية من شأنها هي.. ومع ذلك فأشكره. فالكتاب أمتعني لأنه سهل العبارة جميل في تنقله بين الموضوعات والمأكولات.. فكما أن نادية كانت كاملة الأوصاف، فالكتاب يكاد يكون كذلك. شكرًا للجميع!

لا يؤمن إلا بالدولار!

انكشفت شمس الحقيقة، فأنت لا تعرف الشرق من الغرب، ولا الليل من النهار. في بلاد الضباب يطلبون من المشاة أن يتكلموا حتى يسمعهم الآخرون فلا يصطدمون بهم. وفي بلاد السموات الصافية أن يعملوا ما عمله موسي عليه السلام في سيناء، يطلق أعمدة من الدخان نهارًا، ويشعل النار ليلاً حتى يهتدوا.. رغم ذلك ظلوا في تيهٍ أربعين عامًا! ولا أحد الآن في شرقنا الأوسط يعرف من معه ومن عليه.. ويوم غضب مني الرئيس حافظ الأسد ومنع مقالاتي وكتبي ومسلسلاتي.. كان السبب أنني نقلت عن هنري كيسنجر أنه تعب من التنقل بين تل أبيب ودمشق، فغفا وصحا فلم يعرف إن كان في دمشق أو في تل أبيب. لأنهم يتكلمون لغة واحدة؟!

وكلنا في الشرق نتكلم لغة واحدة، ولا تعرف أمريكا لغة بيروت أو تل أبيب أو دمشق أو طهران. فقد أخرست الألسنة ولم يبق إلا لسان واحد يتردد صداه في كل العواصم.

ماذا جرى لنا وجرى علينا؟

لقد انفتحت كل القواميس وفاضت كل الكلمات بلا ترتيب ولا تركيب ولا معنى، فغرقنا في كلامنا.. وليس بين الكلام نوح ولا سفينة. ونحن في مصر جربنا العبث سنوات.. العبث أي اللامنطق واللامعنى واللاجدوى من أي

شيء يقال أو يكال. حدث ذلك بعد نكسة 67.. فأصبحت مصر بلدًا بلا بلد ولا شعب ولا منطق ولا عقل ولا حكم ولا محكوم. عرفنا الضياع والتيه والكفران العظيم من أننا مصريون ومن أننا عرب ومن أننا بشر.

هل فهمت مما قلت شيئًا؟!

إنني لم أفعل أكثر من الإشارة إلى معاني الكلام في كل الصحف وفي كل وسائل الإعلام: بكاء وعويل وأصابع تشير بالاتهام إلى كل الاتجاهات وإلى أنفسنا. من المجرم؟ ومن القاتل؟ من القتيل؟ من الخائن؟ من السيد المطاع في بلادنا؟ وما الثمن؟ وإذا كانت هذه هي البداية فكيف النهاية؟ وإذا كانت هذه هي النهاية فما البداية.. فلا شيء ينتهي. هل هي مثلاً بداية للحرب الثالثة.. فالحرب العالمية الأولى قد بدأت بقتل أحد أمراء النمسا.. فوقفت ألمانيا وراء النمسا ووقفت روسيا وراء القاتل. وكذلك فرنسا وبريطانيا، وكانت هذه هي الشرارة الصغيرة التي أشعلت حربًا كبيرة، فهل خطف جندي إسرائيلي هذه الشرارة لحرب عالمية ثالثة تبدأ في الشرق الأوسط دفاعًا عن خرافة الديمقراطية وزهدًا في آبار البترول.

هناك مثل يقول: من هو الذي أطول من العملاق؟ والجواب: القزم إذا ركب العملاق.. أي أن إسرائيل هي الأقوى من أمريكا.. وقد قالها تيتو: الذين يريدون إلقاء إسرائيل في البحر، يجب أن يلقوا بأمريكا أولاً!

فمن الذي نحاربه! إننا نحارب القدر الذي فرض علينا أن تكون حدودنا من الخليج إلى المحيط فوق محيطات من الذهب الأسود ويجمعنا: لا إله إلا **الله** – مع أن بعضنا لا يؤمن إلا بالدولار!

الذين ينسون أصولهم!

كأن كأس العالم لم تعلن نتيجته بعد، وكأن ألمانيا وبريطانيا لم تفوزا بالكأس. فالمناقشات مستمرة بين الألمان والإنجليز، وما تزال المناقشات تؤكد أن كراهية عميقة تتجدد من حين إلى حين.. ليست بسبب الحروب الأولى والثانية والثالثة إن شاء الله.

وهناك مقالات تقول للإنجليز: لا تنسوا أنكم من أصل ألماني وأن الألمان القدامى قد غزوا الجزر البريطانية من 16 قرنًا واستطاعوا أن يمحوا معالم الشعب في ذلك الوقت. وتغيرت الظروف وأصبحت لسكان الجزر ملامح ومعالم في محاربة أصولهم الألمانية.

وفي نفس الوقت هناك نداءات تقول للإنجليز: لا تكرهوا الألمان ولا تسرفوا في حبهم. ومأساة الملك إدوارد الثامن ليست لأنه يحب، ولا لأن التي يحبها أمريكية، ولا لأنها مطلقة وأنه رئيس الكنيسة. ولكن لأنه يحب الألمان، ولأن صورًا كثيرة قد نشرت له يستعرض القوات النازية إلى جوار هتلر. وهي القوات التي أعدها هتلر لإعادة غزو الجزر البريطانية والاستيلاء عليها كما حدث من قبل، وكان ذلك سببًا كافيًا لإحراج الملك الذي يعطف على أعدائه ضد شعبه!

وقالوا: مهما قال هذا الملك للإنجليز من دعم لحربهم ضد النازية والفاشية والشيوعية، فهو في أعماقه يتمنى أن ينتصر هتلر. وكان لابد أن يذهب وذهب!

وفي الحرب العالمية الثانية على أرض مصر كان روميل ساحرًا لجنوده وللقوات البريطانية، وكانوا يتابعون أخباره وصوره بإعجاب شديد. ومعنى ذلك أنه «البطل» وما دام بطلاً فهم يتمنون له النصر عليهم!

إذن لقد وقع البريطانيون في مجال الجاذبية العسكرية لروميل، ومعنى ذلك أن روميل قد تسلل إلى القوات البريطانية.. إلى قلوبهم وعقولهم! ولذلك أصدر القائد البريطاني أوخنلك منشورًا شهيرًا يقول فيه: أيها الجنود لا تترومّلوا – أي لا تسقطوا في شبكة الفتنة بالعسكرية الألمانية.. وفي مصيدة روميل!

وهذا الشعور قد تكرر في مباريات كأس العالم. فبعض الإنجليز قال: وإيه يعني؟ إننا جميعًا من أصل ألماني.. أي لماذا لا ندعو لألمانيا أن تنتصر.. فنحن جميعًا من الألمان؟!

شيء غريب: عندما انهزمت ألمانيا أسعدهم ذلك.. وعندما انهزمت بريطانيا أيضًا. إن الشعوب لا تنسى منابعها وجذورها، حتى إذا حاولت ذلك!

رغم الخلافات: اتفقوا على ديانا!

لا أول ولا آخر لما يقوله الإنجليز ضد الفرنسيين، والفرنسيون ضد الإنجليز في مئات السنين.. وحتى الرئيس ميتران الفرنسي، والسيدة مرجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا، فالرئيس ميتران يسخر من مرجريت تاتشر ويقول: لها عينا الطاغية كاليجولا وشفتا مارلين مونرو. والسيدة تاتشر: بأي شيء يتباهى الفرنسيون.. إن ثورتهم التي يعتزون بها دموية. وأبطالها سفاحون.. وضحاياهم من دعاة الحرية النبلاء.. يجب أن يخجلوا من هذه الثورة!

وتقول السيدة أديت كريسون أول سيدة ترأس وزراء فرنسا إن الشعب الإنجليزي عنده شذوذ.. فعندما زرت لندن وكنت أتلفت لا أجد أحدًا ينظر ورائي!

قال لي أحد وزراء مصر: لو نظرت إلى صورنا مع الرئيس مبارك ونحن مع السيدة أديت كريسون فسوف تجد أننا إما أن ننظر إلى السقف أو ننظر إلى الأرض.. فنحن نخشى أن تضبطنا الكاميرا ونحن ننظر إلى ساقيها.. وكانت أديت كريسون تتعمد إظهار ساقيها ولفت النظر إليهما في بريطانيا، ولكنَّ أحدًا لا يلاحظ ذلك!

ورغم الخلافات الشهيرة بين الدولتين الصديقتين أحيانًا، فإن هناك اتفاقًا حيويًّا تحتمه الظروف والعلاقات الخاصة. مثلاً عندما ذهبت بريطانيا ترد القوات الأرجنتينية عن جزر فوكلاند التي تملكها.. ساعدها الرئيس الأمريكي رونالد ريجان بتصوير تحركات أسطول ومواقع صواريخ فوق الماء اسمها أكزوسيه.. أي «السمك النطاط» واستطاعت هذه الصواريخ أن تغرق عددًا من قطع الأسطول البريطاني فكان لا بد أن تذهب مرجريت تاتشر للقاء الرئيس الفرنسي ليمدها بأسلحة فرنسية مضادة للصواريخ الفرنسية، وكانت الأجهزة المضادة ترسل موجبات لترشيد الصواريخ أو ردها إلى السفن التي أطلقتها – منتهي التعاون والتضامن.

ومقتل الأميرة ديانا.. ليس إلا حلقة في سلسلة التعاون بين أجهزة المخابرات البريطانية والفرنسية.

ويوم كتبت أقول إن المخابرات البريطانية قد اغتالت الأميرة، كما اغتالت المخابرات الأمريكية مارلين مونرو، فوجئت بكل شبكات التليفزيون البريطانية والألمانية والفرنسية تسألني، ولا تزال وجهة نظري قائمة حتى اليوم!

صحيح أن عداوات الشعوب مثل البقع على جلد النمر.. يمكن غسلها ولكن لا يمكن إزالتها، ولكن الضرورة لها أحكام. ومن أحكامها أن يتفق أشد الناس عداوة.. وقد اتفق الإنجليز والفرنسيون في موضوع الأميرة ديانا.

سبب القسوة على الحيوان: الإنسان!

حدث كثيرًا أن انقلبت الدنيا في الدول الأوروبية لأن قطة فوق شجرة تموء، فهي غير قادرة على النزول.. أو أن عصفورًا سقط في البئر. أو أن أحدًا كسر ساقًا أو فكًا.. كيف هذه القسوة التي لا مبرر لها؟

ورغم التقدم العلمي الباهر للروس، فقد احتجت كل جمعيات الرفق بالحيوان على وضع الكلاب والفئران والقطط في سفن الفضاء. وتظل تدور حول الأرض وتموت أيضًا.. ونسيت هذه الجمعيات الرحيمة هذا الإنجاز العلمي الباهر.. وأن هذه الحيوانات إنما ماتت من أجل أن يعيش الإنسان، وفي نفس الوقت هناك ألوف الحيوانات تموت في معامل البحث العلمي في كل الدنيا.

ورغم هذه المشاعر الرقيقة، فإن البوليس يسجل مئات الألوف من حوادث القسوة على الكلاب والقطط والخيول والطيور.. لماذا؟ أي لماذا تحول الإنسان الرحيم الرقيق إلى هذه الوحشية والقسوة على الحيوان؟ فهو يضرب الكلاب ويطرد القطط من البيوت ويهمل الخيول حتى تموت من الألم.. ويطلق الرصاص على الطيور لمجرد الهواية.. وصيد الأرانب والثعالب والذئاب والحيتان.

وفي بحث للعالم النفسي البريطاني دوجلاس أروزو يقول: السبب هو الإنسان أيضًا؛ فالإنسان الحديث يتعرض لضغوط عصبية شديدة، فالحياة قاسية، والسياسة قاسية والحروب أيضًا، ففي كل مكان دماء تسيل.. وإذا جلس إلى التليفزيون فأفلام الحرب التاريخية.. ووقائع الحرب اليومية.. وكلها تحطم الأعصاب وتثير الإنسان ضد الإنسان والحيوان أيضًا.

أذكر حادثة في سويسرا لأحد أقاربي، وكان قنصلاً عامًّا انتقل من ألمانيا إلى سويسرا، وفي اليوم التالي استدعاه البوليس هو وزوجته.. لماذا؟ لأن الجيران اشتكوا من أنهم رأوا قطة القنصل تتبرز في الحديقة، وفي ذلك خطورة على القطط والكلاب والأطفال، ورأى البوليس أنه لا بد من إدخال القطة المدرسة هي وحرم القنصل لتعليم القطة كيف تقضي حاجتها في البيت، وليس في الحديقة، وأن يكون تدريب القطة وتعليم السيدة على حساب القنصل، وحاول القنصل أن يداعب البوليس الذي استدعاه: نفرض أنني زهقت من القطة ولذلك تركتها في الشارع! فظهر الغضب في وجه الطبيب: إذا ثبت لدينا أن هذا صحيح فسوف يؤدي إلى خروجك من سويسرا! ولم يجد الطبيب السويسري أن هذا موقف يدعو للمداعبة وإنما هذا موقف خطير: قسوة وخطورة على الحيوانات والناس، وأن الدبلوماسي يجب أن يكون قدوة!

والمثل اللاتيني يقول: الإنسان للإنسان ذئب.. بل وسفاح أيضًا!

جميلة الجميلات: هدية للصابرين!

في أساطير الإغريق امتحانات قاسية لحب الإنسان أن يعرف؛ فالإنسان يريد أن يعرف ولو كان في ذلك قضاء عليه، فلا شيء أروع من المعرفة، ولذلك فكل أساطير الإغريق أبطال يتحدى بعضها البعض.. حتى آلهة الإغريق في صراع مع البشر. مرة تنتصر ومرة تنهزم ولم يسكن أو يسكت أحد. والمثل الإنجليزي يقول إن حب الاستطلاع قتل القط .. أراد أن يعرف فكانت هذه الرغبة وبالاً عليه. وعلى الكلاب وعلى الإنسان وأنصاف آلهة الإغريق أيضًا.. ويقال إن أول امرأة في أساطير الإغريق كان اسمها «بندورا»، أي التي أعطوها كل المواهب. أو كل المزايا ثم وضعوها في صندوق وحذروا من فتح الصندوق، ففي ذلك خطورة عليها، وصبرت وأمسكت نفسها عن رفع غطاء الصندوق وقاومت ولم تستطع، ويقال إنها فتحت الصندوق فخرجت كل الشرور والأمراض والأوبئة وعذابات الصغار والكبار، وانزعجت وأغلقت الصندوق ولم يتبق فيه إلا الأمل.. الأمل في الخلاص من هذه الكوارث ولولا الأمل ما استمرت الحياة وكان لا بد أن تشكر الآلهة الذين أرغموها على إغلاق الصندوق حتى يبقى الأمل وبقي الأمل!

وصندوق آخر هدية من إله العواصف «أيلون» وحذر أيلون من أن يفتح أحد هذا الصندوق وقد تلقى عوليس بطل الإلياذة التي حارب فيها الأرض والهواء والماء والآلهة. ولكن البحارة التفوا حول الصندوق قبل أن ترسو السفينة على شواطئ الأمان الإغريقية وغلبهم حب الاستطلاع، وتكاثروا حول الصندوق وحاول أحدهم أن يردهم عن عصيان إله العواصف. فألقوا به في الماء وفتحوا الصندوق فخرجت العواصف والأعاصير وأطاحت بهم وبالسفن إلى جنوب إيطاليا وتركتهم غرقى، يحتاجون إلى سنوات لكي يعودوا إلى بلاد الإغريق. ويقال إن إله العواصف أغلق الصندوق في آخر لحظة، وبقي في الصندوق نسيم البحر الذي يهب على الشاطئ في الصيف، ثم أعطى الصندوق إلى البطل عوليس وحذره مرة أخرى من أن يفتح الصندوق إلا إذا كان وحده.

ونسي عوليس هذا التحذير، وفي إحدى الليالي وفي حفلة عامة أتي بالصندوق وأراد أن يطلع ضيوفه على شيء لم يره أحد..

وفتح الصندوق، وهربت منه كل الفتيات الجميلات في بلاد الإغريق، ليعيش وتعيش بلاد الإغريق أتعس أيامها: حياة بلا نساء جميلات. وقبل أن ينهار عوليس جاءه إله العواصف يطيب خاطره قائلاً: بقيت في الصندوق هديتي إليك فلا تضيعها.

وفتح الصندوق لتظهر أجمل جميلات اليونان هدية للصابرين!

رأينا وانبهرنا وفاتنا أن نموت!

الفيلسوف العظيم نيتشه قال يومًا ما: يجب أن نبني بيوتنا على سفوح البراكين. ولا بد أن تكون معانيها أن نعيش في خطر وألا نخاف؛ لأن الخطورة هي التي تكشف الشجاعة والتحدي والإصرار أهم عناصر البطولة.

ولكن من المؤكد أنه لم ير بركانًا أو رآه ولم يقترب منه أو اقترب منه، ولم يسكن بالقرب منه، فالبراكين مخيفة.. النيران والدخان والزلازل وهي تقذف قبورًا من الحمم.. ولا تعطي فرصة لأي إنسان مهما كان فيلسوفًا عظيمًا أن يتنفس أو يفكر.

أنا رأيت بركان هاواي سنة 1959 وكنت في طائرة صغيرة تحوم حول بحيراته المروعة كعصفور مجنون يريد أن يرى وتناولت إفطاري على سفح بركان مانيلا وكانت الأرض ترتعش تحتي وهي تفعل ذلك من مئات السنين.. ولا أحد يعرف متى يفقد البركان عقله ويتخلى عن هذه الرزانة التي استغرقت قرونًا.

أما بركان استرمبولي شمال جزيرة صقلية فلعله البركان الذي تحدث عنه الفيلسوف الألماني نيتشه، فالبركان في جزيرة صغيرة إحدى الجزر السبع التي يمكن رؤيتها والفرجة عليها عند المرور من بوغاز مسينا.

وفي سنة 1950 ولم أكن قد رأيت الفيلم الذي أخرجه روسلليني بطولة زوجته أنجريد برجمان، كان الليل شديد السواد وكان البحر يموج بالأضواء المرتجفة.

أما بركان استرموبولي فكان وقورًا هادئًا ولكنه يدخن أو كأنه يدخن ألف سيجارة في وقت واحد، ووقفت بنا السفينة بعيدًا لكي نملأ عيوننا بالمشهد الرائع المروع أيضًا وانتهزنا هذه الفرصة عشرة من كبار فناني مصر وجلسنا نتناول العشاء الأخير.. ولم نجد تعبيرًا يناسب الحال إلا هذا المعنى فمن يدري ربما انفجر البركان مرة واحدة فإذا بالسفينة ومن فيها تحت سطح الماء وبعض الفنانين تمنى ذلك.. تمنى أن يموت في جحيم من الألوان والظلال والدخان والصراخ – جنون! وعند تصوير فيلم استرموبولي ولم يكن روسلليني قد تزوج برجمان قال لها: أردت أن أعبر لك عن الذي في قلبي فإما أن نعيش معًا أو أموت وحدي! وكان جوابها بل نموت معًا!

إلى هذه الدرجة نجد البراكين تغري بالموت الفخم والنهاية الأُبهة.. ولذلك لم يكن غريبًا أن يتمناها الفيلسوف نيتشه لأبطاله.

لقد فاتتنا هذه الفرصة، فلا يزال لنا عمر لكي نموت هناك!

خسارة.. لم يعد اسمه ساحرًا!

دعاني الدكتور عصام شلتوت أستاذ الطب النووي بجامعة برلين إلى وليمة غنائية. فقلت: موافق تمامًا.. وعلى استعداد لأن أحزم حقائبي وأطير إليك! وليست هذه حفلة جديدة.. قرأت عنها أو سمعت بها.. وإنما حفلة أقمناها معًا في سيارته الضخمة الفخمة. واستمعنا إلى سيدة الغناء العربي أم كلثوم وهي تغني وتعيد وتزيد. ونحن نقول: الله يا ست.

أما المكان فهو شارع «تحت أشجار الزيزفون» في مدينة برلين ذهابًا وإيابًا.. ولم أكن في حاجة إلى أن أنظر من نافذة السيارة لأرى الدنيا على صوت أم كلثوم.. أو في خلفية صوت أم كلثوم.. أو كيف نتذوق الدنيا مع أم كلثوم.. ثم أغنية أخرى هي: (يا اللي كان يشجيك أنيني وهلت ليالى القمر) كل هذه الأبهة الغنائية نخوض بها عطور شارع الزيزفون.. الشارع مستقيم قديم عمره أكثر من أربعة قرون.. والإمبراطور هو الذي أمر بأن تكون الأشجار على جانبيه وأن تكون من الزيزفون. ولما جاءت القوات الروسية منتصرة على ألمانيا هدمت القصور وأقامت تماثيل كارل ماركس وفريدريش أنجلز أكبر كهنة الشيوعية وبقي هذا الشارع تحت الأحذية الروسية، لقد جردوه من نعومته ورقته واستقامته وبقيت أشجار الزيزفون.

واسم الشارع جميل.. وأذكر أنني قرأت هذا الاسم وأنا طفل فلم أفهم المعنى.. وقد جاء هذا الاسم صدفة في أول مجلة ألمانية عربية قرأتها في حياتي وهي مجلة تدعو إلى المخصبات الكيماوية. ولم أسأل عن المعنى وإنما بقي الاسم الموسيقي الغريب الساحر كما هو في ذاكرتي حتى رأيت الشارع لأول مرة بعد الحرب مباشرة. ومن الغريب أنني لم أسأل عن معنى الزيزفون ولا بد أنه نوع من الأشجار ليس إلا. وأخيرًا قرأت في موسوعة للعلاج بالنباتات والأعشاب أن بعض هذه الأعشاب إذا تحولت إلى مسحوق يمكن للمرأة أن تستخدمه لنعومة البشرة.

وبقدر ما أسعدني أن أعرف، تضايقت جدًا من أنني عرفت.. فقد كنت أحب أن يبقى الاسم السحري لهذا الشارع الجميل. ولم أتصور لحظة أن أرى نفسي في شارع اسمه شارع الينسون أو شارع الكراوية.. وأن تكون نزهتي في هذا الشارع بسبب مغص أو تقلص في الأمعاء إنني أحاول جاهدًا أن أنسى الاسم الطبي لهذا الشارع تحت أشجار الزيزفون وليس تحت أشجار الينسون.

ويبدو أنني لن أُلبي دعوة الدكتور عصام شلتوت مرة أخرى، فقد ذهب بريق هذا الشارع وبهاؤه الفاتن ولا أستطيع بعد اليوم أن أمشي فيه ولا أن أسمع رق الحبيب في شارع اسمه علاج للمغص، بل إن الاسم الطبي يؤدي إلى المغص!

قليل من الحب.. قليل من الإخلاص!

المثل الشعبي يقول: «الحلو ما يكملش!» أي لابد أن نجد عيبًا في أحد، أيًّا كان هذا الأحد. فالكمالُ لله. فنجد بطل كمال الأجسام قوي الذراعين والساقين، ضعيف العقل والقلب. ونجد بطل السباحة يشكو من المعدة أو الأمعاء.. ونجد جميل الوجه قبيح الفكر.. فالوردة ليس لها عقل، والذي له عقل ليس في جمال الوردة وشذاها.

وفي هذا الأسبوع، نشرت الصحف العالمية رسائل أينشتاين إلى أسرته.. وهو عبقري الفيزياء صاحب نظرية النسبية العامة والنسبية الخاصة.. كيف يأكل وكيف يقضم أظافر يديه بأسنانه.. وكيف يقص أظافر قدميه بأظافر يديه؟! وكيف أن له رائحة كريهة لأنه لا يستحم إلا مرة كل ستة أشهر؟! وله في ذلك حكمة تقول: إنه يحب أن يحتفظ بدرجة حرارة جسمه ورائحته لأنها الجو الشخصي الذي يعيش فيه. وتحكي إحدى الصديقات أنها بسبب حبها الشديد له، طلبت من أحد الأطباء أن يشل أعصاب أنفها حتى لا تشم رائحته. وهو ذئب مدرب تدريبًا عاليًا.. وكانت له طريقة غريبة في التعامل مع المرأة يقول لها: أنا لا أستطيع أن أحتفظ بك طويلاً.

فتقول: وأنا راضية بساعة.. بساعتين معك.. هذا شرف عظيم!

وهناك نظرية تقول: إن معظم العباقرة مسرفون متطرفون. كأن يحبوا كثيرًا أو ينفروا كثيرًا. أن يقربوا أنفسهم من الناس.. أو يبتعدوا بأنفسهم عن الناس.. لا اعتدال في كل العلاقات.

وكثيرٌ من عباقرة الكيمياء والفيزياء والطب والفلك لا يعرفون القيم الأخلاقية أو القيم الدينية، فقد انشغلوا تمامًا بشيء آخر، وكثير منهم لا يؤمنون وعندهم سبب أنهم لا يعرفون كثيرًا عن المادة فكيف يعرفون ما وراء المادة. فالعقل الإنساني لا يقوى إلا على المادة ويعجز تمامًا عما وراءها. فهم كفرة أو ملحدون أو شديدو الإيمان ويرون أن العلم يدعو إلى الإيمان، وأن عجائب الكون والإنسان والحيوان والنبات تؤكد أن هناك عقلاً وحكمة وراء كل شيء، أي أن الله وراء وفي كل شيء، في السماء والأرض!

وأينشتاين هذا كان له ابن مختل عقليًا أدخله المستشفى في سويسرا ولم يجد سببًا عقليًا أو عاطفيًا لأن يزوره حتى مات!!

وكان يشكو من مطاردة النساء له، فمارلين مونرو تمنت أن يكون لها طفل منه – هذا ما كتبه في رسالته إلى زوجته الثانية! ومن قبله، قالت سيدة للساخر الإنجليزي برنارد شو: لو كان لى طفل منك له جمال أمه وذكاء أبيه. فضحك شو قائلا: ماذا لو كان له جمال أبيه وذكاء أمه؟ هاها!

وآخر وصايا العبقري الذئب: اجعل كل شيء نسبيًا.. أن تحب قليلاً تُخلص قليلاً وتندم قليلاً لتفكر في شيء آخر كثيرًا!

رجل عظيم وليس إنسانًا عظيمًا

في الأسبوع القادم ستنشر دور النشر العالمية «مجموعة رسائل أينشتاين»، وقد تولى نشرها إيزاكسون. أهم هذه الرسائل ما كتبه أينشتاين إلى ابنه الأكبر هانس ألبرت وإلى أحد علماء النفس يسأله عن كيفية تربية ولديه والتعامل مع زوجته الأولى. ففي رسائل ابنه هانس يطلب من والده أن يزورهما – هو وأخوه– ولا يذكر، أو لا يجرؤ أن يذكر اسم والدته.. ولا أي شيء عن أخبارها، لأنه يعلم أن الخلاف بينهما أقوى من أية محاولة لإنقاذ هذه الحياة الزوجية..

فالزوجة الأولى أستاذة في الرياضيات واسمها مالينا ماريتش وقد ساعدته كثيرًا في المعادلات الرياضية المعقدة، حيث قيل إنها وراء نظرية النسبية. وأينشتاين يعترف بأنه ضعيف في الرياضيات وإن كان جبارًا في الفيزياء. وفي غياب زوجته كان يستعين بواحد من أكبر علماء الرياضيات في زمانه.

وكان أينشتاين مشغولا بقضيتين، القضية الأولى كيف يجد المعادلة الرياضية المناسبة للزمان والمكان والجاذبية. والقضية الثانية هي مشكلة ولديه؛ إنهما يطلبان رؤيته. يتوسل الابن الكبير والأب يعد ويخلف. ويرى

أنه مشوار شاق جدًا من برلين إلى زيوريخ حيث يعيش ولداه، ويرى أن ساعتين ونصف الساعة شيء طويل لا يمكن احتماله مهما كانت الأسباب.

وخطابات الابن فيها الكثير من الضيق بأبيه وفي نفس الوقت من الانحياز للأم ضد الأب. وقد بعث أينشتاين برسالة إلى أحد علماء النفس يسأله ما الذي يجب أن يفعله. إنه لا يعرف كيف يتعامل مع طفل، فما بالك باثنين وأمهما. إنه ليس خبيرًا في العلاقات الإنسانية.

ويرد أينشتاين على ابنه بأنه سوف يلتقي به قريبًا في الكريسماس أو عيد الفصح بشرط أن يكونا وحدهما – أي بعيدًا عن زوجته. وفي غياب الزوجة الأولى قفزت ابنة عمه إليزا التي أحبها ثم تزوجها.

ورغم المحاضرات التي هزت دنيا الفيزياء والفلك، فما زال أينشتين يشكو من أنه لم يجد المعادلة الرياضية المناسبة لنظرية «الزمكان» أي وحدة الزمان والمكان، وأن الزمان ينحني تحت ضغط المكان، أي أن الأشياء تضغط على الزمان فينحني تمامًا كما تلقي كرة على مرتبة السرير فإنها تحدث تجويفًا وكذلك تفعل المادة في الزمان، هذا هو همه الأكبر الذي أوجعه وأصاب معدته بالقرحة ثم أمعاءه. والهم الثاني هو ابنه الأكبر وابنه الأصغر الذي أدخل مستشفى للأمراض العقلية حتى مات فيها.

وكانت هدايا أينشتاين إلى ابنة الأكبر بعض المسائل الرياضية لعله يتدرب على حلها. وفي إحدى المرات أرسل له فرشاة للأسنان وقال له: لعلك تنظف بها أسنانك كما أفلحت أنا في تنظيف وعلاج أسناني!

فأينشتاين رجل عظيم ولكنه ليس إنسانًا عظيمًا!

أيها اللصوص: مرحبًا.. فلا قانون!

منذ أيام نشرت سيدة بريطانية هذا الرجاء إلى اللصوص: يا من تريد أن تسرق زهوري وورودي. أرجو أن تنظر إلى صورتي.. فأنا عجوز تجاوزت الستين ولم يبق لى من نعيم الدنيا سوى هذه الحديقة وسلال الورد التي أعلقها هنا وهناك.. وقد وقع أكثر من مائتي عدوان على حديقتي.. وأنا وقد وضعت صورتي لتعرفني إذا مشيت في أي مكان.. فأرجو أن تقتلني.. فأنت قد جردتني من كل سعادتي!

ولكن اللصوص قضوا على هذا الأمل الأخير. ولما ذهبت إلى رجال البوليس، أبدوا الكثير من العطف عليها.. وكان لا بد أن تدفع مبلغًا من المال لحراستها، ودفعت. ولكن اللصوص أقوى من الشرطة والشر، وغريزة التدمير والقضاء على الجمال أقوى من الحياة ومن الحرص على الجمال! والسيدة تمشي في كل طريق وتعرض نفسها على كل الناس لعل أحدًا يريحها مما هي فيه. ولم يحدث ولكنها تنتظر!

وتذكرت أستاذنا الكبير الدكتور فؤاد حسنين أستاذ اللغات الشرقية بآداب القاهرة. هو يعرف 13 لغة من بينها العبرية والسريانية والأكادية والحبشية والفارسية والتركية والباقي لغات أوروبية حديثة. وهو الذي شجعني على أن أمضي في التعمق في اللغة العربية. ولكن خجلت من

نفسي عندما وجدته يعلمني مبادئ اللغة – كأنك طلبت إلى الأستاذ العقاد أن يعلمك: زرع درس. فذهبت إلى من هو في مستواي وليس في مستوى فؤاد حسنين. وكان يسكن في حي المعادي وحده. أما زوجته الألمانية فهي وأولادها يقيمون في ألمانيا.. وكانت عنده حديقة. والحديقة بها شجرة مانجو واحدة. وكان يضع على ثمار المانجو أرقامًا. يقرؤها كل يوم ليعرف إن كان أحد من اللصوص قد سرقها. وقد لاحظ اختفاء ثمرة ثم ثمرتين. وفي إحدى المرات وجد أن المسروق تجاوز العشرين. وكان ذلك أكبر من احتماله. فتربص ليلاً وفي يده عصا غليظة انتظارًا لهذا اللص. وجاء وهجم عليه واقتاده إلى البوليس. ووجد الضابط المنظر السريالي الآتي: رجل كبير منكوش الشعر يرتدي جلبابًا صعيديًّا وفي يده عصا غليظة وحافي القدمين.. ويمسك شابًّا يرتدي قميصًا وبنطلونًا.. وتساءل ضابط الشرطة: أيكما الحرامي؟ فعاجله الدكتور حسنين.. أينا الحرامي؟! هو طبعًا.. هذا اللص سرق المانجو، 25 ثمرة منها. وضبطته.

ولم يصدق الضابط أن هذا المنكوش الشعر ورث الجلباب وكأنه بواب أو سفرجي أنه العالم الجليل فؤاد حسنين خريج جامعات ألمانيا وتل أبيب وطهران؟! ولم يسترح إلى ما قاله الضابط فخرج. وعاد إلى بيته وعلق لافتة بكل اللغات التي يعرفها يقول فيها: أيها اللصوص مرحبًا بكم. فليس في بلدنا قانون!

لا يبعث على الضحك!

في حفلة تأبين الكاتب والعالم الكبير أحمد أمين، وقف المستشرق الفرنسي لوي ماسينون يتحدث عن مآثر الفقيد وعن علمه الغزير وأحكامه الثاقبة وارتياده بحار الفقه والتاريخ، حتى قال: لطالما أمتعنا من «خرارة» فكرة – هنا أفلت الزمام.. فضحك كل الحاضرين.. فالمعنى الذي قصده المستشرق الكبير ليس هو الذي أضحكنا وإنما استخدام كلمة خرارة الفكر.. أي الفكر الذي له خرير وانسياب.. والكلمة لها معنى آخر!

وفي مجلس الشعب المصري وقف المهندس الكبير عثمان أحمد عثمان يمتدح أحد المهندسين العاملين معه فقال: مضمر ومخربش! أما «مضمر» فتعبير يستخدمونه في الكلام عن تربية الخيول والعناية بأجسامها وتدريبها.. أما «مخربش» هذه يقصد بها أنه عمل وخربشته الأيام وخربشها أيضًا، أي أنه مجرب مدرب ولا أحسن منه ومضى المجلس يضحك.. بينما عثمان أحمد عثمان ماض في تأكيد هذا المعنى ويقول: الواد راضع من بز أمه وضحك المجلس مرات أخرى!

وأذكر في إحدى محاضرات أستاذنا في الفلسفة الإسلامية الدكتور مصطفى حلمي، وكان يحاضرنا عن فلسفة محيي الدين بن عربي – الفيلسوف الأندلسي، فقال إنه كان يفسر الكون «من تحت لفوق ومن فوق

لتحت». وهو مونولوج شكوكو فضحكنا مع أن الموقف لا يقتضي ذلك وإنما هو أراد أن يخفف عنا ويلات القضايا الفلسفية الصعبة.. ثم قال: هذا نثر مشعور أو شعر منثور يا أنيس منصور!

وعندما قدم سفير إسرائيل الجديد ساسون أوراق اعتماده إلى الرئيس السادات كان حريصًا على أن يقدمها باللغة العربية التي يجيدها وكان كلامه مليئًا بالأمل في السلام والتعايش معًا في الشرق الأوسط إلى أن قال: يا سيادة الرئيس إن «أرياح» السلام تهب علينا من كل اتجاه.

هنا كان لا بد أن أضحك هامسًا ثم عاليًا عندما ضحك الرئيس عاليًا وقال له: يا ساسون كلمة «الأرياح» ها.. ها.. لها معنى آخر عندنا أنت لم تقصده طبعًا. ووقف السفير منزعجًا، فقد ظن أنه أخطأ خطأ فادحًا.. فقال له الرئيس: الأرياح عندنا هي غازات البطن.. هاها.. ويكفي ريح واحدة وليست أرياح.. هاها!!

وسألني السفير إن كان هذا الذي قاله الرئيس سوف تنشره الصحف غدًا.. فأكدت له: إنها لن تفعل!

أكبر الأبواب أصغر المفاتيح!

أكثر الناس فهمًا لسفالة الإنسان: المفكر الإيطالي مكيافللي والوزير النمساوي مترنيخ - وهو أستاذ المستشار الأمريكي الألماني هنري كيسنجر.. فمكيافللي هو أستاذ السفالة والانحطاط - أي أستاذ السياسة الواقعية التي لا تعرف دينًا ولا خلقًا.

ووزير خارجية النمسا مترنيخ الذي سيطر بفكره على أوروبا كلها.. وكانت عنده قدرة على النفاذ إلى أعماق الإنسان إلى حيث الضعف الإنساني.. ومن رأيه لا يوجد إنسان ليس سافلاً أحيانًا.. أما هذه الأحيان فعندما يكون في حضور امرأة جميلة أو كنز من الفلوس أو تلويح بمركز سياسي!

صح يا أستاذ.. ولذلك عندما تقف أمام الهرم يجب أن تدور حوله لتعرف كيف دخله وخرج منه العمال والمهندسون. والتاريخ يؤكد لنا أن العظماء لها مداخل سرية هي نقاط الضعف في حياتهم.. فالشاعر الألماني العظيم جيته كانت تقع في غرامه كل النساء لم يتورع عن زوجة ابنه، وقال هو أب لمعظم أولادها. والرجل الغلبان توفيق الحكيم عندما توفي ابنه الوحيد، ظهرت أرملته تقول في الصحف أنه وإنه.. ولم نصدق. ولكنها أكدت. وسكت الحكيم ولم تسكت أرملة ابنه! وهتلر الذي تركع عند

قدميه كل نساء ألمانيا.. لم تفتنه إلا ابنة أخته.. وكان ما كان. ولما أحس أنها لن تمسك لسانها استدرجوها إلى إحدى الغابات وقتلوها! وهذا الوزير مترنيخ كان أكثر دراية وأشجع في الاهتداء إلى سفالات العظماء في زمانه.. ويقال إنه هو شخصيًّا كان عشيقًا لإحدى أخوات نليون.. ولكنه هو الذي ابتدع المخابرات النسائية.. كان يطلق الجميلات على خصومه السياسيين.. وكان الملتقى في الحانات.. حيث الخمر وذهاب العقل والجمال والفلوس.. هنا ينهار أكثر الرجال حرصًا على كل كلمة يقولها.. ولكنه وفي هذا الجو الضاغط القاهر يقول ويتباهى ويبالغ.. وما هي إلا لحظات حتى تكون أخبار رجالات النمسا عند الوزير مترنيخ!

والذي لم ينتبه له الوزير الخطير، أنه عندما أحب كاترينا إحدى عيونه على الناس.. كانت هي عيون الناس عليه.. فقال وروت وأطالت عن ضعف الوزير وماذا قال لها، وكيف أنه راح يبوس القدم، وأنه كان يقول لها وكانت تقول.. ولم تمنعها سفالتها طبعًا أن تقول إنه كان شاذًّا فقد علمها السفالة، فكانت أكثر تفوقًا عليه.. وكاترينا راينباخ هي صاحبة المقولة الشهيرة: الأبواب الكبيرة ليست لها مفاتيح في حجمها.. وإنما أكبر الأبواب ضخامة له مفاتيح صغيرة. وهذه المفاتيح في حقائب النساء.. فلا تذهب إلى عظيم، وإنما فتش عن المفاتيح.. وهي عند النساء دائمًا!

وهي التي قالت: لقد غلبني الضحك، عندما وجدت مترنيخ قد تزحلق من فوق عرشه إلى قدمي.. إنه المسكين قد صدَّق الأكاذيب التي كان يلقنها لنا.. إنه الضحية.. ضحية نفسه.. هاها..

ما أسهل أن تكون سعيدًا

تلقيت هذه القصة وطلب مني صاحبها المجهول أن أنقلها للناس. مريضان في غرفة واحدة. أحدهما قريب من النافذة والآخر نائم بعيدًا وعاجز عن القيام. والذي إلى جوار النافذة ينظر ويصف جمال الدنيا خارج الغرفة.. حديقة جميلة الألوان.. الأصفر والأبيض والأزرق والسماء من فوقها زرقاء. وتتغطى بغلالة بيضاء. وفي الليل تظهر النجوم بعيدة تتلألأ فيزداد الوجود جمالاً.. وفي الصباح تتخذ الدنيا لونًا وحياة جديدة.. السيارات تمرق وتبرق. والأطفال في الحديقة يلعبون فيزداد الوجود جمالاً وفخامة.. والأمهات جميلات ويزددن جمالاً كلما احتضنَّ الأطفال.

ومن الزهور والورود والأشجار والطيور والضحك والابتسامات تتكون موسيقى الكون، وكان المسموح للمريض إلى جوار النافذة أن يجلس معتدلاً ساعة كل يوم ليساعد الدورة الدموية على الحركة.. وبعد ذلك يجب أن يستلقي في فراشه.. وكان المريض البعيد عن النافذة ينتظر هذه الساعة فهي الدنيا كلها.

وفي يوم أعلن المريض إلى جوار النافذة أنه يرى فرقًا موسيقية ضخمة وأنها تعزف موسيقى جميلة ومارشات عسكرية.. إن الناس قد التفوا حول هذه الفرقة الموسيقية.. يرددون الأغاني ويظهر ذلك على

وجوههم بشاشة ونضارة. وكان المريض البعيد عن النافذة لا يسمع هذه الموسيقى، لكنه اعتاد أن يتخيل كل ذلك. وفي يوم بلا مقدمات توفي المريض الذي بجوار النافذة. وجاءت الممرضات يبكين وقدمن العزاء للمريض البعيد عن النافذة. وطلب المريض منهن أن ينقلن سريره إلى جوار النافذة. وكانت المفاجأة. فلا يواجه النافذة إلا حائط يسد الرؤية ثم إن المريض الذي مات كان أعمى! فما المعنى؟

حتى هذا التفسير ليس من عندي وإنما من عند المؤلف المجهول. يقول إن في الدنيا سعادة وفرحة وبهجة وفي استطاعة الإنسان أن ينقلها للآخرين. فهذا الأعمى أراد أن يدخل البهجة على زميله المريض فراح يروي ويحكي ما لا وجود له! وكلاهما سعيد. هذا بخياله، وهذا بما يستمع إليه.. ولم يكن في حاجة إلى أن يقفز من النافذة ليرى. ولا في حاجة إلى أن يعترف بالحقيقة.

فالسعادة إرادة.. أنت تريد أن تكون سعيدًا فتستطيع. وتريد أن تسعد الآخرين فتستطيع أيضًا. وهذا هو المعنى. لعله يكون قد بلغك. فأكون أنا قد أديت الأمانة.

وجلست أطبطب وادلع

تصور أن بنتًا صغيرة حلوة قالت لك: أنت المسئول عن نجاحي أو فشلي، أنت وحدك، فإذا قبلت أن تشاركني فقد أنجح وإذا لم توافق فمن المؤكد أنني سوف أسقط في امتحانات المذيعات بالتليفزيون!

جاءتني تقول لي إنها سوف تقدم برنامجًا للتليفزيون، وهو برنامج القبول - أي أنه امتحان وشرط لدخولها الامتحان ونجاحها أيضًا.. حاولت أن أقنعها بأنني صاحب تجربة طويلة في التليفزيون في الإعداد والتأليف والتقويم، وأن أي حوار هو تمثيلية يشترك فيها الضيف مع مقدمة البرنامج. نظهر أمام الناس كأننا التقينا صدفة، مع أننا جلسنا واتفقنا على كل شيء، ومعنى ذلك أنني يجب أن أعرف الأسئلة وأعرف الإجابة عنها أيضًا فلا يصح أن أبدو تلميذًا عبيطًا أفكر في الإجابة - يا تصيب يا تخيب!

ولأنها ابنة أعز أصدقائي وافقت على حمل الأمانة فكنت ظلومًا.

جاءت الكاميرات والميكروفونات: سيداتي سادتي هذه أول حلقة في برنامج «ألوان» نستهلها مع الكاتب الكبير.. وأحسست أنني في امتحان

صعب.. ما كان من الضروري أبدًا أن أشترك في هذا البرنامج ولا أن تضطرني فتاة صغيرة أيًا كان موقع أبيها من صداقتي..

السؤال الأول: اذكر عشرة أسماء فيها كلمة أبيض؟ أجبت: البيت الأبيض.. كريات الدم البيضاء.. الدار البيضاء.. البحر الأبيض والقزم الأبيض.

– سألت: إيه ده..؟ قلت: أحد النجوم في السماء.

– زي بعضه.

السؤال الثاني: ما الأسماء التي فيها كلمة أسود؟ أجبتها: البحر الأسود والجبل الأسود «مونت نجرو» والغابة السوداء والصندوق الأسود واللؤلؤة السوداء والثقوب السوداء والقمصان السوداء.

– إيه القمصان دي؟

–التي كانت يرتديها أتباع موسوليني، وأتباع هتلر كانوا يرتدون القمصان البنية، وأتباع النحاس باشا كانوا يرتدون القمصان الزرقاء.

– ثم الأرملة السوداء. سألتني: من هذه؟ قلت: ليست واحدة وإنما ملايين.

– الأرملة السوداء هذه فصيلة من العناكب تقتل الذكر بعد عملية اللقاح وتقطعه وتبيض فوقه حتى إذا فقست صغارها وجدوا أباهم طعامًا سائغًا، وأعتقد أن كل زوجة مستعدة أن تقدم زوجها طعامًا لأولادها. وأنثى العنكبوت هذه في كل مرة تتزوج تصبح أرملة بعد لحظات سعيدة مع ذكر غلبان..

– الكلام ده صحيح؟

– عيب تقولي لي كده.

– ونهضت محتجًا على هذا الأسلوب العيالي في التحاور معي وأطفئت الأنوار وانهارت البنت الحلوة ابنة صديقي وعدت وجلست «أطبطب وادلع» كما تقول نانسي عجرم وأعتذر لها أيضًا!

من قال ومن لم يقل؟

كان هذا البرنامج امتحانًا لذاكرتي.. كيف هي الآن.. وماذا بقي فيها من كلام قلته.. ومن كلام قرأته.. ومدى قدرتي على الارتجال.. ولم أجد حرجًا في أن أقول.. نسيت.. فمن الطبيعي أن أنسى.. وقال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه

وما سمي القلب إلا أنه يتقلب

فأنا لا أستطيع أن أحفظ كل كلمة حكيتها.. وكل حكاية قرأتها ومن فضل الله على الإنسان أنه ينسى.. أن يفتح ذاكرتي لتسقط منها أعباء المعلومات والذكريات والحكايات.. فلا يبقى إلا ما نحتاجه ولذلك نستدعيه بسهولة.

السؤال الأول: من الذي قال: الزواج كالطعام المسلوق.. صحي ولا طعم له؟ – أنا.

– صح. ومن الذي قال: أسرع حيوان ينقلك إلى الكمال: الألم؟

– إنه المتصوف الألماني أكهارت.

– صح. ومن الذي قال: هان الود؟ – محمد عبد الوهاب.

صح. ومن الذي قال: إن الظلام الذي يجلوك يا قمر.. له صباح متى ندركه؟

– مصطفي صادق الرافعي.

– صح. ومن الذي قال: مكتوب على قبر حماتي.. هي تنام في سلام وأنا أيضًا!

– مش عارف!

– أنت. ومن الذي قال عندما سألوه في الجمارك الأمريكية إن كان يحمل شيئًا ممنوعًا قال: عبقريتي!

– أوسكار وايلد.

– صح. ومن قال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾؟

– صدق الله العظيم.

– ومن الذي قال: مطبوع كل شيء على جبهتي إلا الزواج، فهو ملطوع على قفاي؟

أنا.

– صح. ومن الذي قال: أنت في صمتك مكره.. أنت في حبك مرغم.. فتألم وتعلم كيف تكره؟ كامل الشناوي.

– صح. ومن الذي قال عن الفستان الأحمر.. إن تكن نارًا فما أشهى خلودي في سعيرك أو تكن وردًا فوا لهفة روحي لعبيرك؟

– محمود حسن إسماعيل.

– صح. ومن الذي قال: لو كنت منذ بدء الخليقة لسألت الله ولماذا المرأة.. هل هو برنارد شو أم أوسكار وايلد أم الشاعر هيني أم كامل الشناوي؟

– أنا.

– صح. ومن الذي يقول الآن يا نهار أسود؟!

– أنا.

وقد طال البرنامج ساعتين. وأنا لا قادر أتكلم ولا أعترض فقد ازدحم الاستديو بالفنيين والعمال وطلبة المعاهد الفنية ليروا نموذجًا لبرنامج على الهواء، ولما ضحك الطلبة وأعيد السؤال مع التزام الجميع الصمت، رأيي الشخصي أن البرنامج مع الضحك التلقائي أفضل وأصح. ولكنها صاحبة البرنامج والكلمة الأخيرة وكانت كلمتي الأخيرة.. شكرًا، فقالت لا. الكلمة الأخيرة أن أعتذر لسيادتك فهذا برنامج لن يذاع.. إنه برنامج تجريبي! وقد فاتها تمامًا أن تسجله وتذيعه في عيد ميلادي الذي سوف يحتفل به التليفزيون وفي الدراسات الصحافية يضحكون على الصحافي المبتدئ الذي ذهب لتصوير قطار جديد فوجده قد احترق، فعاد من دون أن يصور أو يكتب شيئًا عن هذا الحدث الكبير!

نحن سكاكين وملاعق

سألت الرئيس السادات: ولماذا لا يلقى فلان ما يستحقه من اهتمامك يا ريس؟ ولم يرد. إذن أنا دخلت في منطقة ممنوعة. ولذلك يجب أن أسكت. وسكت. ولكن أريد أن أعرف. والناس أيضًا يسألونني كأنني أعرف. وإن لم أكن أعرف ففي استطاعتي أن أسأل ولكن لماذا يا ريس. الناس يتساءلون.

ولم يشأ أن يرد. إذن هو قد أغلق الباب والنافذة في هذا الموضوع. ولا يريد أن يقول، ولا بد أن لديه أسبابًا قوية للصمت. ولم أيأس فعدت أسأل قائلاً: ليس أنا الذي يريد أن يعرف يا ريس. إنهم المراسلون الأجانب ولديهم تفسيرات تقليدية لمثل هذه المواقف والقرارات الغامضة.

ورحت أعدد للرئيس الأسباب التي خطرت على بالي.. ولم يقلها أحد، وإنما أردت أن أخرجه من الصمت وأن نفتح الأبواب والنوافذ التي أغلقها في وجه كل من تسول له نفسه أن يسأل. قال – وقد صدمني بعض الوقت: شوف الحاكم يحتاج إلى أدوات، هذه سكين وهذه ملعقة.. وهذا كرباج وهذه جزمة قديمة لنضرب بها من يستحق ذلك.. يعني نحن جميعًا أدوات في يد الحاكم أو في قدميه.. واختار أداة لهذا الشخص الذي أسأله عنه. وصدمت وأحسست أنني أيضًا أحد هذه الأدوات قد وضعنا الرئيس في درج أو في كيس ويخرجنا عندما يشاء.. وفي المناسبات المختلفة ويطلب

من هذا أن يكون قاطعًا إذا كتب، وأن يكون هذا لاسعًا وهذا موجعًا.. إلى آخر الأدوات التي يستعين بها الحاكم في مواجهة الشعب والناس.

والذي صدمني ليس المعنى، فالمعنى ليس جديدًا.. إنه ألف باء الحكم عند فيلسوف السفالة السياسية ماكيافللي. والحقيقة أنه ليس سافلاً، وإنما كان فاضحًا. فأزعجنا وأخجلنا واتهمناه بالصراحة الزائدة التي كشفت نيات الحكام الذين يستخدمون الناس ويصنفونهم أدوات دون أن يدروا.

وبعد الصدمة اكتشفت أن هذه المواصفات تنطبق عليَّ، فأنا أكتب في السياسة ولست سياسيًّا، وأنا أديب أكتب في الصحف ولست صحافيًّا محترفًا – رغم أنني حصلت على كل ما يتمناه الصحافي، فرأست التحرير عشر مرات. ولكني أعيش أديبًا على رحابة صدر الصحافة وأمسك قلمًا وليس سكينًا ولا ملعقة ولا سيفًا وإنما تلسكوبًا أو ميكروسكوبًا.

وقرأت أن الرئيس عبد الناصر قال عن أحد الكتاب إنه سيف مكسور، أي أنه كان يفضله سيفًا باترًا قاطعًا أحدَ الأدوات أو أحد الأسلحة في ترسانة الرئيس.. إنهم – هكذا – جميعًا فكر واحد ويسقون من ماء واحد!

.. والقباقيب واحدة!

.. إلا هذا التعبير في أغنية نانسي عجرم قد شغلني. ولم أعرف لماذا؟ الأغنية ظريفة والمطربة أيضًا. ولم أجد سببًا واضحًا لأن أتوقف وأردد وأكرر هاتين الكلمتين. فهي تقول: أطبطب وادلع لا يقول (اتغيرت عليه) – أي حتى لا يقول إنني تغيرت لسبب ما. ولكن لماذا هذا المعنى.. لم أفهم. وظللت أفكر وأراجع وأحاسب. وأخيرًا وجدت السبب.. فقد قرأت هذا التعبير للمؤرخ المصري ابن إياس في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» الجزء الأول صفحة 333.

يقول: ثم دخلت وقائع سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية وفيها دبت عقارب الفتن بين الملك المعز وزوجته شجرة الدر. (فتغيرت عليه وتغير عليها) لأنها كانت تمن عليه في كل وقت وتقول له: لولا أنا ما وصلت أنت للسلطة! وكانت ألزمته بطلاق زوجته أم ولده الأمير «على» فطلقها. وكانت شجرة الدر تركية الجنسية شديدة الغيرة. وبلغها أن الملك المعز أرسل يخطب بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فصار بينهما وحشة من كل وجه.

إلى آخر القصة التي انتهت بأن أرسلت إليه خمسة من الرجال قتلوه بالقباقيب في الحمام.. أما ابنه «علي» فقد ألقى القبض على شجرة الدر وقتلوها بالقباقيب وألقوا بها في الشارع. وجاء اللصوص فجردوها مما بقي من ملابسها. وابتهجت أم الأمير «علي» وصنعت الحلوى المعروفة باسمها حتى اليوم: الخبز في اللبن والسكر مع الزبيب.

وشجرة الدر عندما تقول لزوجها: أنا التي جعلتك أميرًا وملكًا.. ولولاي ما كنت شيئًا مذكورًا.. هذا صحيح. ولكن هذا التعبير دارج على ألسنة معظم الزوجات. فما من زوجة إلا قالت لزوجها شيئًا من هذا: أنا التي جعلتك بني آدم، أنا التي جعلت الناس يحترمونك.. أنا التي وفرت لك المال.. أنا التي اخترتك من بين طابور طويل من الرجال ذابت نعالهم جريًا ورائي. أنا أنا.. حتى يضيق بها الرجل.. بغرورها ومبالغتها فيما قدمت – إن كانت قد قامت شيئًا!

ثم وجدت هذا التعبير الذي استوقفني موجودًا في بعض اللغات التي أعرفها. شيء عجيب. أن تكون حكمة الشعوب واحدة وإذا أرادت أن تضع معانيها في أوعية لغوية وجدت هذه الكلمات المتشابهة. وهي متشابهة؛ لأن المعنى واحد، إن تغيرت العصور والقلوب في طول الزمان وعرضه.

ومحمد عبد الوهاب هو الآخر يقول: غيروك.. علموك – أي غيروه عليه، وعلموه كيف يتغير من حين إلى حين – وغيروها هي أيضًا!

نحن جيل «العجل في بطن أمه»؟!

الأديب الكبير توفيق الحكيم له مقولة شهيرة. فعندما سئل عن الفرق بين جيله هو وجيل ابنه إسماعيل قال: عندما كانوا يسألوننا: إيه اللي عبر البحر ولا اتبلش – أي ما الذي عبر البحر من دون أن يبتل – كنا نقول: العجل في بطن أمه.. ولكن عندما سألت ابني إسماعيل كان جوابه: الطائرة! أي هي التي عبرت البحار من دون أن تبتل!! والجوابان صحيحان..

ويقول الحكيم ولكن هناك فرق: فنحن جيل العجل في بطن أمه الذي اخترع الطائرة. لأنه يريد أن يجعل العبور بدون أن يبتل.. ليس العجل فقط. وإنما أن يكون في بطن الطائرات والقطارات. فنحن الجيل الذي اخترع الطائرة سبيلا إلى النجاة.. أما جيل ابن توفيق الحكيم، فلا عرف مشكلة العجل في بطن أمه.. ولا سمع عن العجل ولا فكر في كيفية اختراع الطائرة. وإنما فتح عينيه فوجد الطائرة. ولذلك لم يجد سببًا للانشغال باختراعها. وإنما هي خدمات قدمتها أجيال سابقة.. تمامًا كما أنه يضغط على زرار وهو مغمض العينين فتضاء الغرفة أو يتحدث الراديو أو يضيء التليفزيون. فقط لأنه مد يده إلى أقرب مفتاح صغير فانفتحت له الدنيا..

بعبارة أخرى إننا إذا ضغطنا على زرار انفتحت دائرة كهربية فأضاءت الغرفة. بهذه السرعة وبهذه السهولة. ولكن هذه السرعة في التنفيذ لم تحققها البشرية إلا ببطء شديد.. فقد استغرقت مئات السنين من التفكير والتجارب. فكأن السرعة تحققت ببطء. والسهولة تحققت بتعقيدات كثيرة سبقتها. والطائرة التي تنتقل من قارة إلى قارة في ساعات، لم تصل إلى هذه النتيجة إلا بعد مئات السنين في تقليد الطيور وصناعة أجسام حديدية لها شكل الطيور ولها أجنحة تشبه أجنحتها من الريش! ويحكي توفيق الحكيم أنه عندما زار صديقًا له نشبت معركة في البيت. لم يستطع الصديق أن يخمدها أو يخفيها. فعرف أن أحد أبناء الصديق يريد سيارة يذهب بها إلى الجامعة. وليست المشكلة عدم وجود سيارة مناسبة وإنما عدم مقدرة الأب على شرائها. ما المشكلة؟ المشكلة أن الابن لا يرى ذلك سببًا قويًّا. هو يريد سيارة.. ورغبات الأبناء أوامر. وإذا كان الأب لا يجد الفلوس فليقترض وإذا لم يستطع فلماذا أدخلوه الجامعة؟!

يعني أن جيل ابن توفيق الحكيم كلهم من الأسياد، والدنيا كلها من الخدم والحشم. فإذا أراد أحد شيئًا فلا بد أن يجده، ولا يسأل كيف ولماذا ولا كم ثمنه. المهم أن يجد ما يسأل. وليس أبوه وكل الناس إلا خدامًا لسيادته. يكفي أنه تفضل على والديه وعلى البشرية بأنه أراد.. ولا راد لإرادته ولا اعتراض على مشيئته. فليست له مشكلة.. وإنما المشكلة عند والديه وكل الناس. وهم وحدهم الذين يفكرون ويدبرون ولا ينتظرون حمدًا ولا شكورًا!

صديقنا العاقل دون أن ندري!

جاء بالحرف الواحد: وعندما جرى الحديث عن أزمة محمد أحمد النعمان رئيس وزراء اليمن السابق قلت على لسانك إن النعمان يريد أن يكون شيئًا كبيرًا على حساب الجمهورية العربية. وإنه مصر على تنحية الرئيس السلال. ولكن الرئيس مصر على بقاء السلال لأنه يثق به، ولا يثق بالنعمان. كما أن القوات المصرية في اليمن لا تثق بالنعمان.. وأن الرئيس السلال لا يتمسك بالحكم. وأن الرئيس يعتقد أن لسان النعمان مع مصر وقلبه مع السعودية.

هذا ما جاء في الخطاب التاريخي للصحفي الكبير مصطفي أمين الذي بعث به من السجن إلى الرئيس جمال عبد الناصر، الذي سجنه تسع سنوات.. انتقل فيها من (عرش) الصحافة إلى (برش) السجن.

وقد سمعت من صديقي الأستاذ النعمان طرفًا من هذا الخلاف. ولم يكن في نية النعمان أن يكون رئيسًا للجمهورية ولكنه فقط غاضب على مساندة مصر للسلال وتجاهلها لكل العناصر الوطنية المحترمة. وعرفت من الأستاذ النعمان أن الرئيس عبد الناصر قد أدخله السجن.. ولم يعرف أن الشاعر محمود الزبيري كان في الزنزانة المجاورة.. فقط عندما أفرج عن الاثنين التقيا. ومن العجيب أن النعمان كان يحفظ شعر الزبيري كله ويستشهد به في كل مناسبة سياسية. وفي مؤتمر الأدباء الذي عقد في

دمشق وقف أمام الرئيس شكري القوتلي وألقى شعرًا وطنيًا ملتهبًا للزبيري وأذكر أن يوسف السباعي طلب إليه أن يكف عن مهاجمة الإمام أحمد.. كما طلب إليه مرة أخرى أن يكف عن الهجوم على السلال ليلاً ونهارًا.. وكانت المفاجأة أن النعمان نظم قصيدة بديعة في الرئيس عبد الناصر – مع الأسف لا حفظتها ولا احتفظت بها!

وبعد الإفراج عنه استدعاه الرئيس عبد الناصر إلى بيته، محاولاً التخفيف عنه. ثم قدم له الشيكولاته التي بها ورقة، والورقة بها حكمة. فامتدت يد النعمان وفتح الورقة وضحك فقال له الرئيس عبد الناصر: ماذا تقول لك الورقة؟ قال: تقول: اتق شر من أحسنت إليه!!

وضحك عبد الناصر، ثم طلب إليه النعمان أن يفتح ورقته هو أيضًا. وفتحها ووجد حكمة تقول له: عدو عاقل خير من صديق جاهل! وسألني الأستاذ النعمان بعد ذلك إن كان الرئيس عبد الناصر قد أدرك أن الحكمتين تنطبقان عليه وعلينا.. ولابد أن المخابرات المصرية سوف تقبض على صانع الشيكولاته وتضعه في نفس الزنزانة التي خرج منها النعمان.. هاها.

وعرفت من الأستاذ مصطفى أمين أن تقارير المخابرات الأمريكية تؤكد أن الأستاذ النعمان على علاقة قوية جدًا بالملك فيصل.. وأن معلومات عبد الناصر مأخوذة من هذه التقارير، قال لى الأستاذ النعمان: آسف جدًا أن مصركم الغالية لا تعرف لها صديقًا من عدو..

فأنا الصديق العاقل!

يعتذر عن خطايا جده الأكبر!

وضع الأغلال في يديه ورجليه وكتب على قميصه: أنا شديد الأسف. إنه أندرو هوكنز (37 عامًا) أحد أحفاد جون هوكنز الذي عاش من 400 سنة. وقد اعتبره الإنجليز أحد أبطال التاريخ لأنه شارك في سحق الأرمادا - أي الأسطول الإسباني. ولكن حفيده هذا اكتشف أن جده الأكبر سفاح وأنه من تجار الرقيق، وأنه كان قاسيًا دمويًّا نقل إلى أمريكا الألوف وقتل الألوف أيضًا، وأن ثروته الكاملة من تجارة الإنسان الإفريقي، ولذلك ذهب هذا الشاب ومعه عشرون آخرون في السلاسل والأغلال يركعون تحت أقدام السود في غرب إفريقيا يطلبون العفو والسماح عن جريمة ارتكبها جدهم الأكبر!

وقبلت حكومات غرب إفريقيا هذا الاعتذار الفريد في نوعه. وفي العام القادم سوف تحتفل إيطاليا بمرور قرنين من الزمان على صدور قانون تحريم تجارة الرقيق.

وقد شاركت أوروبا كلها في بيع وشراء الرقيق. حتى الفيلسوف العظيم أرسطو لم يحرم هذه التجارة الشنيعة، وإنما طلب الرفق بالعبيد، وحتى القديس بولس لم يحرم بيع العبيد.. وإنما هو الآخر طلب معاملتهم برفق - فهم بشر مثلنا!

ولم يلق العبيد من قاتل وسفاح لا رحمة عنده ولا قلب مثل الملك (ليوبولد) ملك بلجيكا.

وقد علقت بعض الصحف البريطانية على هذه التمثيلية المرتجلة للاعتذار عن خطايا الأجداد، ورأت في ذلك عارًا وهوانًا.

وعندما احتفلت أوروبا بذكرى الرحالة الإيطالي كولمبوس طالب الهنود الحمر باعتذار من أوروبا كلها فقد أدت رحلات كولمبوس إلى قتل الألوف من الهنود الحمر، ونقل كثير من الأمراض لهم وأنه هو الذي حولهم من السكان الأصليين لأمريكا وسادتها إلى مواطنين من الدرجة الثانية يعيشون في حظائر كالتي يعيش فيها سكان أستراليا الأصليون.

وما دام السيد آندرو هوكنز قد اعتذر عن جرائم جده الأكبر، فلماذا لا يذهب وبنفس الهيئة إلى «مركز مدام كوري» للأبحاث الذرية في باريس، ويكتب على ظهره «آسف جدًا جدًا» فجده الأكبر، هو الذي أتي بالطباق والسجائر والتدخين إلى أوروبا فكانت السبب الأول في انتشار السرطان!

بوش يقرأ نعيه بالفرنسية!

لا أعرف من هو ابن الحلال الذي أشار على الرئيس بوش أن يقرأ رواية «الغريب» للأديب الفرنسي الوجودي ألبير كامي الجزائري المولد واللهجة.

ولا من الذي أشار بأن يقرأ رواية «الطاعون» ومسرحية «كاليجولا».. وأسطورة «سيزيف»، وهي من إبداعات كامي!

يا ترى ما الذي أراد أن يعرفه الرئيس؟ ولكي يعرف لابد أن ينزع نفسه من هموم الدنيا وصداع الشرق الأوسط.. ولابد أن الذي أشار عليه بذلك يرى أنه في حاجة إلى قراءة كامي.. وهو في حاجة إلى ذلك للتشابه بين أفكاره وهذا الأديب الوجودي، وأن هذه الفلسفة الوجودية هي المنقذ من الضلال السياسي، ولذلك يجب على الرئيس أن يتفرغ تمامًا ليرى صورته في أعمال كامي.. وأن يدير الدنيا مرة أخرى من خلاله.. فلا الأدب الإنجليزي ولا الأمريكي يساعده على ذلك، وإنما هذا الأديب الذي هو أصغر من فاز بجائزة نوبل في الأدب.

فهل سياسته في الدنيا تشبه مأساة الفتى سيزيف الذي حكمت عليه الآلهة بأن يرفع حجرًا إلى قمة الجبل، فيعاود الحجر السقوط إلى السفح ويلاحقه سيزيف إلى القمة والسفح.. وإلى الأبد. فهل أراد أن يقول للرئيس إن مصائبه متكررة وأخطاءه هي هي في كل مكان، وإن الذي يحاوله هنا

هو الذي حاوله هناك، وإنه لا نهاية لعذابه وعذاب الدنيا على يديه؟ ممكن..

هل أراد أن يقول له إنه هو الطاغية كاليجولا، مع أن كاليجولا مستبد في دولة صغيرة عدد سكانها لا يزيد على مليون بينما كاليجولا الأمريكي يزلزل الدنيا باسم الدين والسلام. فكاليجولا الروماني تلميذ في حضانة الرئيس الأمريكي.

هل تعلم الرئيس بوش أن الأديب الفرنسي يرى أنه لا معنى لشيء ولا جدوى ولا أمل.. وأن طعم الدنيا على لسانه وعلى قلمه شديد المرارة.. فهل يأتي طعمها كذلك على لسان الرئيس أو أنها سوف تكون كذلك إن شاء الله.

أو الرئيس نفسه بلا طعم ولا معنى، وإنه مثل كل المستبدين أقلهم حرية وأكثر عذابًا من ضحاياه.. وأن الذي يقرؤه في مؤلفات كامي: ليس إلا فصلا هادئًا ووقتًا ضائعًا ونعيًا بليغًا.

.. وظهرت أبراج بابل!

هات كفك أقرأ ما حدث وما سوف يحدث في الشرق الأوسط إنه صداع في الدماغ.. فليكن وقد يذهب الصداع ويجب أن يبقى الدماغ.. إن الحرب في الشرق الأوسط قد بدأت ولكن بصور وأشكال أخرى.. الصورة والشكل والأداء مختلف.. فالنتائج كذلك.

من وجهة نظر إسرائيل.. لبنان دولة في داخل دولة.. دولة سياسية ضعيفة ودولة إرهابية قوية، والسنيورة أضعف كثيرًا جدًّا من نصر الله ولا بد من حكومة قوية ولكي تكون قوية يجب أن تجرد حزب اللّه من السلاح وهي لن تستطيع. إذن لا مفاوضة. وفلسطين لا دولة ولا إدارة ولا رأي لها ولا أطراف وإنما هي منظمة إرهابية ولكن لا أحد يمدها بسلاح من سوريا وفلوس من إيران. أي لا مفاوضة مع الإرهاب.. وإسرائيل تتولى الدفاع عن الديمقراطية في العالم باسم الولايات المتحدة، وهي حريصة على إبراز الخلافات بين السنة والشيعة والعرب والأكراد والفرس والمعتدلين في مصر والسعودية.. ومن وجهة نظر عربية: فلبنان قد اعتدى عليه ومات الألوف وخربت البيوت وشيء غير طبيعي أن تقوم إيران بدور القاتل وهي تمشي في جنازة القتيل وتعوضه عما فقد بأطباق وشوك وسكاكين، أما الأثرياء الذين قتلوا ففي جنة الخلد، فلا داعي لأن نشغل

بالنا وإنما يجب أن نحسدهم على هذه النعمة التي أتت بها الكاتيوشا. وحزب الله من النسيج اللبناني وهي منظمة تحرر لبنان من الغزاة وقد نجحت وهي لذلك نموذج لكل حركات التحرير وقد أسعدت المسلمين.

وباسم الديمقراطية جاءت حكومة حماس وهي تذكرنا بما حدث في ولاية كيرلا الهندية سنة 1959، فقد أتت الانتخابات بحكومة شيوعية وكنت أنا أول من ذهب إلى الزعيم الشيوعي نامبود ريبادو وقابلته في العاصمة ترافندروم؛ ولأن الهند هي الدولة الديمقراطية الكبرى في آسيا فلم يعترض أحد على ما أتت به الانتخابات الحرة ولاية نسبة الأمية فيها 10٪. إذن نحن في بداية طريق أصعب لأنه طريق كله كلام ومناقشات فقهية. نحن لم نعرف حتى الآن ما معنى أن يكون الفلسطيني إرهابيًا واللبناني إرهابيًا ولا معنى أن تكون الدولة إرهابية، فنحن سوف نخوض أطـول الحروب وهي حروب الفقهاء في المحكمة الدولية. فقد تنحى الجنرالات ليظهر الفقهاء الذين يعبدون الله على حرف وحرفين وكلمة في أول السطر وكلمة في آخره ونقطة وعلامات التعجب والاستفهام. لقد أقيمت أبراج المراقبة على الحدود وأقيمت أبراج بابل في كل العواصم العربية والأمريكية والأوروبية. وكما يقول المثل الشعبي المصري «كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا». والحقيقة إننا رحنا وجينا.. رحنا منكسرين وعدنا منتصرين ونمشي في طريق النصر منكسي الرءوس على ضحايانا الذين ماتوا ولا يعرفون لماذا؟!

وكان من نصيبي: روميو وجولييت!

أدهشنا أستاذنا د. طه حسين عندما تحدث عن الترجمة وأصولها ومزاياها وعيوبها. وضرب مثلاً بأعمال هيجو وشكسبير وجيته.. وأدهشنا مرة أخرى عندما وزع علينا مسرحيات شكسبير لكي نترجمها. وكان من نصيبي أن أترجم مسرحية «روميو وجولييت» وأن يقوم ابنه مؤنس طه حسين بترجمة «هاملت». فعلاً اندهشنا فنحن نعلم أن مؤنس طه حسين لا يجيد العربية، فكيف إذا ترجم شكسبير إلى اللغة العربية الفصحى رفيعة المستوى.. ولكنه قرار طه حسين!

وكانت مؤسسة فرانكلين الأمريكية قد طلبت من طه حسين أن يشرف على هذه الترجمة. وقبل ذلك طلبت إليه أن يقوم بدراسات عن الأدب الأمريكي وكان من نصيبي أن أكتب عن المسرح الأمريكي. وظهرت الدراسات مع مقدمة بديعة لطه حسين، ولكن لم نستطع أن نخفي دهشتنا لاختيارات طه حسين لمن سوف يتولى ترجمة الأعمال الرائعة لشكسبير، خصوصًا أن بعضها تُرجم قبل ذلك إلى اللغة العربية وحاول بعضنا أن يفهم طه حسين ما إذا كانت الترجمة القديمة غير دقيقة، أو أن أصحابها خرجوا على النص وأضافوا وحذفوا. لم يقل، ولكن أردنا أن نعرف لماذا. فكان من رأي طه حسين أن العمل الأدبي الكبير يمكن ترجمته في كل

العصور. فهو وُلِدَ ليعيش وليعايش كل زمن.. تمامًا كما نترجم الأعمال الأدبية للشباب مرة وللأطفال مرة أخرى. ولا يهم ماذا فعلنا وإنما يكفي أن نقول: إن هذا النص للشباب.. أي إننا حاولنا أن نجعله في متناول الشبان أو الأطفال وسوف يكون مفهومًا أننا تصرفنا لكي نجعله سائغًا، أي هذه الترجمة ليست هي الترجمة «المعتبرة»، وقد استخدم هذه الكلمة.. وإنما هي الترجمة المختصرة أو المبسطة فلا علينا من حرج إذا ما ذكرنا ذلك. ثم ضرب مثلا على ما قدمه هو بالفرنسية نقلاً عن اليونانية واللاتينية وقال إنه وجد بعض الصعوبات ولكن ما دام أشار إلى ذلك، فهذا يكفي إلى أن يجيء مترجم آخر.

وحكيتُ قصة شخصية، فقد كان يدرس لي علم الجمال أستاذنا منصور باشا فهمي. وكيف أننا اختلفنا – هو وأنا – على ترجمة كلمة (individu) الفرنسية ومشتقاتها: فردية وفردانية وتفردية والمذهب الفردي، فطلب مني منصور باشا فهمي أن أبعث بخطاب إلى المجمع اللغوي للنظر في هذه القضية وبعثت وانتظرت خمسين عامًا ولم أتلق ردًا!

ووجد طه حسين المناسبة التي يريدها، وهي أننا نترجم بقدر ما نستطيع ونحن على يقين من أن أجيالا من بعدنا سوف تشق طريقًا إلى الأصل الفرنسي أو الإنجليزي أو الألماني وسوف يسعدهم أنهم أفضل. كما نري أنفسنا الآن. وبلا نهاية!

الضحك عليها وعلينا!

ثلاثة من المصريين لا أظن أحدًا يقدر على مجاراتهم في رواية النكت أو اختراعها: الشيخ متولي الشعراوي والدكتور كمال الجنزوري رئيس وزراء مصر الأسبق والمهندس إسماعيل عثمان الذي يعرف بالإنجليزية أضعاف ما يعرفه بالعربية، فإذا جاء التففنا حوله حتى الصباح.. ولا معنى لأن نتساءل من أين يستقي العالم الجليل الشيخ الشعراوي كل هذه النكت والدهشة: كيف أن عالمًا باحثًا ممتعًا مثل الشعراوي يحفظ ويروي ما لا نهاية له من النكت؟ فكما أنه عالم جادٌّ، فهو أيضًا عالم ابن نكتة ويجب أن يضحك عند اللزوم. وكنا نداعبه ونقول: يا فضيلة الشيخ عندي نكتة ليست عندك، فيقول هات.. ونقول له: فكان يرد: طيب خذ هذه ثم هذه وعشرين نكتة أخرى!

أما الدكتور كمال الجنزوري، فملامحه الجادة وهمومه الثقيلة تجعله يفلت إلى الضحك– لا أعرف من أين يأتي بهذه النكت ولا من يجالس. أما نشاط الدكتور الجنزوري فمعروف، فعليه حراس ليلاً ونهارًا وغرقان في البحث والدراسة والمشاكل التي فوق أذنيه. ولكن إذا قال لك نكتة.. فهو يضحك لها أيضًا.. وإذا ضحك فهو يهتز.. كأنما أراد أن يسقط عنه التعب.. كما تخرج الإوزة من الماء فتهز أجنحتها وريشها ليسقط عنها الماء!

أما المهندس الكبير إسماعيل عثمان، أحد أفراد أسرة المقاولين العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه، وكان رئيسًا لمجلس إدارة المقاولين العرب التي أسسها عمه المهندس المعماري الأكبر. وإسماعيل عثمان تعلم في أمريكا. وإلى جانب ذكائه وبراعته هذه القدرة الفذة على رواية النكت وحفظها وربطها واستدعائها في الوقت المناسب - وإن كان كل وقت مناسبًا للضحك!

وهو قادر على أن يحكي ويربط نكتة بنكتة ساعـ ت.. فعلا يبعث على الدهشة والإعجاب ولا يجاريه أحد.. وإذا وجدنا إسماعيل عثمان في أي مكان فهو مركز الاهتمام وحوله تدور دوائر المرهقين المتعطشين للضحك. والضحك هو المهرب الوحيد من هموم الحياة والسياسة وهموم هذا الزمان.

أذكر أنني سألت الأديب السويسري «ديرنمات»، وقد ترجمت له سبع مسرحيات ظهرت منها على المسرح أربع، قلت له: ما ضرورة هذه المسرحيات المضحكة؟ قال: بل هذا زمان الضحك هربًا من المآسي وسخرية منها ومن أنفسنا. بل زماننا يبعث على الضحك فكيف لا نضحك. أنا عندما أكتب هذه المسرحيات وأعيد قراءتها أضحك على الذي كتبت ولكن عند كتابتها لا أضحك لأن الكتابة شيء جاد يبعث على الاهتمام، فإذا فرغت وعدت إليها ضحكت كأن كاتبها واحد غيري.

ووجدت نفسي في الشارع!

كان صديقي وزير الثقافة عبد الحميد رضوان أحد ينابيع النكت في مصر. وكنت على صلة مستمرة به. أنا أؤلف النكتة وأقول له: ناقصها شيء من الشطة.

وأجد الشطة عنده.. ونروي النكتة فتنطلق بسرعة في كل الاتجاهات وتعود إلينا على أنها آخر نكتة – بعد شهر أو شهرين – وأكثر هذه النكت يبعث بها أصدقاؤنا في السعودية وفي لبنان – غريبة!

وكان الوزير عبد الحميد رضوان إذا رأي موقفًا مضحكًا، ولم تسعفه الذاكرة كيف يجعلها مضحكة، فإنه يطلبني وقد تستغرق المكالمة ساعة، ونحن ندير النكتة ونحورها وندورها ونجعل أولها آخرها. فإذا نجحنا أطلقناها نكتة عشرات النكت، وقد عانيت أنا من هذه النكتة، وواحدة من هذه النكت ومقال كانا سببًا في فصلي من التدريس في الجامعة ومن العمل في الصحافة.. فقد غضب الرئيس عبد الناصر..

أما إحدى النكت، فهي أن مواطنًا يجلس في مقهى كل يوم.. ولوحظ أنه إذا أمسك الصحيفة فإنه ينظر إلى الصفحة الأولى ويبصق عليها.. ولاحظ أحد رواد المقهى هذا السلوك الغريب. فاقترب منه وسأله: أنا نفسي

أعرف.. سيادتك بتقرأ الجرنال بطريقة غريبة. ممكن سيادتك تقول لى ماذا تقرأ بالضبط؟!

فقال له: أنا أقرأ الوفيات..

ولكن الوفيات في الصحفات الأخيرة..

وجاء الرد: ولكن اللي في بالي لن يموت إلا في الصفحة الأولى!

قال لى صديقي حسن إبراهيم نائب رئيس الجمهورية إن الرئيس عبد الناصر غضب غضبًا شديدًا!

ونكتة أخرى عن رئيس.. أنه توفي وحملوا جثمانه في طائرة هيلوكوبتر.. والطائرة كانت تدور فوق الملاعب قبل هبوطها. وقد تساءل أحد المواطنين: طائرة من هذه؟ فقيل له: إنها تحمل جثمان الرئيس فقال: يا رب تقع.

اختفت صناعة النكت المحترمة!

في مؤسسة «أخبار اليوم» كنا نعرف «مجلس النكت» يلتقي الصحافيان الكبيران مصطفى أمين وعلى أمين مع اثنين من رسامي الكاريكاتير كل يوم: عبد المنعم رخا والرسام الأرمني إسكندر صاروخان.

ويبقى المجلس ساعة أو ساعتين: الهدف منه وضع أفكار الرسومات الكاريكاتورية في «أخبار اليوم» و«الأخبار».. ويبدأ المجلس بذكر الأخبار الغريبة التي تستحق السخرية..ويعرض على أمين الفكرة ويرد مصطفى أمين بالتعليق الساخر. أو يعرض رخا أو صاروخان.

وكثيرًا ما فتحت الباب لكي أعرف شيئًا فأجدهم جالسين في حيرة وفي هم وغم لأن تأليف النكتة عمل جاد.. إذ كيف نبني النكتة على التناقض والمفارقات والمبالغات.. واللامنطق.

وقد جربت هذا الموقف في المجلات التي رأست تحريرها ووجدته عملاً شاقًا.. والمشكلة هنا ليست مشكلة رسام الكاريكاتير، وإنما المشكلة هي «فكرة» الموقف.. لا بد من فكرة يعبر عنها الرسام.

بعض رسامي الكاريكاتير عندهم القدرة على الإبداع وكان يتصدرهم جميعًا الشاعر ورسام الكاريكاتير صلاح جاهين. وكان حالة فريدة في الرسم والضحك، كما كان فريدًا في قصائده الشعبية الرائعة. ثم ظهر ثنائي (دويتو) بديع هما الكاتب الساخر أحمد رجب ورسام الكاريكاتير البارع مصطفى حسين. ومضى علينا زمان لا نعرف إلا أن مصطفى حسين هو المفكر وهو الرسام. واختلف الاثنان، وكان لا بد أن يظهر الكاريكاتير وفوقه أو تحته هذه العبارة: فكرة أحمد رجب. واختلفا مرة أخرى. وفقد مصطفى حسين المفكر الذكي اللاذع أحمد رجب.

وظهر في الصحافة المصرية من يبيع أفكاره للرسامين؛ أي يظهر الرسام ويختفي وراء مجهول ابن نكتة؛ لأنه وحده غير قادر على الإبداع. وضعف مستوى الكاريكاتير وظهرت نوعية من الكاريكاتير اللغوي – أي التلاعب بالكلمات، وهو ما يسمى بالقافية أو القفشة، وهو بلا شك دون رسومات صلاح جاهين ومصطفى حسين وأحمد رجب وباختفاء مصطفى أمين وعلى أمين ورخا وصاروخان اختفت مصانع النكت والمنتجات الجماعية للنكتة السياسية والاجتماعية.

واختفت صحافة الإثارة المحترمة، وتركت مكانًا واسمًا للصحافة الصفراء التي لا تحترم القارئ ولا يحترمها!

الشاعر الظاهرة: كامل الشناوي

وعرفنا شاعرًا جميلاً يرتجل النكت: هو الشاعر الرقيق البديع الحزين كامل الشناوي، فهو صحافي لا نظير له في الصحافة المصرية– اليوم وأمس. فمن غير كامل الشناوي لم تكن سهرات ولا حكايات ولا نوادر ولا نكات يرتجلها من الموقف الذي هو فيه.. وكان الوزير حفني باشا محمود أخو رئيس الوزراء محمد باشا محمود هو أيضًا يخترع المواقف ويرتجل الحكايات ويفبركها ونضحك.. ولكنه لا يضحك.

وإذا ضحك فللداخل.. يضحك في داخله. وكان نموذجًا عجيبًا للقدرة الفذة على إخفاء مشاعره. كان يقول أنا مستعد أن أدفع لكامل الشناوي ما يشاء من المال وأحبسه ليظل يتحدث ويحكي لنا الحكاية الواحدة بعشرين شكلاً.. وهي جميعًا تبعث على الضحك.. وكانت مجالس كامل الشناوي بالإضافة إلى وجودنا نحن الأدباء والصحافيين الشبان باشاوات مصر ومطربيها.. عبد الوهاب وفريد الأطرش وأم كلثوم وبليغ حمدي وكمال الطويل وعبد الحليم حافظ وشادية والراقصة زينات علوي.

وكانت السهرة تبدأ بكامل الشناوي بحضوره.. ويقول ويقول.. وتقفز النكتة اللاسعة من هذا الموقف.. وتتناثر هذه النكت في مصر والعالم العربي بسرعة هائلة.. ويسأل الأصدقاء في الرياض وبيروت والدار

البيضاء عن آخر ما قال كامل الشناوي.. والذي قاله كثير جدًّا، والذي سجلناه قليل جدًا.. مثلاً كان مفتونا بفتاة تعمل جرسونة في فندق هيلتون، وكانت لها عينان جميلتان فكان يقول لها: عيناك توجعني، والبنت المسكينة لا تعرف ولا تفهم هذا التعبير الجميل. فكانت تقول له: لا.. عيني بتوجعني أنا..

وكان كامل الشناوي يتصنع الأسف ويقول: طيب. أفهِّمْها العبارة دي إزاي! عينك بتوجعني!

وكان يقول لمذيعة التليفزيون المرحومة سلوى حجازي: إنها من شدة أدبها ورقتها إذ فتحت درج مكتبها.. دقت عليه قبل أن تفتحه – منتهى الأدب!

وكان يقول عن الموسيقار محمد عبد الوهاب: إنه لا يكذب ولا يقول الحق!

وعندما قدمني بعد سنوات طويلة بعد تخرجي في الجامعة إلى أستاذي منصور باشا فهمي.. الذي درَّس لي علم الجمال في قسم الفلسفة قال له: يا باشا ده أنيس منصور.. سميك في الاسم والقسم والإثم!

ما أعظمك وما أقساك يا أستاذ

وأستاذنا عباس العقاد ذو الملامح الجادة الصارمة.. فهو يضغط قليلاً على شفتيه وينظر إليك في عينيك ليس قاسيًا ولا مخيفًا.. وإنما هو رجل جاد كأنه ينظر إلى لغز الألغاز أو عقدة العقد مع أنك لا شيء من ذلك ولكن هي عادته أن يفعل ذلك.. ويسيء فهمه تمامًا من يظن أنه هكذا العقاد.. هو هكذا عندما يفكر أو يكتب ولكن في ندواته الأسبوعية هو ظريف لطيف ويسألك ما هي آخر نكتة يا مولانا..

فنقول له.. ويرد عليك بسرعة: لا.. عندي أحسن منها!

ويقول ويتعالى صوته بالضحك كأنه بلا هموم وله نكت جارحة تدل على أنه قاس على خصومه في الأدب والسياسة، يقول: إن طه حسين ليس عميد الأدب وإنما هو عمي الأدب!

صعبة جدًا يا أستاذ!

ويقول عن توفيق الحكيم: إنه قد سرق مني البيريه هو وحسين فوزي!

فالحكيم يضع البيريه على رأسه وهو يفعل ذلك منذ كان في فرنسا.. ود. حسين فوزي أيضًا.. والعقاد هو أول من وضع البيريه على رأسه وليس الحكيم وحسين فوزي. ويقول العقاد: إذا كان توفيق يا مولانا يسرق البيريه من فوق دماغي فما الذي يفعل في أشياء أخرى في جيوب الناس وليست على رؤوسهم هاها..

صعبة جدًا يا أستاذ!

وفي مناقشة عن أحد أساتذتنا في الفلسفة قال واحد منا: إنه درس في السوربون يا أستاذ! فتضايق العقاد وقال: إذا كانت الفلسفة تحل بركاتها لمجرد أن أحدًا لامس جدران السوربون فإن حذائي هذا لمجرد ملامسته لقدمي، يجب أن يكون أعلم علماء الفلسفة في هذا الزمان!

قاسية جدًا يا أستاذ!

في غاية الرفق بالحيوان

عثروا على قنابل عنقودية لم تنفجر في جنوب لبنان.. القنابل إسرائيلية، واحتج لبنان. وشهد بذلك بعض قوات الطوارئ.. وأعلنت أمريكا أنها سوف تحقق في الأمر. ولكن لماذا؟ لأن هناك معاهدات سرية، لم نكن نعرفها بين أمريكا وإسرائيل تحرم استخدام هذه القنابل إلا ضد العسكريين. كما حدث في سنة 1967 وسنة 1973، أي أن هذه القنابل لقتل المقاتلين، أما المدنيون الأبرياء فلهم قنابل أخرى. ومن أهم مزايا هذه القنبلة العنقودية أنها مثل عناقيد العنب؛ أي قنبلة تخرج منها قنابل صغيرة لاصطياد الأفراد. ورأت إسرائيل أنها تحارب المدنيين الذين هم جند نصر الله.

ولم تعترض أمريكا على قتل المدنيين، وإنما اعترضت على نوع وحجم هذه القنابل؛ أي أنها موافقة، تمامًا كما فعلت في نجازاكي وهيروشيما، لم تقتل إلا مليون مدني وشوهت مليونين وأصابت الأرض بالبوار ولم يمت عسكري واحد! ومعنى ذلك أنه لا قيمة لضبط إسرائيل متلبسة بأسلحة ممنوعة.. ولا قيمة لاعتراض أمريكا على ذلك.

وقد أعلنت أمريكا أنها سوف تتحقق من هذه المخالفة الصريحة وتحققت من ذلك وبس.

وحدث في لبنان ما حدث في حرب الخليج، تلوثت المياه فماتت الأسماك والسياحة أيضًا. وتشرد في لبنان حوالى عشرة آلاف كلب وقط.. وهي حيوانات مدللة. هرب أصحابها وتركوها وراءهم.. وانضمت الكلاب إلى الضالين من البشر.. لأن جمعيات الرفق بالحيوان وجدت كلابًا مربوطة ماتت في مكانها لم يسعفها أحد بطعام أو شراب.

وقد اهتزت جمعيات الرفق بالحيوان وليس بالإنسان.. وتحاول إعادة هذه الكلاب الضالة إلى حالتها- أي تأهيلها لأن تكون كلابًا بيتية بعد أن صارت كلابًا شوارعية.. وقد حدث أن اختار أحد جنود الطوارئ كلبًا جميلاً وفوجئ كوفي أنان أن صاحبة الكلب تريد استعادته لأنه أغلى ما تملك في حياتها. وأنها ورثته عن جدتها، وأنها أطلقت عليه اسم ابنها الذي فقدته في الحرب من عشر سنوات.. ويقال إنها تلقت وعدًا بعودته إليها.. بعودة الكلب الغالي عليها، الذي يحمل اسم ولدها الذي هو أغلى من الكلب!

منتهى الرفق بالحيوان.

رئيسًا لجمعية أصدقاء الفارين

اندهشت جدًا عندما قال لي السكرتير: إن الممثلة البريطانية سارة مايلز تسأل عني.. وهذا رقم هاتفها ورقم غرفتها، وإنها تريد أن نلتقي قبل سفرها غدًا وتقترح أن يكون اللقاء في فندق شيراتون الساعة كذا..

ذهبت أسأل، ابتسم موظف الاستعلامات وقال: لعلها تجري هنا وهناك! تجري هنا؟ وتجري هناك؟ يعني إيه؟ وفعلا رأيت واحدة تجري ووقفت عند الاستعلامات تسأل عني، دعني أصفها لك.. متوسطة القامة بيضاء ممتلئة وقد عصبت رأسها بمنديل فلاحي نسميه في مصر المنديل أبو أويه، قدمت لها نفسي.. رحبت سبقتني إلى داخل المطعم وإلى جوار النافذة المطلة على النيل جلست وأشارت أن أجلس وجلست أستمع إلى قصتها وإلى أن الذي اقترح عليها أن تتصل بي هو الفنان حسين فهمي.. وبسرعة استبعدت تمامًا أن تكون تبحث عن قصة فيلم.. صحيح أنني كتبت قصصًا لأفلام ومسلسلات ومسرحيات ولكن لا تجربة لي مع السينما الأجنبية، وقبل أن أمضي في التفكير بعيدًا.. شدتني إلى واقعها وجرجرتني وراءها إلى حيث تسكن في بيت امتلأ بالعفاريت!

قالت: تؤمن بالعفاريت؟

– لا أؤمن بها!.. ولكن أؤمن أن هناك عفاريت.. لقد ذكرها القرآن الكريم.. عفاريت وجن وشياطين وأرواح.

قالت لي: إنها تعيش في قصر ريفي قديم، وإن الطابق العلوي تسكنه العفاريت. إنها لم تر واحدًا منها ولكن تسمع الهمهمة وصوت الأطباق والسكاكين والملاعق كل ليلة وأنها أحيانًا تذهب إليهم دون خوف ولا ترى أحدًا ولكن تشعر بوجودهم ولا يضايقها ذلك ولا يضايقهم ذلك أيضًا.

وانتظرت أعرف ما هو المطلوب مني ولم أجد سببًا لهذا اللقاء.. إلا إذا كان الغرض هو أن تطمئن على معلوماتها أو على تجربتها، وسألتني.. هل رأيت عفريتًا؟ قلت: نعم مرة واحدة، وسألتني وكيف كان شعورك؟ قلت: القرف والرغبة في القيء. ولا أظن أنها قررت أن تنشئ جمعية للعفاريت تكون هي رئيسة مجلس الإدارة وأكون العضو المنتدب فيها.

ولم أندهش أن تعيش هي في قصر به عفاريت.. أي به رعب وفزع، ففي بريطانيا كثيرون مثلها بل إن الإعلانات عن مثل هذه القصور مكتوب عليها: قصر به أشباح. ويتزاحم عليه كثيرون كما يتزاحمون على أفلام الرعب، فالإنسان يذهب بمنتهى الهدوء لشباك التذاكر ويشتري تذكرة ويجلس هادئًا حتى يزلزله الفيلم ويصرخ فهو الذي اختار أن يخاف.. اختار ما يخيفه ويهزه بعنف تمامًا كما يختار بيتًا مسكونًا بالأشباح والأرواح..

وكان لي أصدقاء مشتغلون بالجن والسحر، وكنت أتسلى، ولما عرفت أن واحدًا منهم على صلة بالرئيس عبد الناصر امتنعت ولما عرفت أن

أكثرهم يعمل في المخابرات ومباحث أمن الدولة قطعت أرجلهم وأيديهم من خلاف.. فلا هاتف ولا لقاء. فلقاء هؤلاء الناس هو نوع من استراق السمع والتسلل إلى حافة العالم الآخر الذي نخافه؛ لأننا لا نعرفه فإذا عرفنا عنه ازددنا خوفًا منه!

أراد أن يعرف الهيئة الغنائية

قلت للأستاذ محمد عبد الوهاب: عندي هدية.

فسأل: صوت جديد..؟

قلت: نعم. قال: تعال فورًا.

وذهبت إلى عبد الوهاب في بيته. وقد ارتدى بدلة أنيقة - وهو رجل أنيق. ومعي هذا الشاب الصغير جميل الصوت، وجلس الشاب يرتجف أمام عبد الوهاب، فلاحظ عبد الوهاب ذلك وراح يحدثني في موضوعات مختلفة: وأين كنت أمس. وماذا فعلنا في غيابه، وكنا نتناول عشاءنا في بيت أم كلثوم، وسأل: ماذا غنت لكم وماذا غنى الملحنون محمد الموجي وبليغ حمدي والشيخ زكريا.. وماذا أكلنا وكيف انتهت السهرة. ثم التفت عبد الوهاب إلى الشاب الصغير وقال: ماذا تريد أن تسمعني؟ فارتجف الشاب وتلعثم وغنى له أغنية.. وقلت: أريد أن أسمع أنا هويت وانتهيت لسيد درويش وغنى.. وأعجبني ولكن لم يظهر على وجه عبد الوهاب شيء يدل على استحسان هذا الصوت الجديد، ولا عنده رغبة في أن يسمع أغنية أخرى غيرها، وإنما تحول عبد الوهاب إلى وكيل نيابة يحقق مع الشاب الصغير كأنه ارتكب جريمة وجاء يعترف.. أو كان لا بد أن يعترف وإلا..

سأله عن بلده وأهله وأبيه وأمه وإخوته وماذا يأكل وماذا يشرب وكم من الوقت استغرقه في ارتداء ملابسه.. وإن كانت في حياته قصة حب أو كان في نيته أن يتزوج، وعن رأي أسرته وأصدقائه في صوته وإن كان أحد يشجعه أو أحد يريد أن يصرفه عن الغناء، ثم ماذا يقول لمن يقول إن الغناء صناعة من لا صناعة له.

وبدلا من أن يؤدي هذا الحوار الطويل العريض إلى تهدئة أعصاب هذا الشاب المسكين، فقد ضاعف اضطرابه ولكن عبد الوهاب لم يرحمه ولا توقف عن السؤال، وآخر سؤال: إنت وزنك كام كيلو؟

– 56 كيلو.

– ومنذ متى؟

قال: من حوالى سنة.. ثم أشار له عبد الوهاب بأن يتفضل من غير مطرود وينصرف. والتفت إلى عبد الوهاب أسأله: يا أخي أنت بهدلت الولد، ما هذه الأسئلة كلها؟ وكان الرد أنه حاول أن يسمع منه كل الحروف وكل الكلمات وأن يتأكد من التنفس الصحيح.. وأراد أن يعرف كيف يتغير صوته من انفعال لانفعال وإن كان مستعجلاً في أكله وشربه وإن كان وحده يشق طريقه إلى الطرب وهل هناك من يشجعه ويؤمن به.. وهل عنده محبوبة يغني لها..

والخلاصة أنا الذي سأل.

وقال عبد الوهاب: يحتاج إلى تدريب طويل وإلى العناية بصحته.. وأن يقلل من أكل النشويات والسكريات لأنه عصبي، ولذلك تسوست أسنانه الأمامية، والمطرب غير الملحن.. فالملحن لا يراه الجماهير. ولكن المطرب يرونه ويراهم، ولذلك يجب أن يكون حسن الهيئة، ملابسه وأداته، وأن يستشعر أن الغناء شيء محترم يجب أن يحشد له كل ما لديه من أدوات.

– يعني هذا الصوت فيه أمل؟

– نعم.

كلهن وكلهم لصوص يا سيدي!

هذا شرف يدعيه الكثيرون فقد نشرت في هذا المكان قصة بعث بها قارئ لم يشأ أن يذكر اسمه وطلب مني أن أنشرها ونشرتها ولم أنسبها لنفسي ولو كنت أعرف اسم مؤلفها لكتبته. ومنذ أيام تلقيت خطابًا من شخص بالسودان يقول: إنها قصته ولا يعرف كيف وصلتني وأنه نشرها في إحدى المجلات الأدبية. ومن الدار البيضاء جاءت رسالة يقول صاحبها إنها قصته وأنه سجلها على موقع له في الإنترنت. ومن القاهرة بعثت أديبة ناشئة تقول إنها من تأليفها وإنها بعثت بها إلى أديب كبير لتعرف رأيه فيها وأن الأديب – وذكرت اسمه – قد استبشر خيرًا ووعدها بأنه سوف يقدمها في إحدى المجلات.. ووجدت أنها فرصة لكي أتأكد، فاتصلت بالأديب الكبير وسألته فأكد لي أن هذه هي المرة الأولى التي يسمع شيئًا عن هذا.

كلهم لصوص يا سيدي!

وأذكر أن زارني المطرب المغربي الكبير عبد الوهاب الدوكالي، وأسعدني أن أقدم له لحنًا جميلاً سمعته من أحد الشبان وطلبت من المطرب الشاب أن يجيء للقاء الدوكالي ليسمعه هذا اللحن البديع.. وكانت أغنية اسمها (مرسول الحب).. أي مرسال الحب.. أو رسول الحب وهي من أجمل الألحان العربية وأكثرها شجنًا.

وجاء المطرب الشاب ومعه الكاسيت.. ثم غنى وأسعد عبد الوهاب الدوكالي وكتبت عن هذا اللقاء.. وقلت إن عبد الوهاب الدوكالى لو كان قد بقي في مصر وقتًا أطول واستمع إليه الناس لأحدث شيئًا في الغناء العربي.

وبعدها بأيام جاءني الشاب وقال لي إن الأستاذ الدوكالي رفع أمره إلى القضاء لأن هذه هي أغنيته من ثلاثين عامًا، وأرسل لي الدوكالي أغنيته الرائعة.. فهي أطول وأهدأ وأكثر شجنًا ولم أتابع هذه المهزلة!

ولما رأيت الأستاذ الدوكالي في الرباط طلبت أن أستمع منه إلى هذه الأغنية الكلاسيكية والتي يحفظها كل المغاربة وسمعتها بصوته وموسيقاه.. إنها في غاية الجمال. ولما سألته عن القضية قال: إنه سجل حقه فقط ولم يشأ أن يعاقب شبابًا في بداية حياتهم الفنية.. ولكن الكثير من المبتدئين الشباب لصوص يا سيدي!

وعندما استضفت فيروز في الستينيات في برنامج لي في التلفزيون اسمه (نجمك المفضل) جاءت شابة صغيرة تقلد فيروز، وطلبت من أحد الرحابنة أن يسمعها وسمعها وضحك وكان خفيف الدم. فقال كلامًا لم تفهمه لحسن الحظ، قال لها: عندما أستمع إليك أحس أنك لا تقلدين فيروز إنما تسرقينها.. مع أن التقليد حق لك.. وإنما تقتربين منها وتضعين يدك في جيبها مع أنك لست في حاجة إلى ذلك. واستوضحته أنا فقال: إنها تقلد وهي خائفة كأنها تسرقها وكل اللاتي يقلدن فيروز يفعلن ذلك!

فكلهن لصوص يا سيدي!

قرر العلماء طرد الولد الشقي

صدر قرار طرد المدعو: بلوتو من المنظومة الشمسية. هذا قرار ثلاثة آلاف من علماء الفلك كانوا قد احتشدوا في براغ عاصمة التشيك، وأحس العلماء أنهم أدوا واجبًا مقدسًا وأن همًّا ثقيلاً قد انزاح من فوق أكتافهم.

ولكن ما هذا الهم؟! لأنهم قد قرروا منذ سنة 1930 أن بلوتو هو الكوكب الجديد الذي انضم إلى الأسرة الشمسية! ولكن بعد سنوات عثر العلماء على أجرام سماوية في حجم بلوتو وأكبر منه ومع ذلك لم يروها جديرة بلقب كوكب فأجلوا النظر في هذه القضية، ولما تأكدوا أنها دون الكواكب في الصفات والحجم والمدار، أجلوا النطق بالحكم وتأجيل الحكم ليس حكمًا، وهم يريدون فصل الخطاب في هذه القضية العلمية الهامة: هل كوكب، أم ليس كذلك؟

رأي يقول ليس كوكبًا؛ لأن هناك أجرامًا سماوية أكبر منه أو في مثل حجمه.

إذن لماذا الإبقاء على هذا الاسم الذي لا يستحقه؟

الجواب: ليس شيئًا خطيرًا ألا يكون كوكبًا ويحمل لقب كوكب.. إذن هو كويكب! ولكن الحقيقة يجب أن نعرفها وأن نعلنها حتى لو أدى ذلك إلى تغيير الموسوعات الفلكية والمعاجم والكتب المدرسية. ويجب ألا نهتم كثيرًا بهذا التغيير لأن الحقيقة هي الأهم، وقد حدث كثيرًا في التاريخ أن تغيرت معلومات كانت حقائق ثم أصبحت بعد ذلك شيئًا آخر والمعنى: أنها غلطة علمية أن يعلن العلماء أن بلوتو كوكب، ومغالطة الإبقاء على هذه الصفة، فلا مجاملة في الحق والحقيقة!

وقد اكتشف العلماء منظومات شمسية أخرى تنقذنا.. أي مجموعة من الكواكب تدور حول نجم كالشمس. والشمس وهي نجم غازي نعيش عليه ولولاه ما كانت حياة على كوكب الأرض.. وفي الكون ما لا عدد له من النجوم وهذه عبارة علمية تمامًا فنحن لا نعرف عدد النجوم وعدد الكواكب التي تدور في فلكها. ويكفي أن نقول إن المجموعة الشمسية تقع في الجزء الجنوبي من إحدى المجرات. وفي هذه المجرة ألف مليون نجم مثل الشمس وما لا نعرف من الكواكب وليس من العلم أن نحكم عليها أو نحكم لها.

وهل هي نجوم مثل الشمس وهل تدور حولها كواكب وحول الكواكب أقمار – فالحكم في هذه القضية مبكر جدًا. فما نزال في حاجة إلى وسائل علمية أكثر دقة وتعقيدًا لنتحقق من كل ذلك.

صحيح أنه لا يغير من موقع بلوتو ولا من مكانه ومكانته أنه ليس كوكبًا بل هو أصغر من أن يكون كوبًا، وبناء على ذلك ولآخر مرة قرر العلماء طرد الكوكب بلوتو من الأسرة العريقة وهي أسرة الشمس،

ولأسباب كثيرة قرر العلماء طرد بلوتو من هذه الأسرة أولاً لأنه أصغر كثيرًا جدًّا من القمر الذي ليس كوكبًا وإنما هو تابع لكوكب الأرض.. وثانيًا لأن الجسم الفضائي ليكون كوكبًا في أسرتنا لا بد أن يكون دورانه حول الشمس، وبلوتو لا يدور حول الشمس وإنما هو يخترق مدارات بعض الكواكب الأخرى، ثم إن مدار بلوتو ليس منضبطًا وإنما هو مدار مضطرب.. حائر.. لا نعرف له وجهة واضحة، ثم إنه يكمل دورته كل 48 سنة. فهذا الجسم هو الولد الشقي في المنظومة الشمسية وأنه لا يلتزم بآداب هذه الأسرة.. ولذلك تحتم طرده! وطردوه!

حمار ينهق في كل كتاب

نبهني الأمير عبد العزيز بن فهد إلى أخطاء تقع في هذا المكان. آخرها رأي الأستاذ العقاد في طه حسين.

قال إن طه حسين ليس عميد الأدب وإنما هو عمي الأدب! يعني إيه؟ يعني أن هذه العبارة ليس لها معنى.. وإنما المعنى الذي قصده العقاد هو أن طه حسين هو «عمى» الأدب – أي أعمى الأدب.

وغلطة ثانية وثالثة. وشكرته واعتذرت ولكن لا أعرف لمن من الناس أعتذر. ولماذا حدث ما حدث؟

فعندما تقع أخطاء في مقالاتي في «الأهرام» فإنني ألعن كثيرين فالأخطاء المطبعية تجعل الذال زايًا والقاف فاء.. ومن الممكن أن ينتبه القارئ بسهولة إلى ذلك.. ولكن أحيانًا لا يستطيع القارئ.. فلا يجد لي عذرًا مقبولاً وذنبًا مغفورًا.

ولا يقنعه أن يقال إن الأخطاء مثل بذور الفاكهة أو اللب في البطيخ.. أي ما دامت هذه فاكهة فلا بد من البذور.. أو إذا كانت لحمًا فلا بد من العظم.. أو إذا كانت وردًا فلا بد من الشوك!

ولكن لا القارئ يتصور أن هذه الأخطاء جاءت عمدًا لكي أضايقه وأضيف إلى مضايقات الحياة مضايقات القراءة!

وأذكر أنني عندما كنت رئيس تحرير المجلة المصرية السودانية «وادي النيل». ولا بد من أخطاء وخاصة في الأسماء السودانية. وبعضها غير مألوف عند القارئ والكاتب.

وهي طبعًا أخطاء. ولكن الذي يؤلم أكثر أن يتصور بعض الإخوة السودانيين أن هذه الأخطاء تدل على الاستخفاف بهم.. والجهل بها، دليل على الاستهانة!!

فكان لا بد من أن يكون نائب رئيس التحرير سودانيًا ليحمل عني أو معي وزر هذه الأخطاء غير المقصودة!! واستمرت الأخطاء المطبعية!

ولم تعش المجلة طويلاً لأسباب سياسية فحمدًا لله! وكان لأستاذنا الفيلسوف شوبنهور حكاية.. فقد أصدر كتابًا جميلاً، وظل الكتاب معروضًا في المكتبات طويلاً لا يشتريه أحد. وكان كل يوم يمر على المكتبات ليرى أن أحدًا قد اشترى نسخة من الكتاب. وفي يوم وجد اختفاء نسخة فذهب يسأل البائع من هو الذي اشتراها. فعرف منه أنه أستاذ جامعي. ذهب إليه متهللاً يشكره وسأله ما الذي رأى في الكتاب فقال: إنه صعب غير مفهوم. فتضايق الفيلسوف وقال عبارته الشهيرة: لماذا إذا فتح الإنسان كتابًا ثم سمع حمارًا ينهق لماذا يكون صوت المؤلف دائمًا؟

ولما كان الزبون على حق دائمًا. ولما كان القارئ هو الزبون، فهو على حق.. وهذا هو صوت المؤلف دائمًا.

هذا العصيان في أعماقي

فجأة ضاق صدري.. أو أنه ضيق منذ وقت طويل ولم أشعر به إلا أخيرًا.. ضاق وتصلب. وأحسست أنني مزنوق بين بابين حديديين. وأن هذين البابين سيسحقان قلبي.. أو يسحقان وجودي كله.. وأنني لا أستبعد أن أقع من طولي تحت ضغط داخلي لا أعرف مصدره..

فهل أستسلم ؟ مؤكدًا لا!

وكثيرًا ما أحسست أن في داخلي نوعًا من العصيان المدني.. أملأ صدري بالهواء ولكن صدري لا ينفتح أحس كأن قلبي لا يدق.. وإذا حركت ذراعي ورجلي وافتعلت الغضب، راح قلبي يدق في عقلي فيصيبني الصداع نهارًا.. والأرق ليلاً والقرف دائمًا.

وأتساءل. ويقول هواة الطب: يا أخي لا داعي لأن تتعشى بالليل! كأنني معدة.. وكأن الحياة كلها أحماض ملتهبة.. وكأن حياتي هي إرهاق للمعدة وإحراق لجدرانها وتحطيم لأعصابها.. ولي أيضًا.. وهي نصيحة مريحة لأنها تبعث على الضحك!!

ويقول هواة الطب النفسي: يا أخي لا داعي للسهر. لا داعي للقهوة والشاي.. لا داعي لأن تنام جالسًا. وتتقلب نائمًا.. على مهلك، لن يضيع شيء.. لن يفوتك شيء. وإذا فاتك شيء.. فلن تخرب الدنيا.. دنياك أو دنيا الناس.. لن يأخذ أحد من شيء شيئًا!!

والذي ينصحني بالنوم لا يعرف أنني أنام قبل منتصف الليل بساعات وأصحو قبل الفجر بساعات أيضًا.. وهذا يكفي.. ولكن ليس هو النوم ولا قلة النوم..

وأراحني من نصحني بأن أعرض نفسي على أضرحة الأولياء. قالها جادًا وصدقته.. وذهبت وفتحت قلبي عند كل باب. بدأت بالسيدة زينب دعوت وتمشيت ولففت وتحركت شفتاي وملأتُ صدري فامتلأ. وهززت صدري فخفق ونقص وزني عشرات الكيلوجرامات.. وبهذه الخفة الجسمية والنفسية ذهبت إلى مسجد الحسين.. وانفتح قلبي ودق وارتفع ونقص وزني واستقر رأسي على كتفي وعلى المخدة نِمتُ..

نمت وجلست إلى مكتبي أسأل: ما الذي حدث؟ لماذا أصبح الثقيل خفيفًا، والخانق مريحًا؟ ماذا جرى لرأسي.. لمعدتي.. لنومتي.. لأكلتي؟..كيف حدث ما حدث؟ وكيف لا يحدث ما قد حدث!

إذن لابد أن أعيد كل ما فعلت.. ولكن ما الذي أعيده! إن كل شيء يتكرر.. وبصورة مؤلمة.. والألم هو وحده الذي يصدني عن أي شيء آخر، وهو الذي يجعلني عاجزًا عن طلب الراحة من أي أحد وفي أي مكان.

نجاحك في يديك وعلى كتفيك!

مع بداية الدراسة في الجامعة تنشر الصحف موضوعات وصورًا عن فساتين الطالبات.. أو ـ على الأصح ـ عن الموضة عمومًا.. فعندما كانت الفساتين طويلة كانت الصحف تنشر صورًا عن التسريحات والماكياج الذي ترسمه الطالبات.. وعن الفتيات اللائى يضعن ساقًا على ساق على الحشيش أمام المكتبة وفي بوفيه كلية الآداب. وكانت الفساتين في ذلك الوقت تغطي الساقين وتكنس الأرض أيضًا!

ولما قصرت الفساتين عادت الصحف والمجلات تتحدث عن المساحات الشرعية.. فوق الركبة.. وضرورة مراعاة ذلك.. وإن كانت الصحف لم تحدد كم هى المساحة المسموح بها؟! ومن الذي يحدد هذه المساحة عند مدخل الجامعة؟ وكيف يحددها؟!

وانشغلت الصحف بفساتين الطالبات.. وفي نفس الوقت لم تنشغل الطالبات. وقد اعتاد الطلبة الآن على هذه المناظر التي لا يمكن أن تكون أكثر عريًا من المايوهات على الشواطئ في الصيف..

وقبل أن نؤاخذ الطالبات على الفساتين القصيرة يجب أن نتساءل: هل نحن موافقون على مسايرة الموضة عمومًا.. في الجامعة وخارجها؟

الجواب: نحن موافقون، بدليل أن الموضة منتشرة في كل مكان ومنذ وقت طويل، وسوف تبقى الموضة، وتبقى موافقتنا أيضًا.. ولكن ما الذي يضايق الناس من بنطلونات الطالبات؟ لابد أن يكون السبب الوجيه هو أن الجامعة مكان للدراسة ويجب على الطالب ألا ينشغل بشيء آخر غير الدراسة، وهذا ما نتمناه وما هو واجب دائمًا.

وفساتين الطالبات تحول انتباه الطالب من الكتب إلى السيقان، بينما تشعر الطالبات بأنهن قد صنعن شيئًا.. فالمرأة بطبعها استعراضية تريد أن تعرف مفاتنها.. والموضة قد جعلت مفاتن المرأة ساقيها.

ولكن انشغال الجنسين بعضهما ببعض لا علاقة له بالأزياء.. وحب العلم والحرص على النجاح أقدم من الفساتين الطويلة والقصيرة، وكذلك الأعمال والفشل في الدراسة.

ومن المؤكد أن الصحف والمجلات تبالغ في وصف الأزياء وأثرها على الطلبة.. مع أن ملابس الطلبة وبنطلوناتهم الضيقة وشعورهم المسبسبة، وشواربهم وعضلاتهم وصدورهم، كل ذلك له أثر على الطالبات.. وهذا ما لا تتحدث عنه الصحف أيضًا.. لأن الذين يكتبون في الصحف رجال وليسوا نساء!

إن الفساتين في أوروبا أقصر جدًا من فساتين الطالبات هنا.. والبنطلونات هناك أضيق من البنطلونات هنا.. وقد اعتادت العيون على كل شيء.. واتجهت الأيدي والرؤوس إلى ما ينفع الجميع.. فالفساتين والبنطلونات لا علاقة لها بالنجاح والفشل.

النجاح مصدره هناك.. فوق الكتفين!

علاجهم الوحيد: الزار!

عندما يقرر أي إنسان أن يعرض نفسه على طبيب نفسي، فلأنه تعبان جدًّا.. ولأنه مقتنع بأن هذا الطبيب هو وحده الذي يستطيع أن يعيده إلى حالته.. أن يجعله يفكر بهدوء ويعمل بهدوء ولا يصطدم بالناس.. ولا ينظر إليه الناس على أنه إنسان مجنون!

ولذلك فأول ما يريده هذا الإنسان التعبان، هو أن يؤكد له الطبيب النفسي أنه فعلاً تعبان، وأن كل الناس مثله.. وأنه هو أعقل من معظم الناس، وبعد ذلك يجب على الطبيب أن يرفع الشعور بالحرج الذي بينه وبين المريض التعبان - والمريض هو المحرج عادة. ومن الضروري أن يكون الطبيب رقيقًا ليِّنًا واسع الصدر. وعلى هذا الصدر يجب أن يجد المريض مكانًا لرأسه وأحلامه ومتاعب طفولته ورجولته.. وأن يكون كل ما يقوله الطبيب هو مخدرات كاوتش دنلوب تتمدد عليه أعصاب المريض. وبذاك تنفتح نفس المريض ويقرأ للطبيب كل متاعب هذا التعبان منذ ولدته أمه، إلى أن ساقته الظروف السيئة إلى عيادة الطبيب.

ولكن الذي يحدث في بلدنا عجب! فمعظم الأطباء النفسيين عندهم عيادات مزدحمة بالتعبانين.. مزدحمة.. نعم! وهذه أكبر غلطة في حق

المريض وحق الطب نفسه؛ فالمريض الذي يراه هذا العدد الكبير من الناس يحرجه ويعقده أكثر وأكثر. وإذا كان هذا العدد الكبير في عيادة طبيب فمعنى ذلك أن الطبيب لن يكون عنده وقت لسماع أحد أو مناقشة أحد أو إعطاء الأمان لأى أحد.. وهذا عيب يؤدي إلى تعقيد المريض.. وهذا التعقيد يضاعف متاعب المريض، فكأن الطبيب قد قرر أن يجعل مرضاه أكثر مرضًا، وأن يجعل شفاءهم نوعًا من المستحيل.. ولكنهم في جميع الحالات يجب أن يدفعوا «الشيء الفلانى» وهذا هو المهم!!

سمعت عن طبيب كل مؤهلاته أن يكون ضابطًا في بوليس الآداب فنظرته هى تفتيش واتهام وإدانة وإهانة، أي إذلال للمريض.. وتعميق الشعور بالذنب عنده.. وسمعت عن طبيب يشتم المرضى ويهدد بالضرب.

إن «كودية» الزار أرحم وأسلوبها في العلاج ـ رغم أنها لا تدعي الطب ـ أصح.. فهي لا تطلب أكثر من بعض الديوك البيضاء وبعض الفلوس.. ولكنها تترك الناس يرقصون ويصرخون كأنهم شاهدوا الهدف الوحيد في آخر دقيقة من مباراة دولية!

ثم يعود الناس إلى بيوتهم وقد استراحوا، وإن كانوا يخجلون من أنهم حضروا حفلة زار.. مع أن هذا الزار لا يبعث على الخجل.. ولكن هذا الطب النفسي هو الذي يبعث على الخجل!

حبيبي كلّه مشتهيات

خلاص انتهى. لم أعد أعتذر عن الأخطاء التي تقع في هذا المكان. وأترك للقارئ أن يظن وأن يذهب في ظنه أو سوء ظنه إلى حيث يريد فالقارئ هو الزبون. والزبون على حق دائمًا. وما لا يفهمه فمعناه أن الكاتب حمار. وإذا وقعت أخطاء إملائية أو نحوية، فالكاتب الذي يدعى الفهم باسم (إن) وخبر (كان) ويعيب على الناس أنهم يجهلون ذلك، هو الآخر جاهل.. زي بعضه! فقد وقعت في مقالة سابقة غلطة. والغلطة أن كلمة سقطت لأسباب تشبه سقوط إنسان تحت السيارات أو القطارات. فالعبارة كانت تقول نقلاً عن سفر في التوراة اسمه (نشيد الأنشاد). تقول العبارة: حبيبي كله (مشتهيات).. أي كل شيء فيه حلو تشتهيه النفس. وظهرت العبارة: حبيبى كله. وبس!

وهى مناسبة لأن أدعوك إلى أن تقرأ أجمل قصائد العشق في الكتاب المقدس. ففى سفر (نشيد الأنشاد) عبارات شاعرية ليس لها مثيل في الشعر القديم. ويقال إن الذي نظمه هو الملك سليمان فيما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد، وهى حكاية أحد رعاة الغنم، الذي أحب فتاة اسمها شولا ميت، وقد أراد الملك سليمان أن يضمها إلى حريمه ـ 900 امرأة، فرفضت الفتاة وراحت تتغنى بجمال حبيبها

وتطلب من كل بنات أورشليم إن وجدنه نائمًا أن يتركنه حتى يصحو من تلقاء نفسه..

وتقول: أنا مريضة حبًا. وتقول: حلق حبيبى حلاوة وكله مشتهيات.. وتقول: أنا لحبيبي وحبيبي لي أنا.

ويقول هو: عنقك كبرج عاج، وأنفك كبرج لبنان، والناظر تجاه دمشق.. ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة.

وتتمنى شولا ميت لو كان حبيبها أخاها رضع ثدى أمها يدخل البيت ويخرج وتراه وتجلس إليه. ولكن أين هو الحبيب الذي غاب. وتعود تقول: إن حبيبها ذراعه اليسرى تحت رأسها واليمنى تعانقها.. وتقول: اجعلنى كخاتم على قلبك، على ساعدك؛ لأن المحبة قوية كالموت والغيرة كالهاوية. أنا نائمة وقلبى مستيقظ وها أنت جميلة يا حبيبتى وسريرنا أخضر.. ولا أحد يعرف بالضبط من الذي ألَّف هذا الكتاب.. هل واحد.. هل كثيرون: هل هى أغنيات شعبية في الأفراح والليالي الملاح..

المسيحيون يقولون: إن (نشيد الأنشاد) حكايات رمزية، وهى حوار بين السيد المسيح والكنيسة. ويقال كما أن (المزامير) من نظم الملك داود، فنشيد الأنشاد من نظم سليمان. وقد انتقلت كثير من العبارات الجميلة من الفولكلور الفرعونى إلى سفر (نشيد الأنشاد) وإلى سفر (المزامير) أيضًا. وربما كانت أسهل دراسة مقارنة هى التي قام بها الأستاذ الصديق د. فؤاد حسنين، فقد أرجع عباراته في التوراة إلى أصولها من الأدب الفرعوني. وتكاد تكون العبارات واحدة، ولكن الصياغة مختلفة.. ولم نعرف في كل الآداب القديمة كلامًا جميلاً عاطفيًا جنسيًا شعريًا مثل نشيد الأنشاد ـ أدعوك إلى قراءته!

صوتها في عبارة : صباح الخير!

إحدى قريباتي عملت أخيرًا موظفة. وأهلها سعداء بذلك وهى أكثر سعادة.. ولم تكن تعرف مواهبها الخاصة. ولكن في هذا العمل الجديد اكتشفت أنها ليست موظفة فقط، وإنما هي إحدى وكالات الأنباء.. فبسرعة غريبة عرفت الكثير عن كل الموظفين الزملاء والرؤساء: من هو الأعزب ومن هو المتزوج لأول مرة ولثاني مرة.. ومن الذي عنده تليفون سرّي في البيت أو في المكتب.. ومن الذي حضر ومن الذي غاب؟

ومعنى ذلك أنها لم تضيع وقتها في القراءة.. وإنما شغلته بالكلام، ولا بد أن يكون كلامها على شكل أسئلة.. وإلا فكيف استطاعت أن تعرف كل هذه الإجابات.. وهي لا تتحرك من مكانها؟ وليس معقولاً أن يجيء الناس إليها.. إذن فالتليفون هو «الساعي» الدائخ بينها وبين جميع الموظفين.. والتليفون عمومي ـ أي يجب أن يكون مشغولاً بالعمل ولصالح العمل..

وعندما تزوج أحد أقاربها لم تجد وسيلة للتزويغ من العمل للمشاركة في الليالي الملاح.. ثم مات أحد أقاربها.. ولم تتمكن من تقديم واجب العزاء.. وإنما جاء الموظفون يواسون الموظفة الجديدة من باب الواجب أو الشكليات أو تضييع الوقت أو حب الاستطلاع.. ولم

تكن أيديهم خالية، فقد ألقوا في يديها معلومات جديدة عن النظام والعمل والحضور والانصراف والاعتذار والغياب.. وفن التزويغ وادِّعاء الانشغال.. وفن التوقيع عند الانصراف وفن التوقيع من غير انصراف.. أي وهي موجودة في بيتها.. ومن الذي يتولى ذلك بالنيابة عنها.. أو تتولاه هي بالنيابة عن غيرها.. ومن الذي يفعل ذلك بانتظام، وكم تدفع ولمن.. لم يعد هناك خوف من شيء.. أو خوف على شيء..

وعرفت الموظفة الجديدة أيضًا لعبة الإجازات المرضية والعرضية، والإجازات الشخصية.. وعرفت الأماكن التي يمكن أن تنتقل إليها بكلمة من قريب أو صديق.. وأين هي الغرف ذات الشبابيك البحرية والغرف التي يمكن النوم فيها على المكتب بدون أن يدري أحد.. والغرف التي تتجمع فيها الفتيات وفي أيديهن التريكو أو مجلات الأطفال بدون أن يسمعن كلمة واحدة من أحد.. ولما سألتها عن العمل الذي تؤديه أجابت: ولا حاجة!! ولما طلبت إليها أن توضح أكثر. قالت: ولا حاجة.. صباح الخير. صباح الخير.. وفي هذه العبارة أضع كل نشاطي وحيويتي. وبعد ذلك أستطيع أن أنام حتى الثانية مساء!! وعلى الرغم من أنها لا تعمل ولا توجد لديها فرصة عمل.. فإنها قد عرفت بالدقة كل الظروف والقواعد والحيل التي تجعلها لا تعمل إطلاقًا.. مع أن عملها ليس إلا: صباح الخير.. حتى هذه يمكن أن تأخذ منها إجازة!

ومثلها عشرات الألوف!

والله زمان يا حب زمان!

لكل زمن حب. ولكل حب زمان. كنا نقنع بالنظرة ونحلم بالقبلة. واليوم لا قبلة ولا نظرة ولا أمل في ذلك! كانت هناك بنت الجيران. صغيرة حلوة. وكانت بعيدة عن العين وعن اليد. ولكنها استقرت أملاً ووهمًا في القلب. وكانت قادرة على أن تلتهم كل شيء في حياتي كأنها عصا موسى.. واليوم في حياتي زحام من الوجوه والأصوات والألوان والآمال والآلام وعواصف من الناس وطوفان من الأمل.. وتسونامي من السخط على ما كان وما هو كائن وما سوف يكون.

أول فتاة صغيرة كانت تسكن بالقرب مني لم أعرف ملامحها في ذلك الوقت. رأيتها ألف مرة. ولكن لم أستطع أن أتبين معالمها ولا أقدر على التفرقة بينها وبين أية تلميذة أخرى. لا مشيت إلى جوارها ولا سمعت صوتها، وإنما أراها قادمة أو عائدة.. وأدرك خطوطها الخارجية. شيء واحد كان يميزها: مشيتها؛ فهي تمشي كالبطة مفتوحة القدمين كأنها راقصة باليه وبس. وفي يوم اقتربت مني وسألتني: الساعة كام؟ فقلت: معك ساعة! ومضت ومضيت.. ولم أفهم أنها حاولت عبور المسافة القلقة بيننا. وأذكر أن أول قصة كتبتها في بداية حياتي الأدبية كانت عن هذه الواقعة. وقد غيرت في أحداث

القصة بما يستر عجزي ويخفي سذاجتي.. فالقصة تحكي بأنني الذي تقدمت إليها وحدثتها وأسمعتها شعري.. ثم غنيت لها ودرت حولها. وكانت سعادتها غامرة والابتسامة لم تفارق شفتيها. وأنهيت هذه القصة بأن الفتاة كانت عمياء، وأنها سمعت ولم تر.. مع أن الذي لا سمع ولا رأى ـ في الحقيقة ـ هو أنا!

وتعددت الوجوه وفشلت المحاولات من جانب واحد. وتغيرت الأفكار في رأسي عندما قابلت فتاة إيطالية ظننتها إسبانية فتحدثت إليها بالفرنسية. وكانت مثلي قد درست الفلسفة.. وكان ما كان.. وفي يوم قالت لي: أنا من أقارب بابا الفاتيكان، وأنه سوف يلقانا معًا ويباركنا.. يبارك حبنا ويدعو لنا بالنجاح والسعادة، ما رأيك؟ هي سألتني. وهززت رأسي موافقًا؛ فهي فرصة نادرة أن أرى البابا يوحنا الثالث والعشرين، وذهبت ورأيته وباركنا. ولكن يبدو أن بركته هذه كانت ضعيفة المفعول؛ فقلت لها: اسمعي، أنت أجمل من رأيت، وأفضل من عرفت، وأنت وأنت.. ولكن أنا لا قيمة لي في بلدي.. فأنا لم أحقق أي شيء. وأنا مثل واحد ركب طائرة فقالوا له: اربط الحزام اطفئ السيجارة.. لماذا؟ لأننا سوف نرتفع.. وأنا كذلك.. فيجب أن أمتنع عن أشياء كثيرة لأنني أريد أن أرتفع لأكون شيئًا يستحقك إذا انتظرت عشر سنوات!

ولا أعرف كم مرة تكرر هذا الموقف في باريس وبرلين وبورتوفينو الإيطالية وفي بلباو الإسبانية.. وفي الطائرة الكونكورد بين لندن ونيويورك، ثم نسيت كل شيء بعد ذلك.. فقد توارى القلب في ضوء العقل.. فالقلب حيوان ليلي يعيش وينتعش في الظلام والضباب..

وهكذا نفذت سهام العقل فقضت أول ما قضت على الدفء والوهم والخيال والشفق والغسق.. فقد قررت أن أعيش في قرص الشمس، لا أرى ولا يراني أحد، فألف رحمة على خيالات وأوهام زمان!

الكون أصغر مما نتخيل!

كانت الدنيا كبيرة ونحن صغار، صارت الدنيا صغيرة ونحن كبار.. ثم صرنا صغارًا جدًّا والكون كبير.. فكنا نقول إن فلانًا أبوه أكبر من العسكري.. أو هو العسكري. وكان العسكري هو أكبر وأهم إنسان في حياتنا.. ولما كبرنا قليلاً قلنا: إنه أكبر من الضابط.. ثم لا أحد أكبر من الملك.. وكنا نرى الشوارع واسعة جدًّا طويلة جدًّا.. والميادين أوسع من ميدان الكونكورد في باريس والتحرير في القاهرة..

وعندما ابتعدنا عن الريف وعدنا إليه وجدنا الشوارع كالحواري ضيقة والميادين خانقة. وكنا نتوهم أن الإنسان يحتاج إلى شجاعة لعبور الشارع لاتساعه وكثرة المشاة والسيارات. وعدنا نراه لا يزيد على خطوات قليلة وكذلك الميادين.. فقد كانت كبيرة ونحن صغار، ولما كبرنا وانتقلنا إلى مدن أكبر وأوسع صغرت المقاييس في عيوننا.

وعندما عدت إلى مدرستي بعد عشرات السنين لكي أشارك في وضع تمثال لي بالقرب من المدرسة، اندهشت كيف أنها صغيرة هكذا. وكيف أن غرفها صغيرة ومساحاتها أيضًا. وكنت أراها شاسعة وكيف أن الفصول الدراسية كانت في حجم المدرجات الجامعية.. وعندما ذهبت إلى كلية الآداب ألقي محاضرة بعد تخرجي بعشرات

السنين، أدهشني أن المدرجات صغيرة وليست في اتساع استاد القاهرة كما كنت أتصور.. وفي يوم لم أجد تفسيرًا لما رأيت عندما تطلعت إلى أمي – يرحمها الله ـ فوجدتها بيضاء أكثر مما كنت أتصور ووجدت عينيها عسليتين ولم يكن لونها أسود. وهي متوسطة القامة وكنت أراها طويلة عملاقة. وكانت أمي تؤكد أنها ترى النجوم نهارًا وأن أحدًا لا يجاريها في قوة الإبصار إلا ابنة خالة لها. وكانتا تتسابقان في القدرة الفريدة على رؤية الأشياء البعيدة جدًا. مثلاً كنا نسكن في شارع ينتهي بساعة في ميدان، والمسافة بيننا وبين الساعة حوالي نصف كيلومتر. وكانت أمي تستطيع أن تميز عقارب الساعة. وكان بعض الأقارب لا يصدقونها، ثم لجأوا إلى امتحان، فأتوا بسلم وفتحوا الساعة وحركوا عقاربها. ورأتها أمي وقالت: إن الساعة كذا والدقيقة كذا. وكانت أمي تقول: إنني أدعو الله أن يعطيك نظري ويعطيني نظرك فأنت أحوج مني إلى ذلك!

شيء غريب! كنت أقول إن عددنا عشرة من الإخوة. والحقيقة أننا أحد عشر. ولم أفهم معنى هذا النسيان. وعرفت فيما بعد أنني لا أحب أحد أخوتي لأنه قد رفع صوته على أمنا.. ورغم أنه بعد ذلك كان ألطف وأظرف، ولكني لم أتصالح معه. وكنت أنساه؛ فقد كنت صغيرًا لم أتعلم معنى التسامح والنسيان.

وفي يوم زرت مع أبي أحد أقاربه وكان يعمل في مصلحة المساحة. وعلى مكتبه رأيت الكرة الأرضية لأول مرة. واقتربت واقتربت.. وجاء والدي ووضع إصبعه على الكرة الأرضية فغطت إصبعه مصر والسودان وليبيا والبحر الأحمر وسيناء. ونظر ناحيتي

وقال: هذه المساحة الخضراء هي مصر.. وأدار الكرة الأرضية يمينًا وشمالاً.. يعني إيه؟

يعني هذا مكاننا من كوكب الأرض.. ولما رأيت (القبة السماوية) ورأيت الأرض مثل حبة زيتون في مساحة هائلة من النقط البيضاء والبقع الصفراء والحمراء.. أي أن هذا جانب من الكون الكبير جدًّا.. والذي ترامت ـ بمرور الوقت ـ حدوده المكانية والزمانية إلى ما لا نهاية له ـ لقد عادت الدنيا أكبر في خيالنا وعدنا صغارًا في واقعنا!

الصحة: أن تكون عاريًا تمامًا!

قالوا لي: تريد أن تكون رشيقًا؟ قلت: الرشاقة لا تهم.. الصحة هي التي تهم.. راحة الأعصاب.. انضباط الهضم.. انتظام التنفس.. والهواء النقي والهدوء والغابات والوجه الحسن.. هذه هي جنة الإنسان على الأرض.. قال لي صديق يعمل في فيينا وأتى بخريطة واختار لي قرية صغيرة تبعد عن فيينا مائة كيلومتر.. وأشار بإصبعه قائلاً: هنا.. كل ما يتمناه الإنسان. فعلاً وجدت ما أتمناه.. القرية صغيرة في حضن الغابات.. وبها أربعة فنادق.. وسط الفنادق توجد المصحة.. والمصحة بها عيون دافئة وبها طعام صحي.. قالوا لي: غدًا يبدأ العلاج.. فقلت: ولكني والحمدلله لست مريضًا.. أنا أريد إراحة أعصابي فقط.. وأخذت الجدول الخاص بانتظام الراحة.. الساعة الثامنة والنصف: تدليك.. ذهبت في الموعد.. فوجدت اسمي على الباب.. دخلت.. وكانت فتاة جميلة.. قالت لي: اخلع.. أخلع إيه؟ القميص والفانلة.. «الفانلة غلط» وخلعت.. وتمددت على المنضدة.. وأقبلت الحسناء وبدأت تدليك فقرات ظهري واحدة واحدة ذهابًا وإيابًا.. وبعد نصف ساعة بالضبط أشارت إلى أن أنهض.. ونهضت..

وبعد ذلك كان التدليك تحت الماء.. ووجدت اسمي ودخلت، وجاءت السيدة تقول لي: اخلع.. أخلع إيه؟ ـ كله.. كله يعني إيه؟

يعني ملط.. كما ولدتك أمك.. الرجال والنساء في ذلك سواء.. اقلع ملط.. سوف أترك المكان.. وادخل في هذا الحوض.. وسوف تتدفق عليك المياه من كل الجوانب وبقوة.. وتقوم بتدليك كل مكان في جسمك.. عضلاتك وأعصابك.. وإذا احتجت لأى شيء اطلبني.. ذهبت وقلعت ملط.. ودخلت الحوض الساخن.. وظهرت السيدة وسألتني إن كانت درجة الحرارة مناسبة.. فهززت رأسي.. فوضعت بعض الأملاح العطرية في الماء ونظرت تسألني: إن كنت مبسوطًا، قات: نعم.. هل أنت مكسوف؟ ـ الآن لا.. ـ أوكي.. غدًا في نفس الموعد. ولكن بعد أن تسمع الجرس.. الآن اذهب إلى السرير وسوف أكون هناك.. ودق الجرس وخرجت من الحمام وسبقتني إلى الوقوف إلى جو ر السرير.. ونمت.. وغطتني بالبطاطين، وضبطت المنبه، وقالت: ثلث ساعة وبعدها تنهض.. وخرجت دافئًا مسترخيًا تمامًا. ومضت الأيام.. واعتدت على ذلك.. اعتدت على المشي بين الغابات طلوعًا ونزولاً.. وعلى النوم الهادئ والطعام الصحي.. والمشي طويلاً والنوم عميقًا.. وشعرت بأنني أخفّ وزنًا وأكثر حيوية وأرشق خطوة.. ولكن ليست عندي أية رغبة في القراءة أو الكتابة.. ولا عندي أية رغبة في أن أمسك التليفون وأقول ألو لأي أحد.. وفي آخر يوم قررت أن أضاعف مرات التنشيط.. وبمنتهى الصراحة دختُ من الانتقال من مكان إلى مكان.. وغلبني النوم في إحدى المرات.. وجاءت سيدة توقظني وتشير إلى إحدى الغرف أن أتبعها، وسرت وراءها وقالت: إنني أريد أن أدعوك إلى فنجان قهوة.. لا أكثر ولا أقل.

نحن حيوانات عاقلة أحيانًا !

لا أنت عاقل ولا أنت مجنون.. أنت الاثنان معًا.. قرار صدر من المؤتمر الدولي الذي انعقد في مدينة «لنس» بالنمسا من زمن مضى.. وقد ضم المؤتمر 70 عضوًا من 14 دولة.

أما موضوع المؤتمر فهو «الأمراض النفسية والفنون واللغة»، وقد لاحظ العلماء أن الرسوم والنقوش التي عرضها فنانون في وسط إفريقيا رغم بساطتها تؤكد كل صفات مرض الانفصام والازدواج في الشخصية..

وأكد علماء آخرون أن بعض الرسومات التي سجّلها الشبان في أوروبا وأميركا تحت تأثير حقن الهذيان (ل.س.د)، وتحت تأثير هلوسة عقار السكالين ـ تعرض نوعًا من الإيقاع الموسيقي واللوني..

وأعلن أحد العلماء أن الرسوم والقصائد التي يبدعها نزلاء السجون المختلفة دليل على اللقاء القوي بين العقل والجنون، ولكن بصورة فنية جميلة بليغة!

وفي أحد الأبحاث أعلن عالم أميركي كبير أنه لا يوجد أديب ليست له عبارات تدل على الجنون.. على جنونه هو.. وأنه قد قام بإحصاء شامل فوجد أن معظم الأدباء مجانين كبار أيضًا!

وفي البحث الذي ألقاه البروفسور رايزفوجت أكّد أن عددًا كبيرًا من الأدباء تعرضوا لدراسة شخصيات المجانين في مسرحياتهم ورواياتهم وأنهم أبدوا عطفًا وحماسًا ومتعة واضحة.. كأنهم يسقطون أنفسهم على الورق.. كأنهم يصورون أنفسهم.. أو يفصلون أزياء على مقاسهم ثم يلقون بها على أجسام الآخرين.. وإن لم يكن ذلك جنونًا فهو استمتاع بمعاشرة المجانين وأفكار المجانين!

والفنان - الرسام والشاعر والمصور والنحات والموسيقار - إن لم يكن مجنونًا دائمًا فمن المؤكد أنه مجنون أحيانًا.. وأنه يعرف ويعترف بذلك. ولا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة أن يصاب أصحاب الرسالات الفكرية - والفن - الكبرى بالصرع والانفصام، بل إن الفن نفسه نوع من ازدواج الواقع.. واقع الطبيعة والحياة.. والواقع النفسي للفنان. وليس الفن نفسه إلا نوعًا من الاغتصاب أو الزواج بالإكراه.

فإذا كنت تتصور أن المجانين بلا عقل فيجب أن تتأكد أن أكثر العقلاء جدًّا مجانين أيضًا!

فليس الإنسان حيوانًا عاقلاً.. وإنما حيوان دائمًا وعاقل أحيانًا!

الرحلة فشلت ولكنه نجح !

السفينة غرقت ـ ولكن الرحلة نجحت.

«رع» المصنوعة من الورق، قاومت الأمواج شهرين.. أما رحالتها فقد عادوا إلى الشاطئ يحدثون العالم كله عما جرى لهم، ولكن ما الذي جعل البحار النرويجي هايردال يقوم بهذه الرحلة ليؤكد أن الفراعنة هم أول من سافر إلى أمريكا قبل كولمبوس بأربعين قرنًا؟!

هناك أسباب متعددة مختلفة..

من بينها أن «التاريخ واحد».. أي أن هناك اتصالاً مستمرًا بين كل الحضارات القديمة.. وأنها تتأثر بعضها ببعض.. ربما لأن الأرض متصلة والحياة متصلة، فلا بد أن تكون الشعوب قد مشت على الأرض من جانب إلى جانب، وعبرت الماء من شاطئ إلى شاطئ.. فذهب الفراعنة إلى أمريكا وأقاموا أهرام المكسيك. وهناك سبب آخر، وهو أننا نعيش في جو من التشاؤم واليأس.. وهذا التشاؤم يجعلنا ننظر إلى الماضي على أنه أحسن.. وعلى أن العصور الذهبية للإنسانية كلها كانت وراءنا.. فأجدادنا أحسن من آبائنا.. وأجداد أجدادنا أحسن الجميع.. ولذلك فالفراعنة هم الذين عرفوا كل شيء وجرَّبوا كل شيء..

ووصلوا إلى كل شيء قبل أن نصل نحن إليه في العصر الحديث. أي وصلوا إلى أمريكا قبل أن يصل إليها كولمبوس.. وعلى زوارق من الورق، لا من الخشب.. أو عابرات المحيطات!

والتشاؤم يبلغ أقصى درجاته عندما نقول إن الفراعنة ليسوا هم مصدر الحضارة وإنما هم بقايا حضارة أخرى جاءت من سكان كواكب أخرى.. أعقل وأحكم منا.. وأن هؤلاء السكان قد هبطوا إلى الأرض وعلمونا، ثم لأسباب لا نعرفها اختفوا!! وهناك سبب أخلاقي يدفعنا إلى تمجيد الماضي البعيد.. وهو أن الإنسان في العصر الحديث قد أصبح مغرورًا.. وأنه تصوَّر أنه سيد الكون.. وأنه قد وصل إلى القمر.. أي أنه وصل إلى كل ما في الكون من ألغاز وأسرار.. مع أن الذي نعرفه قليل جدًا إذا قورن بما لا نعرفه.. فالعالم الإنجليزي نيوتن وصف نفسه بأنه مثل طفل يلهو في الرمال على شاطئ محيط الحقيقة.. والعالم الألماني أينشتاين وصف الذي يعرفه والذي لا يعرفه من أسرار الكون مثل «طابع بريد» وضع فوق مسلة فرعونية قديمة.. فالذي يعرفه تافه، مع أننا نراه واحدًا من كبار العباقرة.. ثم أن هذا البحَّار هايردال حاول أن يعطي لمغامراته هذه صفة مشروعة أو شرعية، فبدلاً من أن يبدو مغامرًا جريئًا أكد لنا أنه مفوض من قبل التاريخ الفرعوني بأن يفعل ذلك.. لأن الفراعنة قد سبقوه إلى عبور المحيط.

على كل حال هو حاول ونجح.. وليست قصته إلا حفلة تكريم أقامها لنفسه.. ولنا أيضًا!

خذ كفي وهات ما عندك !

عندنا أغنية شعبية تقول: (يا عم جوزة من الهند ومركب عليها «غاب».. أنا خدت منها نفس.. والعقل مني غاب.. يا عم ساحر من الهند.. إلخ). والتفسير: كلمة (غاب) هي كوم من الأعواد الإثيوبية يستخدمونها في الجوزة.. وكلمة الساحر الهندي في الأغنية الشعبية هي نموذج للقدرة الهائلة على التخمين بما كان وسوف يكون. أحيانًا يصيب وأحيانًا يخيب؛ ولأن الناس قلقون على مستقبلهم فهم يريدون أن يعرفوا، ويمدون أيديهم لكل من يدَّعي الرجم بالغيب.. ولذلك يقدمون فناجين القهوة لمن يقرأ الفنجان. قال لي صديقي الوزير: ما رأيك؟ قلت: لا مانع؛ فعندي تجارب عديدة في مصر وفي هونج كونج وفي جزر هاواي. والتقينا في الغداء وامتنع الساحر الهندي عن الطعام. لأن الطعام يعكر شفافيته فلا يقوى على استكشاف ما كان وما هو كائن وما سوف يكون.. وبعد الطعام طلب منا أن نتركه وحده بضع دقائق لكي يستعد. أما ما الذي يستعد له أو بالضبط ما الذي يهيئ نفسه له وينشط قدراته فلم نعرف.. لا سألني ولا هو تطوَّع فقال!

قال: امدد يدك. مددتها. وأمسك القلم وراح يرسم مثلثات ومربعات ودوائر، وقال لي: غريبة! أنت لا تصدق في هذا العلم.. علم الكف ـ مع

أنك أسرع من قدَّم لي يده.. أنت ماذا تعمل؟ قلت: طبيب.. أعاد النظر إلى يدي وقلبها ورآها بالطول وبالعرض وقال: لا!! ثم ابتسم وقال: كأنك مثلي تعمل في قراءة الطالع..

قلت: فعلاً أنا أقرأ طالع التاريخ والجغرافيا والنفس والعقل والشعوب.. أنت تقرأ كفًا واحدًا وأنا أقرأ كف الملايين.. أنت أدق ولكني أحاول أن أكون..

سألني: بالضبط ما عملك؟ قلت: عاطل! وعندي فلوس. عاد يقلب يدي وأصابعي وأظافري.. وطلب مني ـ لا مؤاخذة ـ أن أخلع حذائي وجوربي ليرى أصابع القدمين.. وقلّب قدمي إصبعًا إصبعًا، ثم قال بصورة قاطعة: أنت كاتب أو رسام. ولكن أنت كاتب. ولم أحاول أن أضايقه؛ فاعترفت، ثم بادرني بقوله: طبعًا أنت لن تسألني كيف عرفت ذلك؛ فالإجابة عن هذا السؤال معناها أن أحكي لك قصتي مع علم القراءة واستشفاف المعاني الباطنة للأرقام تمامًا كعلم (الجفر) عندكم.. (والجفر هو جلد الماعز). ويقال إن كتبًا باطنية في تفسير القرآن والأحاديث قد ظهرت على أيام علي بن أبي طالب مكتوبة على جلد الماعز. ويقال أنها تحوي أسرار المخلوقات وهي حكاية طويلة.. (خليط من مصدق ومكذب)..

وقلت له: أعطني يدك.. فقدمها لي.. وقلبتها تمامًا كما كان يفعل وقلت له: أنت طبيب أسنان. فوقف الرجل صارخًا: أنت إذن أكبر ساحر في الدنيا. أعطني يدك أقبلها!

وقبلها. وما قلته لا علم فيه ولا فن.. وإنما قلتها مداعبًا. فصدقني.. كما صدقته!

أعجب وأروع الرسائل التاريخية!

هناك أدباء عندهم موهبة المراسلات، بل إن بعضهم تركوا مئات الخطابات إلى زملائهم وأصدقائهم واحتفظوا بها ونشروها في مجلدات بعد وفاتهم.. من بينهم الفيلسوف الوجودي سارتر.. فرسائله مقالات وأبحاث في مجلدات. ولا بد أننا نجد رسائل الأستاذ العقاد إلى الأديبة مي زيادة في غاية التحفظ والأدب والخوف عليها ومنها ومن الناس، وكذلك رسائلها إليه. وقد أعاد الأستاذ العقاد رسائلها إليه.. لتكون في مأمن من النقاد والمؤرخين. وهناك رسائل تاريخية عجيبة، من بينها رسالة لقائد روماني بعثها لعدوه يقول له: إذا دخلت بلادكم فسوف أسويها بالأرض وأقتل الأمهات والحوامل والأطفال والحيوانات والطيور، وسوف تندم على يوم ولدتك أمك، وسوف يحرقك شعبك.. وكان الرد عليه بكلمة واحدة: إذا.. أي إذا جئت إلى بلادنا..

وفي يوم استدعاني أحد الوزراء، ومن بين أوراقه برقية من الأستاذ العقاد لم يفهمها. وسألني، ومعه حق، فالبرقية غير مفهومة. ولكن شرحت له، فقد اتصل سكرتير الوزير يقول للأستاذ العقاد: إن الوزير يحب أن يلقاه في الساعة العاشرة صباحًا، وانتظر العقاد في بيته حتى العاشرة تمامًا، ثم قال لسكرتيره: إذا جاء هذا الوزير قل له إن

الأستاذ ذهب يتمشى، ولم يحضر الوزير، فالعقاد لم يكن يفهم أن الوزير كان ينتظره في مكتبه هو، وليس في بيت العقاد!

أما البرقية فهي: إنما تقاس حضارة الأمم بمدى إحساسها بالزمن. وليس لديكم من ذلك نصيب!

فقد ظن العقاد أن الوزير لم يأت في موعده!

ومن تسعين عامًا سافر أمير الشعراء أحمد شوقي منفيًّا إلى إسبانيا، فكتب إلى شاعر النيل حافظ إبراهيم يقول:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على   عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا

هلا بعثتم لنا من ماء نهركم   شيئا نبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة   ما أبعد النيل إلا عن أمانينا!

فأجابه حافظ إبراهيم:

عجبت للنيل يدري أن بلبله صاد   ويروي ربى مصر ويسقينا

والله ما طاب للأحباب مورده   ولا ارتضوا بعدكم من عيشه لينا

إنها الشيخوخة يا سيدي!

سبحان الله: عندما كانت لنا معدة قوية لم نجد الطعام الكافي. وعندما توفر الطعام افتقدنا المعدة. يعني إيه؟ يعني أنني عندما كنت شابًّا كنت أتناول أي شيء في أي وقت. ولا شكوى من نقص أو زيادة الخبز عن السلطة والسلطة عن السمك والسمك عن الفاكهة فأنا أتناولها بلا ترتيب وبأية كمية. وكثيرًا ما جلست إلى المائدة وحدي، وأكتفي بالسلطة. فإذا جاء الطعام أكون قد بارحت المكان!

كنت في جزيرة مندناو في الفلبين، وسألوني: تأكل؟ قلت: ياريت! وجاء جوز الهند المقشر ومعه بعض السمك الجاف ـ هل كان مقليًّا أو مشويًّا أو كان مدفونًا في الرمل. سألوني: تأكل؟ قلت: أجرب! ولما بدا القرف على وجهي قالوا: تأكل شيئًا آخر. قلت: نعم أجرب..

وجاء البيض الفاسد في طبق نظيف ومعه ملعقة نظيفة. وكسرت البيض ورأيت فيها المحاولات الأولى لجنين بأن يكون كتكوتًا.. أما الرائحة فهي عفونة قوية تشبه عفونة الفسيخ في مصر. قالوا لي: تأكل؟ قلت: أجرب! وندمت على ذلك. ولكن لا بد من التجربة!

وفي مدينة تريفندروم في جنوب الهند أتوا بأوراق شجرة الموز ـ وهي الأطباق التي يضعون فيها الطعام، وكان الطعام من الأرز

وجوز الهند والسكر والبهارات الهندية القوية الرائحة. وقالوا: تأكل؟ قلت: أجرب. وأكلت وندمت. ولكن المهم أنني جربت!

وفي جزيرة بالي الإندونيسية قابلت رجلاً أميركيًا. لم أعرف أنه مليونير يعمل في بناء السفن. طلب مني أن أزوره إذا ذهبت إلى هونج كونج. وأرسل لي سيارة رولزرويس لكي أتناول عشائي معه.

ونزلت المدرج الطويل وعلى الجانبين شموع في أيدي صينيات جميلات. وكنت أتمنى أن أكتفي بهذه الفرجة المثيرة. ووجدت الصديق في انتظاري على ضوء الشموع. وعانقني – وكرهت هذا الترتيب في الحفاوة.

وقال لي: تأكل؟ قلت: أجرب. قال: هل تعرف ما سوف تأكل؟ قلت: سوف آكل من الذي تأكل منه أنت وزوجتك وابنتك.. قال: أوكي! وبعد دقائق سألني: ما رأيك؟ قلت: لا بأس.. قال: هل تعرف ماذا أكلت؟ قلت: لا.. وقال بمنتهى الهدوء: إنه مخ قرد صغير!

بالله عليك كيف لا أفزع؟ وأن أحشائي في حالة عصيان وهتافات في أعماقي بسقوطي مجرمًا في حق نفسي.. ومنذ أيام طلبت صديقًا لي في نيويورك.. إنه طبيب أثق في مهارته وهو زميل الدراسة وصديق العمر.. قلت: قل لي يا فريد أنا الآن في مزرعة صديقنا وعلى المائدة ملوخية وبامية وأغلب الظن أن فيها بقايا لحوم ودهون.. وأنت تعرف أنني نباتي، فهل هناك أي خوف على معدتي وأمعائي..

وأجاب.. هنا تأكدت تمامًا أنني تقدمت في السن، وأن الخوف قد دخل حياتي وأنني أتوكأ على العقاقير ـ لا مرضًا فقط إنما وسوسة أيضًا!

مسافر بلا أي شيء !

أنا المسافر بلا حقائب ـ أو بلا أي شيء غير ملابسي ـ حدث ذلك سنة 1962 عندما سافرت مع القوات المصرية إلى الكونغو في طائرة حربية أمريكية وحولي المدافع والقنابل المصرية لاستخدامها عند اللزوم في غابات الكونغو لحماية ثورة الرئيس لومومبا ـ وتحت علم الأمم المتحدة.. وكان من نصيبي أن أجلس في سيارة جيب في عكس اتجاه الطائرة! وأمضيت في الكونغو يومًا واحدًا!

ويوم سافرت حول العالم لمدة 228 يومًا بلا توقف، كانت معي حقيبة واحدة بها ورق وقلم وملابسي الداخلية ليوم واحد. وكلما احتجت إلى تغيير ملابسي اشتريت ملابس جديدة لتبقى حقيبتي خالية ولا تدل على صاحبها! وعندما عدت إلى القاهرة في يناير سنة 1960 كانت الرحلة قد بدأت في يونيو سنة 1959 سألني موظف الجمارك إن كانت معي حقائب، فقلت: ولا واحدة! ولم يتسع الوقت لكي أحكي له قصة حياتي مع أطول رحلة قام بها كاتب في التاريخ. ولا أعرف كم مرة سافرت بعد ذلك. وكل الذي أذكره أن لديَّ 37 جواز سفر قد امتلأت بالتأشيرات ذهابًا وإيابًا! ومنذ أيام سافرت إلى

المنصورة ـ بلدي الذي يبعد عن القاهرة 150 كيلومترًا ـ وليوم واحد. واندهشت جدًا لوجود عدد من الحقائب. ثلاث حقائب! ولكن لماذا؟

هناك حقيبة اسمها الصيدلية: ففي هذه الحقيبة كل العقاقير الخاصة بالبرد والزكام والسعال. أقراص وحبوب وسوائل. وكل العقاقير الخاصة بالإمساك والإسهال والمغص.. وحقيبة أخرى بها كل الملابس الصوفية.. جلباب صوف وبلوفرات صوف تحت الملابس الخارجية وفوقها.. ومن النادر أن أستخدم كل هذه العقاقير؛ فليس هناك وقت ولا خوف من البرد. وحتى لو كان هناك برد ففي بلدنا عشرات الأطباء الأصدقاء والأقارب. ولا خوف من أي شيء! ولكن الخوف أصبح عادة وكذلك الوسوسة. ومن الغريب أنني في رحلتي حول العالم لم أصب إلا مرة واحدة بالزكام. وكانت العدوى من (الدلاي لاما) الذي كنت أول من أقابله بعد فراره من التبت إلى جبال الهملايا.. ويكفي أن أتوهم لتنتقل العدوى إلى كل جهازي التنفسي. وأنا في سباق مع الموسيقار محمد عبدالوهاب. مرة يسبقني إلى الزكام ومرة أسبقه إلى العطس.. ومرة أسبقه في اكتشاف عقاقير جديدة في فرنسا، ويسبقني إلى معرفة عقاقير جديدة في أمريكا. وأنا أسبقه إلى تحذير أم كلثوم منه، أو يسبقني هو في تحذير طه حسين.. ويعتمد عبدالوهاب في معلوماته عن العقاقير على صديقه الأمير بدر بن عبدالعزيز وأنا أعتمد على العالم فاروق الباز.. وتنتهي المباراة السنوية إلى صفر لحساب عبدالوهاب وصفر لحسابي أنا، فكل هذه العقاقير لم تفلح في إنقاذنا من الزكام والسعال!

هل أتاك حديث البراغيث والصراصير ؟!

أتحدث عن الذي جرى في مصر. ولا أعرف هل أصاب البلاد الشقيقة شيء من هذا الهزل والتفاهة.

لقد ابتلينا في شهر رمضان المبارك بنوعين من الناس ليس أحدهما أسوأ من الآخر: الطهاة وبعض الدعاة!

أما الطهاة فهم يحدثون سيدات البيوت عن الذي يجب أن يضعنه في المائدة في رمضان مع أنه لا مكان لطعام جديد؛ فعلى المائدة: السخن والبارد والحار والحلو والخضراوات واللحوم والأسماك والحلويات.. وكلها نحشرها في مكان واحد. وتصاب الأمعاء بعد ذلك ونترامى ونتساقط أمام التليفزيون نلاحق المسلسلات المصرية على كل القنوات..

وأنا أتابع برامج الطهاة وأشعر أن هناك صلة بين الكاتب وبين الطهاة.. فنحن جميعًا نحاول أن نقدم شيئًا مفيدًا لذيذًا من مفردات مختلفة، نضعها ونقدمها سائغة لكل الناس. أحيانًا أشعر أن الأكواب والأطباق كلمات فارغة نملأها بالمعاني.. وأحيانًا أجد الأطباق ليموج والملاعق والسكاكين كريستوفل والأكواب كريستال ولكنها قد

امتلأت بالطعام السخيف أو بالكلام الفارغ.. وأحيانًا أجد الأطباق بسيطة والطعام أيضًا، لكنها لذيذة، وكذلك صناعة الكلام. وهناك طعام نشبع منه حتى لو لم نأكله.. طعام نشبع منه بلا أكل. وطعام نأكله بلا شبع!

أما الدعاة فهم الذين يستحقون العقاب. ولا أعرف عددهم. ولا أعرف من الذي دعاهم إلى الدعوة. والدعوة إلى ماذا؟ إلى ما لا يخطر على البال؛ فقد انفردوا بموضوعات غريبة عجيبة. هل هذه الموضوعات قد وضعوها واستدرجوا الناس إلى السؤال عنها.. كثيرون من الفنانين زمان كانوا يبعثون بخطابات إلى الإذاعة والتليفزيون يطلبون أغنياتهم الجديدة.. وكانت الخطابات يقوم بإرسالها عدد كبير من رجالهم في كل محافظات مصر والبلاد العربية.. فبعض القضايا التي يسأل عنها المستمعون غريبة وشاذة وكلها موجودة في كتب التاريخ والسير.. ولكنها تلفت النظر إلى السائل والمسئول!

مثلاً: حديث عن أبي هريرة عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم سألوه: وهل قتل البراغيث حلال أو حرام؛ فقال: بل حرام لأنها توقظ النائمين إلى صلاة الفجر!

وقد قرأت أنا بعيني تعليقًا على هذا الحديث وفي نفس المكان أنه حديث كاذب وأنه مفبرك. ومع ذلك وجد من يعثر عليه ويقدمه ويشغل الناس به.

وفي رواية أخرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما حرّم البراغيث قال عمر بن الخطاب أنه أمضى ليلته متهجدًا.. أي لم ينم لأن البراغيث تلسعه وقتلها حرام!

هل هناك ما هو أسخف من ذلك؟ طبعًا هناك ما هو أسخف وهو: هل نقتل الصراصير أو لا نقتلها؟!

أجدادنا ليس لهم أحفاد !

يظهر أن الفراعنة حريصون على أن يخططوا مستقبلنا أيضًا، ففي كل يوم يكتشف العلماء شيئًا جديدًا. ويكون التعليق على الجديد: أن الفراعنة كانوا أول من استخدم السكاكين وأمواس الحلاقة.. وأدوات التجميل.. وأول من كتب الكلمات النابية بحبر أحمر.. وأول من وصف الإنسان الغبي بأنه حمار.. وأول من وصف المرأة بأن لسانها طويل لكثرة استعماله.. وأول تلميذ زوغ من المدرسة في التاريخ كان فرعونيًّا.. وأول من وصف شربة الزيت كعلاج لكل مرض.. لأن المعدة بيت الداء.. وأن الامتناع عن الطعام أثناء المرض شفاء لها.. وأول من سرق ملابس الفتيات أثناء نزولهن إلى النهر كان فرعونيًّا..

وأول من تزوج أخته وأمه، وأول من أكد أن زواج الأقارب يؤدي إلى ضعف الأبناء والأحفاد وإصابتهم بالبلاهة.. وأول من قال إن أبناء الدم الواحد يجب ألا يتزوجوا.. وأول من اخترع التحنيط.. واهتدى إلى سر بقاء الموتى ألوف السنين.. وأول من قام بعملية «تربنة» لها.. وأول من صنع طقم الأسنان والكباري الذهبية بين الأسنان والضروس.. وأول من نصح التلميذ بألا يقرأ كتابًا وهو نائم

على ظهره.. وأول من طلب إلى القارئ بأن تكون هناك مسافة بينه وبين الورق الذي يقرأه..

وأول رجل طلب من زوجته ألا تذهب لأمها كان فرعونيًا..

وفي الحقل: كان الفراعنة أول من استخدم السفن التي تحمل خلايا النحل بالملايين.. ثم ينتقلون بالسفينة من مدينة إلى مدينة.. وكان النحل يقوم بعملية التلقيح للزهور في الحقول.. وفي أمريكا الآن شركات تؤجر ملايين النحل لأصحاب الحدائق !!

ويقال إن الفراعنة هم من سلالة جاءت من كواكب أخرى،ويقال إن الفراعنة لديهم أسرار الكواكب الأخرى.. وأن المؤرخ اليوناني هيرودوت عندما كان في مصر حدثه الفراعنة عن أن الكهنة لديهم أسرار أناس جاءوا من السماء.. وأن هذه الكائنات السماوية قد صنعت المعجزات المعمارية والهندسية والطبية في مصر.. وأنهم كما جاءوا من الغرب عادوا إلى الغرب وإلى قمم الجبال.. وأنهم جاءوا بسفن من نار.. وأنهم عادوا إلى مكانهم من الشمس والقمر!

هل يريد الفراعنة أن يؤكدوا لنا: أن لنا أجدادًا.. وليس لهم أحفاد وأنهم أطول عمرًا؟

وأنهم أمامنا.. دائمًا!

قل: يا ليل.. أقل لك: الله!

لا أعرف معنى «صوت جديد» و«صوت قديم».. لا أعرف معنى أدب أخلاقي وأدب لا أخلاقي.. الذي أعرفه هو أنه صوت جميل أو ليس صوتًا.. أدب أو ليس أدبًا.. فعلى شبكات التليفزيون أغنيات إعلانية جميلة الكلمات والصوت، وليست طربًا، ولكنها جميلة الصوت والكلام والأداء. وهناك أصوات أخرى تغني شعرًا جميلاً، ولكن الصوت إهانة للشعر، فالكلام حلو والصوت قبيح. في مصر مثل يقول: الصوت كروان والوجه غراب نوح ـ أي الصوت جميل والوجه قبيح.. أو الوجه جميل والصوت نعيق غراب نوح!

عندنا، وفي كل البلاد، شبان يغنون ويرقصون، هذه لغة العصر. إما أن نقبلها أو نرفضها. أنا شخصيًا أقبلها؛ فكوني لا أعرف الرقصات الحديثة لا يعني أنها قبيحة وأنها خارجة. والحقيقة أنني عاجز عن الرقص.. وقديمًا عندما حاول الثعلب أن يأكل العنب ولم يستطع، قال: إن العنب مر.. ولم يكن مرًّا وإنما المرارة هي عجزه عن بلوغ عنقود العنب.

والشباب عندنا يبدأ عادة بأن يغني لعبدالوهاب وعبدالحليم وفريد.. ونقول له: الله.. لأنه قريب في الصوت والأداء، والفتاة تغني

لأم كلثوم وفيروز وشادية وفايزة ونجاة ونقول لها: اللّـه! فقد اقتربت من صاحبات الصوت الجميل رموز الغناء والطرب في دنيا الفن الرفيع!

لا بأس. والخطوة التالية أن يغني المطرب ألحانًا جديدة، من كلمات وألحان شباب في مثل سنه؛ فهم جميعًا أبناء زمن واحد.. ولغتهم واحدة. ونرى لهم صدى بالملايين. إذن هذه الأصوات الجديدة جاءت لتعيش بالشباب ولهم ومعهم. وبما أن الشباب متقلب المزاج فسوف تنقلب هذه الأصوات أو سوف ينقلبون عليها. فما رأيك؟ أنا موافق.. فهؤلاء هم الشبان، ولو عدنا إلى مثل سنهم ما فعلنا غير ذلك؛ فالذي ننكره اليوم لم نكن ننكره بالأمس!

الأغنيات الشبابية تظهر فيها المطربة جميلة الجسم، وليس صوتها بتلك الدرجة من الجمال. إذن أداؤها الجميل وإطارها الفني يعوضانها ويعوضاننا عن الطرب. ما رأيك؟ أنا أقبل؛ لأن هذا ما تستطيعه. يعجبك أو لا يعجبك؟ هذا شأنك. ولكنه نوع من الفن إلا قليلا. وهي لغة العصر أيضًا. فالشباب يرقص أولًا ويغني ثانيًا.. وأنت كلك نظر، وإذا لم تسعدك الأذن تسعدك العين!

أكثر المطربين من الجيل الأقدم قليلاً أطلقوا أصواتهم لأول مرة في بيتي. وكنت أول من يصفق وأدعو الآخرين إلى ذلك. تغيروا وتغيرت الدنيا. وتنحوا قليلاً لتظهر فراشات ودبابير من طراز آخر غريب! إنها طبيعة الأشياء!

كالسلحفاة أو الكلب !

كنت أتسلل من المحاضرات وأذهب إلى حديقة الحيوان لأسباب خاصة جدًا لم أستطع أن أطلع أحدًا عليها؛ فقد كنت أريد أن أعرف كيف تتم العمليات الجنسية بين الحيوانات. فالثعابين تلتف حول بعضها البعض وتعتصر. وعند الأسد كما عند البط والديوك تستغرق العملية دقيقة.. وفهمت لماذا تحاول أنثى الأسد أن تغريه وتثيره وقتًا طويلاً لأنها تعرف أن العملية الجنسية لا تزيد على دقيقة.. وأدركت فيما بعد أن السبب الحقيقي لهذا الاهتمام الغريب ليس العلم وإنما حب الاستطلاع.. ولم أذهب إلى أبعد من هذه الملاحظات.. وفي مرحلة أخرى انشغلت بقصة أخرى أكثر حيوية: كيف تنام هذه الحيوانات.. بعضها ينام واقفًا، وبعضها يغفو. وبعضها لا هو نائم ولا هو يقظان.. والذي أدهشني هو السلاحف. ففي العملية الجنسية يظل الذكر يعتلي الأنثى أيامًا فلا نعرف إن كان نائمًا أو هو قد مات.. أما الطيور فهي تنام وتفتح عيونها.. ففي لحظات مكثفة تكون قد استراحت.. وطيور الحدائق غير طيور وحيوانات الغابات، ففي الغابة يكون نومها هو موتها لأن هناك حيوانات أخرى تتربص بها، فقد اعتادت أن يكون نومها في لحظات يعادل نومها في ساعات!

ولا بد أن الإنسان كان كذلك؛ ففي سنوات الغابات كان النوم مصيدة للموت. ولم يعرف الإنسان النوم على جانب واحد وبعمق إلا عندما صار له مسكن له أبواب ونوافذ. ولم يعد يخاف من الحيوانات المفترسة.

حتى بكاء الطفل. ولا بد أن الطفل أيام كان في الغابة، إذا بكى تأكله الوحوش.. ولا بد أن الأم قد كتمت صوت ابنها ألوف السنين حتى لا تهتدي إليه الوحوش؛ فأطاعها، فلما صار للأسرة بيت وباب ونافذة راح الطفل يبكي على راحته آمنًا مطمئنًا - وأبواه أيضًا!

وحاولت أن أضع لنفسي مكانًا بين هذه الحيوانات فأنا لا أنام مثل السلحفاة ولا مثل الأسماك التي تفتح عيونها وزعانفها وتنام في حراسة بيولوجية إلكترونية.. ولا أستطيع أن أطبطب على كلبي.. الذي لا يكاد يضع رأسه على جزمتي حتى ينام ويكون لنومه صوت مرتفع.. وأتمنى لو فعلت مثله ووضعت جزمتي تحت رأسي بدلاً من المخدة! ولا أعرف أين يوجد هذا الأمان والاطمئنان الذي يفيض على كلبي.. إذن فاقد الشيء يعطيه: فأنا الذي لا أعرف كيف أنام، أمنح كلبي كل هذه السعادة!

وعند الإغريق أسطورة الولد الحليوة (امديوه) أحبته إلهة القمر سلينا؛ فحكمت عليه بالنوم الأبدي في أحد الكهوف وأنجبت منه خمسين بنتًا. لقد حبسته في كهفين: هذا الكهف والنوم.. ويقال إن هذا الحليوة قد أحبته إحدى عشيقات زيوس كبير الآلهة عند الإغريق؛ فعاقبته بالنوم إلى الأبد. فإذا اقتربت منه المعشوقة وجدته ولا هو هنا!

الأغنية المصرية تقول: فتح الهوى (الهوا) الشباك والنوم طار مني.. وأنا لا فتحت شباكًا ولا طاردت هوى ولا تنسمت هواء.. والنوم طار.. أطلب من اللّـه ولا يكتر على الله نوم سلحفاة.. مرة واحدة كل شهر!

نادرًا ما أرى القمر!

كنت إذا نظرت إلى القمر في السماء أدوخ.. وأدوب.. وأتحول إلى بخار وأتمنى لو أن قوة سحرية جمعتني في زجاجة ثم وضعت الزجاجة في فوهة مدفع إلى هناك، وتكسرت الزجاجة على سطح القمر وخرجت منها.. ويكفي أن أخرج فقط من دون أن أفعل أي شيء.. أي المهم ألا أكون هنا.. بل أكون هناك.

أما الآن فتمضي أيام وليال وشهور ولا أرى هذا القمر.. وإذا رأيته فإنني أنسى أن أنظر إليه، أو إذا فكرت فإنني أقول: إنه حقيقة علمية أنه يظهر في هذا المكان من السماء صغيرًا ثم يكبر ويعود بعد ذلك صغيرًا..

والذي أراه في القمر الآن أراه أيضًا في كل وجه.. بل إنني أحيانًا لا أرى الوجوه بوضوح.. كأن رؤيتها لا تتغير.. إنني أحيانًا أستعين بالصوت على معرفة أصحاب الوجوه، إنني أفتح عيني ولا أرى، وإذا رأيت فإنني أرى وجوهًا كالقمر، أي كما أرى القمر، على أنها حقائق اجتماعية فقط. ومثل القمر: الشوارع والأطباق والصحف والكتب والأسطوانات والأمواج والأشجار ووجهي أيضًا! فكل شيء عبء، والتخلص منه هدف.. فنجان القهوة أراه فأضعه في فمي بدون أن أتذوق له طعمًا.. كأنني أتخلص منه!!

كل طعام، كل شراب، كل كلام، كل وجه، كل صوت: عبء على الحواس الخمس.. وهذه الحواس لا تستريح بابتلاعه أملاً في أن أقوم بمهمة خطيرة جدًا.. ولكنها في نفس الوقت مهمة آلية.. هي أن أخفي هذا الفنجان في بطني كأنه معالم جريمة.. فإذا احتسيت الفنجان بحثت عن غيره.. إنني أقوم بعملية نقل ماء الحنفية ونقل اللبن والسكر إلى داخلي.. انتهت المهمة اليومية.. وتسترت على الجريمة الوهمية!

حتى التخلص من هذه الأعباء وهم أيضًا.. لأنها أعباء لا تنتهي إلا كأننا نريد أن نموت.. نأكل ونشرب كأننا موتى قبل أن نموت.. كأننا نسهل مهمة الموت بعد ذلك!

فما الذي أصاب الأشياء حولنا.. ما الذي أصاب القمر والشجرة والثمر والزهر والأعشاب والوجوه؟ لا شيء أصاب شيئًا! وإنما الأشياء هي التي أصابتنا «بطحتنا» دوختنا.. فلم نعد قادرين على تذوق شيء.. والشاعر صدق عندما قال:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

فلا تتهم قمرًا ولا ثمرًا.. ولكن اتهم العين المفتوحة ولا ترى.. والفم المفتوح ولا يتذوق.. والقلب الذي يدق في صحراء.. والعقل الذي يمسك سحابة.. انظر إلى نفسك في المرآة وقل: إنني أتهم هذا الوجه!

في هذا الكون : أنت ولا حاجة !

أكد لنا علماء الفلك أن الكرة الأرضية وما عليها من حضارة إنسانية ومعارك من أجل الفلوس والسلطة ليست إلا حروبًا دامية على ذرة رمل ملقاة في إستاد القاهرة، يعني أن الكرة الأرضية بالنسبة لهذا الكون الذي نعرفه هي بهذا الحجم. ونحن بهذا الوزن.. يعني أن نختشي على دمنا ونتواضع لأننا لا نساوي شيئًا في هذا الكون.. وأنه من الممكن القضاء علينا وبسهولة وفي أي وقت.. أما القضاء علينا فليس أسهل منه.. كأن نقترب من الشمس أكثر فيختفي كل شيء على الأرض وتتبخر المياه من المحيطات والأنهار.. وتصبح الأرض مثل القمر والمريخ كرة من الموت.. مقبرة للإنسانية.. وقد جربنا شيئًا من ذلك من حوالي أربعين مليون سنة.. عندما سقط على الكرة الأرضية أحد النيازك - أي الكتل الحجرية الكبيرة المشتعلة.. فماتت كل الديناصورات وغيرها من الحيوانات الكبرى التي احتلت سطح الأرض حوالي 60 مليون سنة!!

أو تتطوح الكرة الأرضية بعيدًا عن الشمس فتتجمد فيها المياه والحياة وتصبح الكرة الأرضية كرة من الجليد.. وتنتهي كل هذه الروشة الإعلامية والتلوث الهوائي والصوتي والضوئي.. ويجيء

الجليد أكفانًا على جثث ألوف الملايين من البشر والحيوانات وأضعاف أضعافها من النباتات.. ولا تبقى إلا الميكروبات يأكل بعضها بعضًا!

وكأننا لا نزال في حاجة إلى من يقول لنا: يا أيها التافهون اسكتوا، فقد أشار علماء الفلك إلى أن هناك أكوانًا أخرى غير هذا الكون الذي نعرفه.. ألوف الأكوان أو ملايين الأكوان..

يعني بمنتهى الاحتقار: بدلاً من أن نكون ذرة في إستاد القاهرة أصبحنا ذرة ملقاة على جميع الإستادات التي في الدنيا بشرط أن نضع هذه الملاعب الواحد إلى جوار الآخر!!

يعني إيه؟ يعني أرجوك بعد قراءة السطور السابقة تدلني من فضلك أين أنت شخصيًا من هذه الذرة؟ وأين رئيسك ورئيس رئيسك وأين أساتذتنا وحكماؤنا وعلماؤنا.. وقضايانا في كل هذا الكون الهائل؟ وإذا أجبت عن هذا السؤال - أقصد جرؤت أو أي أحد غيرك - فأرجو أن تكتب الردَّ وتلقيه في أي صندوق زبالة لأنني لست مستعدًا أن أسمع منك كلامًا لا معنى له..

فإن كان كلامك مثل كلامي، فقد عرفته مقدمًا.. ووفر على نفسك الورق والحبر.. فأنا وأنت ندري بالضبط تفاهة عالمنا ودنيانا من أول ما أقام الإنسان بيتًا من القش إلى أن أقام مدينة تدور حول الأرض.. يعني إيه؟ يعني: أنت وأنا ونحن ولا حاجة في هذا الكون.. ولا هذا الكون خاصة بين هذه الأكوان التي لا أول لها ولا آخر ولا بداية ولا نهاية!

اضحك ليطول عمرك!

الضحك يطيل العمر ـ رأي عدد من علماء النفس والأطباء؛ لأن الضحك يخفف التوتر ويعيد النظام إلى الدورة الدموية والجهاز الهضمي والتنفسي؛ فلا شيء يقصف العمر مثل التوتر والاضطراب وأزمة التنفس وتقلص المصران الغليظ.

ويروي الأطباء أن بعض المرضى الذين أصيبوا بإغماء طويل بسبب السكر تحسنت حالتهم بعد أول نكتة. ويضربون لذلك أمثلة كثيرة!

ولكن عددًا كبيرًا من الذين يبعثون على الضحك لم تطل أعمارهم. بل إنهم مرضى أو ماتوا في سن صغيرة: نجيب الريحاني وإسماعيل ياسين ومحمد رضا وماري منيب وعادل خيري.. ولا يزال سيد زيان ويونس شلبي طريحي الفراش!

والسبب هو أن الممثل الكوميدي الذي يضحك الناس كل ليلة، هو نفسه لا يضحك، وإنما هو يعمل ويفتعل.. وعمله شاق والافتعال مرهق للأعصاب أيضًا، ثم إن حياة الفنانين مضطربة مرتبكة، فهو ينام طول النهار ويسهر طول الليل. ويلتقي غداؤه وعشاؤه وإفطاره في وقت واحد. وبعضهم يدخن بإسراف.

فقد كان الفنان القدير أمين الهنيدي ممثلاً لعدد من مسرحياتي، وفي إحدى هذه المسرحيات واسمها (مين قتل مين؟) كان هنيدي يظهر على المسرح طول الوقت ولا يغيب لحظة واحدة فشكا وبكى.

قليلون جدًا من الممثلين المضحكين تنبهوا إلى ذلك وعدلوا عن التدخين والمخدرات قبل فوات الأوان. وتحسنت الصحة والضغط وإيقاع الحياة.

وكان كثيرون يعتقدون أن أستاذنا العقاد رجل متجهم، لا يضحك وإنما يوجع الدماغ والقلب معًا. والحقيقة أنه كان يضحك كثيرًا. وكان يسبقنا إلى النكت الجديدة، فكان يقول: قل لنا نكتة يا مولانا! وأقول، وغيري أيضًا. ولكنه يضحك عاليًا ويقول: هذه قديمة.. أنا أقول لك النكتة الجديدة. وكان يقول، ونندهش كيف تصله النكت الجديدة!

وكان الرئيس السادات في قلب المناقشات السياسية الجادة يلتفت ويسأل: إيه آخر نكتة؟ وكنت أقول، وغيري أيضًا. وكان هو يقول، ويجدها مناسبة لتغيير مسار الحوار وتخفيف وطأة القضايا السياسية التي تحرق الأعصاب.

والتاريخ الإغريقي يذكر لنا قصة الفنان زويكس الذي رسم لوحة واحد يضحك، فلما فرغ منها راح يضحك حتى مات من الضحك! تمامًا كما يموت الإنسان من شدة الفرح أو من شدة الحزن!

مكتوب على قدميك!

عندما كنت في إندونيسيا سنة 1959 اكتشفت (تحضير الأرواح) عن طريق السلة. وكتبت عنها وانتشرت في مصر والعالم العربي.. وكانت محرمة في إندونيسيا، وبعد أن كتبت الصحف ووكالات الأنباء عن انتشارها من المحيط إلى الخليج عادت إلى إندونيسيا!

وعندما ذهبت إلى هونج كونج عرفت أن رجلاً صينيًا يستطيع تحريك السلة بعيدًا عن أيدينا.. فأنت تقرأ كلامًا يكتبه لك فإذا السلة تتحرك. كيف؟ لا أعرف. ولكن هذا ما حدث.. ثم إنني لا أعرف حتى الآن كيف كانت السلة تتحرك في أيدينا وقد وضعنا قلمًا في مقدمة السلة وتحت القلم ورقة. وكانت السلة تتحرك وتكتب بلغات مختلفة. ويكون الذي تكتبه صحيحًا. هذا مؤكد. ولكن كيف؟ هذا موضوع آخر..

وأدهشني الرجل الصيني في هونج كونج. إنه أيضًا يقرأ الفنجان - لا فنجان القهوة وإنما فنجان الشاي.. فتراكم أوراق الشاي الصغيرة على جدران الفنجان تشبه تراكم البن في الفنجان. ويقول. والكلام صحيح: كيف؟ ليس عندي إجابة إلا أن أقول لا أعرف. والسيدة التي تنبأت بمقتل الرئيس السادات ذهبتُ إليها في مدينة حيفا. وسألتها كيف عرفت؛ قالت: إنها قرأت كف السادات لأنه وهو يحيي الجماهير

كان يرفع كفيه في الهواء، وقد رصدت كف الرئيس. ولما جاءت إلى القاهرة طلب مني بعض الأصدقاء مقابلتها فكانت تستعين على معرفة الطالع والنازل عن طريق (الطاروط). وهي أوراق كوتشينة كبيرة. وكان الطاروط معروفًا أيام الفراعنة.. ثم قراءة خطوط الكف ثم فنجان القهوة. وعن طريق ذلك من النادر أن تخطئ.. وقد قالت لهم الكثير وأفزعتهم، وقد صدقت معظم نبوءاتها. كيف؟ والجواب: لا أعرف!

ولما قابلت زوجة رئيس إسرائيل حاييم هرتسوج - وهي مصرية - قالت لي: هات كفك. وأعطيتها، وقالت لي: إنني سوف أحصل قريبًا على أكبر جائزة في مصر بعد أسبوع. وقد حدث. وقالت: سوف تجيء لك جائزة أخرى من بعيد. وقد حدث أن اتصل بى سفيرنا في الهند عمرو موسى وقال لي: إن البرلمان الهندي منحك جائزة الإبداع الفكري لدول العالم الثالث، وقد تسلمها نيابة عني. فكيف عرفت كل ذلك؟ والجواب هو: لا أعرف!

وأخيرًا صدق أو لا تصدق؛ جاءني عرَّاف هندي وقال لي: اخلع نعليك. وخلعت. وقال: اخلع جوربك. أرني قدميك أقرأ لك الطالع!

ومن تجاعيد الإصبع الكبرى والقدم استطاع الرجل أن يقول كلامًا عجيبًا. أما الشرح الذي قدمه لي فلا يهم. والمهم أنه عرف وذكر أشياء دقيقة. وانتهى عصر (المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين) وبدأ عصر (المكتوب على قدميك لازم تشوفه على الجبين وفي الكفين) إزاي؟!

كنا .. ولكن كيف لم نكن ؟!

كنا - أي أننا كنا ولم نعد. ولكن لا شيء يبدأ في القلب وينتهي.. وإنما الذي يبدأ في العقل أيضًا. إذن كنا - أي أننا ما نزال.. كنا طفلين. ولا أحد منا يعرف الفرق بين الولد والبنت.. ولا معنى الذكورة والأنوثة. كنا نجلس متجاورين. ونتقارب أكثر وأكثر، وبس. وأحاول أن أتذكر ماذا كنا نقول؛ فقد كان شيئًا يلفت العين والأذن. ولم نكن في حاجة إلى كلام. لا أنا أقول، ولا هي. وكنا عندما ينادي علينا أحد.. على أي واحد منا، كنا نقوم معًا، ونذهب معًا، كأننا مربوطان بخيوط سحرية. ولم نكن نعرف هذا المعنى. لا أنا عرفت، ولا أحد قال لي؛ فلا أحد قال لي شيئًا لأنني لم أسأل. وأنا لم أسأل لأنه لا شيء غريبًا في أن نكون معًا جالسين، واقفين، آكلين، شاربين.. عائدين، كل واحد إلى بيته. ولكن لماذا لا نعود إلى بيت واحد وفراش واحد. ولم تكن أمي تقول لي شيئًا. ودون اتفاق بيننا يخرج كل منا من بيته في وقت واحد. ونمشي معًا دون كلام ونجلس تحت شجرة متجاورين متلامسين. ولا كلمة. وقد تمضي ساعة وساعتان، ويغلبنا النوم. هل الناس يندهشون لذلك. لا أعرف..

لم أعرف إلا في وقت متأخر أنها أختي.. وأنها من أب آخر. ولم أفهم معنى أن تكون أختي. وما الفرق بين أختي وبين أية فتاة أخرى. وإذا كانت أختي فلماذا لا تجيء إلى بيتنا أو أذهب إلى بيتها. لماذا تؤكد أمي دائمًا: كفاية كده!

يعني أننا كنا معًا طوال اليوم. وهذا يكفي.. وكنت مشغولًا جدًّا بأختي هذه وأنا لا أعرف معنى الأخوة أو معنى أن نكون معًا، أو لا نكون معًا. كيف يقسو علينا الناس فلا أحد يقول، ولا أحد يبصرنا. ولماذا يتركوننا هكذا مأخوذين مسحورين.

منتهى القسوة أن تقول لي أمي في عبارة واحدة كانت مثل رصاصة سددتها إلى قلبي وإلى حياتي الصغيرة: إنها ليست شقيقتك. ولم أعرف معنى كلمة الشقيقة. وبمنتهى القسوة أوضحت لي أمي ذلك.. هل عبارتها سكين.. هل هي سيف قاطع.. هل هي مصنوعة من الحديد والنار؟ ولكن لماذا؟ معذورة أمي فهي لا تعرف بالضبط ما الذي في داخلي ولا الذي في داخل أختي. إننا لم نعرف الكلام، وظللنا نعرف الصمت البليغ لطفلين صغيرين في غاية الصفاء والنقاء.. مشاعر لم تعرف التقسيم والتصنيف. مشاعرنا الجميلة. فيض من المشاعر الصامتة..

ومضت السنوات وأنا أبكي أختي هذه. وهي الحب الأول والحقيقي في حياتي. لقد افتقدتها كثيرًا. وتمنيت لو أنها بقيت.. ولا أعرف ما الذي كنت أفعله لو بقيت. وإنما فقط أن تكون هناك.. على مسافة

مليمترات مني. لا هي تقول.. ولا أنا؛ فصمتنا بليغ. والكلمات أدوات لا نحتاجها. فالذي نحسه أبلغ وأروع وأجمل.

واليوم بالتمام والكمال يصادف ذكراها الستين.. حزني على جمالها وشبابها وصدقها ووجودها لا يخبو ولن يموت إلا معي!

هناك فراغات هائلة تحت تحت!

كان حدثًا علميًّا جليلًا عندما استطاع اثنان من العلماء هما: هان واشتر اسمان ـ تمزيق الذرَّة.. أو انشطار الذرة، وأن الانشطار المسلسل يؤدي إلى قوة جبارة هي أساس القنابل الذرية، وكان ذلك من سبعين عامًا!

أما اليوم فالذرَّة يمكن تمزيقها إلى ألف وإلى مليون جزء، كما أن حركة الانشطار هذه يمكن رصدها وقياسها حتى لو كانت حركتها واحدًا على مليون من الثانية. كيف؟ هذا ما حدث ويحدث كل يوم. وفي مثل هذه الأيام من سنة 1959 أعلن العالم الأمريكي ريتشارد فايتمان أن هناك فراغًا عظيمًا تحت.. أي في عالم الذرّة. لأنه ممكن تقسيمها وتحريكها بصورة لم يكن يتصورها أحد، وأن هناك مقياسًا جديدًا هو الميكرومتر ـ أي واحد على مليون من المتر.

ولكي تكون الصورة أوضح انزع شعرة من رأسك؛ فهذه الشعرة قطرها مائة على مليون من المتر، أو هو واحد على أربعين مليون من البوصة، وأن البكتيريا عبارة عن واحد على مائة من الميكرومتر، أي واحد على مائة من المليون، وأن فيروس الزكام هو عشر هذا الحجم، وأن طبقة البروتين التي تغطي هذا الفيروس قطرها عشرة على مليون من المتر.

وهذا العلم ـ علم القياسات الضئيلة جدًا ـ اسمه نانو ـ تكنولوجي. وقد ابتكر هذا الاسم العالم الأمريكي نوموتايتجوتشي سنة ,1974. وهو علم الفراغات التي لا يمكن رؤيتها وإنما رصدها فقط. وتقوم بالرصد أجهزة خرافية الدقة. فما الفائدة؟ الفائدة أن هناك علومًا تطبيقية لصنع أجهزة دقيقة جدًا لإدخالها في الجسم الإنساني لقياس حركة الدماء والأعضاء.. وهناك أجهزة لقياس الميكروبات والفيروسات وانقسامها وتكاثرها في داخل الجسم الإنساني أو خارجه والبحث عن طرق للوقاية منها أو القضاء عليها.. ثم إن البحث في علوم الفلك يتكلف كثيرًا جدًا؛ فالأجهزة دقيقة وأوزانها ثقيلة، وهي بالغة التكاليف؛ ولذلك لا بد من صناعة إنسان آلي صغير جدًا ودقيق جدًا.. يدفعه ويرفعه إلى فوق فوق ويلقي به فوق الكواكب وفي الطريق إليها وبعيدًا عنها.

أي أننا سوف نبعث بهذه الأجسام الصغيرة الدقيقة إلى ما وراء المنظومة الشمسية دون خوف عليها ودون أموال فادحة.. ثم إننا لا نعرف ما الذي يموت فينا أولاً.. أو ما الذي يولد فينا. كل ذلك سوف نرصده ونعرفه. وهناك قوانين للحركة والنمو، وقوة جاذبية لا يمكن قياسها لضآلتها، ولكنها ليست ضئيلة لدرجة لا يمكن معرفتها.. وكلها تحدّيات علمية عظيمة.. والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي عرف أنه لا يعرف.. ولكنه يريد أن يعرف. وهذا هو أكبر تحدياته العقلية والخيالية من أجل أن يعيش أطول وأيسر وأعقل.. وليست هذه إلا البداية لنهاية لا نعرفها!

الحرير : لوحات وأغنيات !

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان واحد فنان. والفنان اسمه بيكار ـ حسين أمين بيكار. مصري من أصل قبرصي تركي، وكان صديق العمر؛ فنحن أصدقاء من أربعين عامًا. سافرنا معًا إلى أوروبا وتصعلكنا في شوارعها واستديوهاتها، ونجحنا كثيرًا. فلا أحد يستطيع أن يقاوم اللغة الإيطالية والبنات الإيطاليات. فاللغة أغنيات والبنات راقصات والجو أوركسترا لكل المشاعر الجميلة. والمايسترو هو الشباب وكنا شبابًا..

وإذا تخيلت أن أحدًا مصنوع من الحرير الصيني فالفنان بيكار. وإذا تخيلت أحدًا مثل دودة القز تفرز الحرير فخطوط لوحاته كذلك. لولا أن دودة القز حشرة كريهة. ولم يكن بيكار إلا رجلًا وسيمًا جميل الشكل والرسم والجسم والنفس. لم يكرهه أحد. ولم يكره أحدًا. كيف؟ هذه هي المعادلة الصعبة التي افتقدناها من أربع سنوات.

وفى يوم كنَّا في مدينة البندقية ورأينا ـ حسين بيكار وعبدالسلام الشريف وصلاح طاهر وكمال الملاخ وحسن فؤاد وجمال كامل وهم كبار فناني مصر ـ فتاة صغيرة أمسكت ورقة وقلمًا. وبمنتهى الثقة ترسم حصانًا يقفز. وقفنا وتولانا الذهول؛ كيف تستطيع هذه

الصغيرة وبخطوط صغيرة أن ترسم حصانًا؟وقفنا وطلبنا إليها أن ترسم الحصان واقفًا ونائمًا على جانب أو على ظهره أو طائرًا، وكيف تفعل ذلك ببراعة فريدة؟ وطلبنا إليها أن تعطي كل واحد منّا لوحة وأن توقع عليها بإمضائها. وفعلت ولا نزال نحتفظ بهذه المعجزة الفنية!

وقد أسعدني حسين بيكار بأن رسم أغلفة عدد من كتبي.. وكانت هذه الأغلفة تحفة فنية. وقد بدأ حسين بيكار حياته موسيقيًّا مطربًا وملحنًا. وأول ألحانه كان للملك فاروق. وأصابعه لم تتوقف عن العزف على العود وعلى الورق أيضًا. وإذا كان الفنان صلاح طاهر هو موسيقار الألوان، فإن حسين بيكار هو مطرب الضوء والظلال والحرير..

وقد استمعت من حسين بيكار إلى أغنية سيد درويش (أنا هويت وانتهيت) وهي أسعد أغنية في تاريخ الغناء العربي؛ فقد غناها محمد عبدالوهاب والسنباطي وإسماعيل شبانة وسعاد محمد وفرقة أم كلثوم وحسين بيكار وأنا أيضًا غنيتها لحسين بيكار وإسماعيل شبانة وغنيتها لنفسي كثيرًا!

يرحم الله حسين بيكار بالطريقة التي كان يحلم بها.

نحن أحفاد قابيل وهابيل !

شيء غريب! في كل مكتبة ترددت عليها وجدت أكثر الكتب عن الجريمة: كتب بوليسية.. أحدث كتب الجرائم.. أكثر الكتب انتشارًا عن الجريمة.. جرائم كلاسيكية.. جرائم إلكترونية. أما كتب الفلسفة فأقل من كتب الأدب، وكتب الأدب أقل من كتب التاريخ، وكتب التاريخ أقل من كتب الفلك، وكتب الفن أقل من كتب الرياضة والألعاب..

كأن الإنسان لم يشبع من أشكال الدمار والنار.. في الحروب والانتفاضات الشعبية والإضرابات. كل هذه الصور العنيفة الدامية لم تقنع الإنسان بأن يكتفي بهذا القدر ويقلع عن التعطش للدماء والنار والعنف والرعب!

فلا تزال أفلام الرعب تلقى هوى عند المشاهدين. فالناس يقفون طوابير قلقة ويتزاحمون على الأفلام المخيفة. إنهم بمنتهى الهدوء يذهبون لتهزهم الشاشة وتمزق أعصابهم. ويخرجون سعداء بهذا الزلزال النفسي. وما داموا كذلك فإن أحداث العنف والقتل قد اعتادوا عليها ويطلبون المزيد.. ولم نعد ندرك الفارق بين المعارك في الأفلام والمعارك الحقيقية.. وعلى الشاشة نجد المقاومة الشعبية والمقاومة الفنية.. أما المقاومة والعنف في الأفلام فهي أدق وأكثر إثارة لأنها

عمل بالعقل ويسرد للوقائع بالمنطق؛ ولذلك كانت الدماء الفنية أجمل وأعمق أثرًا..

فنحن أحفاد قابيل الذي قتل أخاه هابيل.. فالدماء والانتقام والحقد يجري في عروقنا. ومن أجمل المشاهد في فيلم قديم اسمه (الكتاب المقدس) بطولة صوفيا لورين.. أن نجد دماء قابيل تسقط في ماء النهر الذي يصب في كل أنهار الدنيا التي شربنا منها.. شربنا دم القتيل.. فدم القاتل والقتيل يلتقيان في عروقنا؛ ولذلك نحن حريصون على إحياء هذه الجريمة أو مشاهدتها في الواقع والفن..

ثم إن الحياة اليومية مملة. وتحتاج إلى ما يفتح الشهية على الحياة. ولم نجد حتى الآن إلا الشطة والملح والجريمة في الكتب أو على الشاشة! وفي إحدى قصص الأديب الإنجليزى (كونان دويل) الذي اخترع شخصية شيرلوك هولمز البوليسية أن أمًّا اعتادت أن تروي لطفلها قبل النوم بطولات والده الذي مات في الحرب. وكان الطفل لا ينام بسهولة. وكان يدهشها بأسئلته الغريبة، ويسألها: كيف كان أبي يحارب العدو دون أن يقتل أحدًا بالمدفع؟ وإذا نفدت الذخيرة لماذا لا يهجم عليه ويقتله بيديه؟

وكانت الأم تفزع وتحاول أن تهرب من الإجابة فكان الطفل ينفض الغطاء ويستوى جالسًا متسائلًا: هل تحاولين إقناعي بأن أبي لم يقتل أحدًا؟ لا بد أنه قتل وهذا ما أريد أن أسمعه بالتفصيل لكى أؤمن بعظمة والدي.. وتستسلم الأم، وتتحدث عن جرائم والده البطل في الحرب. ولا يكاد الطفل يسمع ذلك حتى تبدو الراحة على وجهه وينام! إنهم وإننا أولاد العنف والجريمة، أولاد الحروب. وقد قال لنا

المؤرخ العظيم ول ديورانت: إن الحروب قد استغرقت من تاريخ الإنسانية 1127 سنة.. أما سنوات السلام فلم تزد على مائة وعشرين سنة! فكيف لا نفرح بالجريمة وكيف لا ننام على موسيقى المدافع والقنابل وتستمتع عيوننا بدماء الآخرين؟!

كنا نلتقط العلم من الأرض!

في إحدى محاضراتها قرأت السيدة سوزان مبارك مقالاً كتبته عن كيف كنا نقرأ وكيف نلتقط المعلومات من الأرض حين نجد ورقة تحت التراب. ننفض التراب ونختار جانبًا من الطريق لنقرأ.. أو نذهب إلى محلات الطعمية نطلب من البائع أن نجعلها أكبر ـ لا الطعمية وإنما الورقة! هكذا كانت مصادر المعرفة عندنا. فلا صحف ولا مجلات ولا كتب؛ فقد كان الريف ضيّقًا خانقًا، وكانت الكتب في البيت عندنا في الدين والفقه والشريعة. وهي صعبة المنال عسيرة الفهم ولكن اعتدت على أن أقلبها وأنا أقرأ وأقرأ ولا أفهم. وإذا أرهقتني القراءة أو المحاولة سقطت نائمًا ورأسي على هذه الكتب تحت السرير. فلم يكن مسموحًا لي أن أقلب في كتب لا أفهمها!

ولكني اعتدت على أن أجد الكتب وأن أقلب أوراقها.. وأتفرج على الصور. وكانت الصور كلها للنباتات والحيوانات والحشرات. فهذه مجموعة من كتب أخرى لأحد أقاربي الذي تخرج في كلية الزراعة.

وأول مجلة رأيتها في حياتي كانت لإحدى شركات الأسمدة الألمانية. ففي المجلة صور للمصانع الألمانية وكلها متشابهة.. أما الكلام فليس مفهومًا..

وأول سينما رأيتها في حياتي كانت في الريف.. فقد كانت تجيء إلينا سيارة تعلن عن إسبرين (باير).. وكانت تنصب ستارًا على الجدران.. وعلى الستار نرى أشياء تتحرك للدلالة على أن أحدًا قد أصيب بالصداع وأن الإسبرين هو العلاج الوحيد.. وكنا ككل الأطفال نلمس كل شيء بأيدينا.. تمامًا كما كنا نفعل ونحن صغار جدًّا نلمس كل شيء ونضعه في أفواهنا.. ولما كبرنا كنا نلمس الأشياء ولا نستطيع أن نضع سيارات باير في أفواهنا.. وقد لجأت شركة باير إلى (كهربة) سياراتها فلا نكاد نلمسها حتى نصاب برعشة قوية فنسحب أيدينا وتبقى عيوننا مأخوذة بما نرى. ولا نذهب إلى أبعد من ذلك.. لأنها إحدى العجائب.. وبس!

أما اليوم فلا يوجد سبب واحد لأن يتوقف أحد عن القراءة؛ فالمجلات والصحف والكتب والمكتبات وشاشات التليفزيون والسينما كلها تصبّ المعلومات في الآذان والعقول. ويجب ألا تشغلنا هذه الصورة الملونة الباهرة عن الكتب؛ فالكتب أبقى وأروع.. وهناك سباق وصراع بين الكتاب والشاشة. الشاشة ساحرة ومفترسة للوقت. ولكن الكتاب أمتع؛ فأنت تستطيع أن تقلبه وأن تقرأه، وتستعيد ما نسيت.. وليس صحيحًا أن الإنترنت قد قضت على الكتاب. وليس صحيحًا أن التليفزيون قضى على الراديو والراديو قتل الكتاب..

وكنا نشتري الكتب أيًّا كان حجمها أو حجم حروفها. ولما كبرنا واقتدرنا اشترينا الكتب الأكثر أناقة والأكبر حروفًا، ولكن لابد أن تقرأ؛ فلا خيار ولا مفاضلة.. فإما أن تقرأ وإما أن تقرأ..

أنا وكثيرون غيري ولدت والكتاب في يدي.. اعتدت أن أجده.. وفي أول الأمر لم أفهم ما قرأت.. وبعد ذلك حاولت أن أفهم. وفهمت. واستمتعت. ولا توجد متعة أروع ولا أعظم من القراءة إلا القراءة. وصدق علي بن أبي طالب: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال».

ونحمد الله سبحانه وتعالى على نعمة الجوع والتضوّر إلى المعرفة، ولا يهم إذا ظهر القرش الأبيض في اليوم الأسود، أو لم يظهر ولم تشرق عليه شمس أو لم تغرب!

في العطر في الحضن حتى الموت!

ماذا جرى لشباب العالم؟!

وما الذي يريدون أن يصنعوه بشباب العالم؟

إن هناك أناسًا في غاية الذكاء والسفالة أيضًا..

فهم قد عرفوا قلق الشبان، وأدركوا ذلك بوضوح، وراحوا يتأملون الموقف. ويحسبون.. ووجدوا أنه من الممكن استغلال الموقف بسرعة ليكونوا أصحاب ملايين بسرعة أيضًا.. وتكونت شركات لبيع الحب.. إنعاش الشباب.. وتنبيه الأعصاب النائمة، وجعل الحياة أكثر احتمالاً.. ونزع الشوك من الورد. وتزوير شهادات الميلاد وتحويل القنبلة الذرية التي نعيش فيها إلى قنبلة لا تنفجر.. أو إلى قنبلة تنفجر بالموسيقى..

ففي الدنمارك يقام مهرجان دولي للحب بصورة حية.. حب على الطبيعة.. يرى فيه الشبان كل ما يعلمون أو يحلمون أن يعلموا. وسوف يقومون باستعراض الحب بطرق مختلفة. شبان أكثر شجاعة.. أو محترفون..

وعلى حدود الدنمارك توجد مدينة ألمانية تصدر منتجات الحب والجمال.. وتتولى هذه المنتجات سيدة في الخمسين من عمرها.. كانت بائعة متجولة في شبابها.. ولكن عندما بلغت الأربعين أحسّت أن الحياة تصفي حسابها معها.. ولذلك قررت أن تفتح لها حسابًا جديدًا.. ولغيرها أيضًا.. والتف حولها عدد من الأطباء والتجار ووضعوا أيديهم على مرض العصر: الخوف.. الخوف من المستقبل.. الخوف من المرض ومن الموت ومن الشيخوخة.. والخوف أن يحدث ما يقطع القبلة، ويفسخ الحضن.. وألا يكون طفلاً!

وقد أصدرت هذه السيدة كتابًا صغيرًا اسمه «الحياة الحب والحب الحياة» وليس هذا العنوان مسروقًا من قصيدة شوقي التي غناها محمد عبدالوهاب منذ خمسين عامًا والتى مطلعها:

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا

ما لقلبينا عن الحب غنى!

وإنما هى حقيقة قديمة عرفها الشعراء من أيام أمير الشعراء امرئ القيس حتى أمير الشعراء أحمد شوقي.. وفي هذا الكتاب تقول تاجرة الحب: نحن نعيش في عصر الشيوخ. هذا صحيح.. ولذلك يجب أن نترك لهم دنياهم: السياسة والاقتصاد والحرب. أما نحن فلم يبق لنا إلا الحب!!

آه.. هذا هو المعنى الشرير: أن يترك الشاب بلاده وقضاياه وأن يدفن نفسه تحت غطاء في حضن.. في عطر.. في عرق.. حتى الموت!

بأقلامهم يحرسون التاريخ!

أيها الفرنسيون، ما أروعكم!

إنهم الذين كشفوا لنا طلاسم الحروف الهيروغليفية فعرفنا تاريخنا ـ وهو تاريخ الحضارة الإنسانية. فقد ظللنا نرى الأهرامات ألوف السنين، ولا نعرف لماذا وكيف أقامها الفراعنة وكيف نقلوا أحجارها. وكيف وضعوها هندسيًّا وفلكيًّا. بل إنه حدث أن اقتطعنا من الأهرامات أحجارًا لبناء السدود.. ولا أقول إنه استهتار وجهل.. فلا أحد كان يعرف معنى هذا الصرح المعجزة، حتى جاء الفتى شامبليون وفكَّ رموز اللغة الفرعونية القديمة.. فعرفنا أنفسنا وتاريخنا العظيم. وعرفت الدنيا علوم وفنون مصر القديمة، والتي تقدمت بها على العالم القديم وسبقت الحديث أيضًا!

وقبل ذلك جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر من شبان ـ 120 شابًّا لا تزيد أعمارهم على 27 عامًا. وكانت هذه هي المرة الأولى ليروا مصر. ورأوها كما لم يستطع المصريون. فدرسوا وحللوا وسجلوا كل شيء على أرض مصر.. كل الأحجار والقبور والنقوش والحشرات والنباتات والصخور والأغاني والرقصات والموازين والمكاييل والعلاقات الاجتماعية والتقاليد والفنون الشعبية. وأعترف ـ وأنا أحد

الذين طالبوا بإكمال ترجمة كتاب (وصف مصر) ليكون وثيقة عالية القيمة من وثائق التنوير الفرنسي لمصر..

شيء عجيب! كأنه عهد على فرنسا والفرنسيين أن يضيفوا جديدًا كل عام لمصر الفرعونية.. ففي كل سنة أذهب إلى باريس أجد جديدًا اكتشفه الفرنسيون في حضارتنا.. إنها - إذن - لهذه الدرجة غنية.. وإنهم - إذن - لهذه الدرجة علماء وعشاق لمصر الفرعونية. كيف؟ إنه العشق الذي يقارب الجنون بكل ما هو فرعوني - لا زهقوا ولا ملُّوا ولا شبعوا. لا الكتَّاب ولا المؤرخون ولا القرَّاء.

يتحدثون عن الحب عند الفراعنة.. وغراميات الملوك والملكات ورسائل المحبين. شيء غريب أن نجد عبارات في رسائل الفراعنة قد جاءت بعد ذلك في الكتاب المقدس الذي نقلها عن الفولكلور المصري.. ففي (نشيد الأنشاد) من العهد القديم: هذه العبارة أو هذه الآية (حبيبتى كلها؟؟) - يا سلام على هذا الكلام. من الذي قال ومن هي هذه الحبيبة؟. أما الحبيبة فاسمها شولاميت، أما العاشق فلا نعرف اسمه؛ فالاسم لا يهم ولكن العبارة الجميلة هي التي تهم. وفي الفولكلور المصري هذه العبارة: حبيبتي أنت لست واحدة.. أنت ألوف الجميلات فقد حارت فيك عيناي وأذناي.. فلا أجد ما أقول.. فأنت كثيرات يا حبيبتي.. وواحدة تكفي.. اعذريني أنت أغلبية مطلقة، وأنا واحد مسكين حائر في جمالك ودلالك. ما الذي أقول.. ولن أقول.. يا حبيباتي يا جميلاتي يا سيداتي..

لقد أقسم الفرنسيون أن يقفوا بأقلامهم على باب هذه الكنوز، وأن يستخرجوا لؤلؤها وذهبها وفضتها وسحرها كل عام. شكرًا لكم فقد جعلتمونا محبين لتاريخ بلدنا.. وهو تاريخ الإنسانية أيضًا!

نعيش في بلاد العجائب!

مجرد أن يتصور الناس أنك سائح أجنبي، فإنهم ينظرون إليك على أنك إنسان عبيط.. وأنك لا تعرف ما يعرفون، خصوصًا إذا كانوا يتحدثون إليك عن بلادهم..

فعندما ذهبت إلى مدينة دارون في أستراليا، أشاروا إلى صخرة عالية وقالوا لي: هنا جلس المكتشف الإنجليزى كوك منذ أكثر من 200 سنة!!

وعندما ذهبت إلى كوبا أشاروا إلى كوم تراب على الشاطئ وقالوا: هل تعرف هذه الشجرة الصغيرة؟ إنها من نسل الشجرة التي جلس تحتها كولمبوس عندما هبط إلى كوبا لأول مرة منذ 480 سنة!!

وعندما ذهبت إلى جزيرة سيلان أخذوني إلى أحد الجبال، وقالوا: انظر إلى هذه البحيرة.. ألا تلاحظ أنها على شكل قدم في رجل كبيرة؟!

ولم ألاحظ ذلك، ولكني قلت: تمام..

قالوا: هنا نزل أبونا آدم ـ عليه السلام ـ من الجنة.. وعندما لمست قدمه الأرض، غاصت تحت قدميه.. وبعملية حسابية بسيطة يكون حجم أبينا مئات أضعاف برج القاهرة، ما دامت القدم الواحدة طولها 500 متر!!

وعندما ذهبت إلى مدينة تبنجن في ألمانيا، قالوا: هنا كان يعيش الفيلسوف العظيم هيجل! والعالم احتفل بمرور 200 سنة على ميلاده، لقد ولد في نفس السنة التي ولد فيها الموسيقار بيتهوفن.

ونظرنا إلى الغرفة لقد كانت صغيرة ضيقة ولها نافذة تطل على نهر صغير أمام حديقة اسمها حديقة التأوهات.

وقالوا لنا: بسبب هذا الضيق كانت نظرته واسعة. وبسبب هذه القضبان الحديدية الموجودة في النافذة كان تفكيره منطقيًا جعل العالم كله يعيش على قواعد مثل قضبان السكك الحديدية!!

مع أن الفيلسوف لم يقم في هذه الغرفة سوى سنة.. ولا يمكن أن يكون الضيق والقضبان هما سبب هذه العبقرية!!

وعندما ذهبت إلى مدينة جنوة في إيطاليا، جلست على سفح أحد التلال المطلة على مقبرة المدينة. والمقبرة تحفة فنية، فكل القبور تماثيل منحوتة من الرخام، هذا هو شرط الدفن في هذه المقبرة.

قالوا لي: انظر وراءك! نظرت ورائي، قالوا لي: اقرأ العبارة المكتوبة على الجدار.. قرأت.. إنها عبارة للشاعر الإيطالي دانتي.. قالوا: إنه كتب هذه العبارة في هذا المكان..

وكان لا بد أن أهز رأسي وأقول: أنا عبيط إذا صدقت شيئًا من ذلك.. ونحن جميعًا بلهاء.. إذا لم نفعل في بلادنا ما هو أعجب من ذلك.. فنحن نعيش في بلاد العجائب!

الإنفلونزا لا علاج لها!

اختلف العلماء في الإنفلونزا..

قال لي أحد العلماء: إن أحسن شيء للوقاية من هذا الوباء هو ألا يتعرض الإنسان لدرجات الحرارة المتفاوتة.. لا ينتقل من الحر إلى البرد.. ولا العكس.. ومعنى ذلك ألا يدخل الإنسان مكتبه.. وإذا دخله لا يخرج منه.. وأفضل ألا يخرج من بيته..

ولكن كيف؟!

وقال لى عالم آخر: إن عصير الليمون أحسن من فيتامين «ج» وإنه أضمن.. ومن الأفضل أن يضع الإنسان الليمون على الشاي وعلى الطعام، وأن يشرب العصير باردًا.. وساخنًا أحسن.. وكل الأدوية التي تقي من الإنفلونزا أو تعالجها مشتقة من الليمون. وإن الذين يتناولون الفيتامينات ليست لديهم هذه الكميات الرخيصة من الليمون البلدي!!

أما تعاطي الحقن للوقاية ـ كما أفضل أنا ـ فهو مقلب يشربه المصابون بالخوف من البرد؛ لأن هذه الحقن تحمي الخائفين بعض

الوقت.. فإذا أصيبوا بالإنفلونزا فإن هذه الحقن لا تنفع بعد ذلك مهما كان عددها ومهما كان اسم الشركة التي تنتجها..

ومن رأى بعض العلماء أن الإنسان إذا أحسً بأعراض الإنفلونزا فيجب أن يبادر بتعاطي هذه الحقن.. أي يجب أن يقاومها بعد أن تكون قد تسللت إلى جسمه.. ولكن علماء آخرين يقولون إن الإنفلونزا إذا دخلت فلن تخرج قبل خمسة أيام.. وفي هذه الحالة لا قيمة للحقن!!

ولكن ما رأي العلماء في أنني منذ قرأت عن الإنفلونزا وأنا أشعر بأعراضها يوميًا.. وآخذ هذه الحقن يوميًا وأتوجع من وخز الحقن في ذراعي.. ولا بد أن مثلي كثيرون من الناس!

إنني أتذكر الآن قصة الملك كونراد أحد ملوك ألمانيا عندما حاصر إحدى القلاع.. وقاومت هذه القلعة طويلاً.. وأصر الملك على الاستيلاء عليها. ولكن عندما علم أن بها نساء كثيرات سمح لهن بالخروج بشرط أن يحملن كل ما يردن من متاع وأن يمشين على أقدامهن. وخرجت النساء وفوجئ الملك بأن النساء حملن أطفالهن.. ورجالهن أيضًا!!

وأعجب الملك كونراد بالنساء.. ورفع الحصار عن القلعة! وقد حملت نصف ملابس وكل أنواع الفيتامينات والحقن ونقط الأنف ونقط الحلق.. وأخرج من البيت ومن المكتب على مراحل.. وفي انتظار قرار رفع الحصار الذي تصدره صاحبة الجلالة «الإنفلونزا»!

كل شيء: معجزة !

ونحن صغار كان يقال لنا: من يفتح حبة قمح يجد اسم الله مكتوبًا عليها.. وكنا نفتح حبة القمح.. وكنا نجد اسم الله مكتوبًا..

ولم نكن نعرف ونحن صغار ـ لأننا صغار ـ أن حبة القمح معجزة في ذاتها.. وأن الله ليس في حاجة إلى أن يوقع باسمه الكريم عليها..

كم حبة ـ بل كم معجزة ـ كم بذرة.. في ملايين الملايين من الأشجار.. وكم لونًا.. وكم شكلاً وحجمًا وطعمًا ووزنًا وحلاوة ومرارة.. كم عدد هذه الحبوب اللانهائية.. وكلها أدلة على عظمة اللَّه؟

والكاتب، إنما يحاول أن «يقترب» من الله عندما يضع اسمه على كل شيء.. وعينه على كل لون.. وأذنه على كل صوت.. وأنفه على كل عطر، وإصبعه على كل جسم..

ثم يقول: إنني هنا.. إنني موجود أيضًا.. أرى وأسمع وأتذوق.. وأحب وأكره.. وبعد ذلك كله يمسك قلمه ليقول.. فيضيع قلمه على الورق ويترك القلم يجري وراء ظله.. أو يتركه يلاحق لعابه الأسود.. وكما أن العين لا بد أن ترى.. والأذن لا بد أن تسمع، والأنف لا بد أن يشم.. والقلب لا بد أن يدق، فكذلك الآخرون..

الكاتب لا بد أن يقول ما في نفسه وما في النفوس. والكاتب فقط «يقترب» من الله.. ولذلك فهو لا يستطيع أن يرى كل شيء وأن يسمع كل شيء.. وإنما فقط بعض الأشياء وبعض الأصوات وبعض المعاني..

وليس في استطاعة أحد أن يقول كل شيء عن أي شيء.. أو حتى عن شيء.. وإنما فقط أن يقول القليل عن القليل.. فالكاتب ككل إنسان: محدود.. لأنه يفكر في الدنيا من خلال بضعة ثقوب.. بضع فتحات: عيناه وأذناه وأنفه.. وهذه الفتحات ضيقة..

وهى فتحات في حوائط من نوع غريب اسمها: الأمل واليأس والخوف والحب والكراهية. فمن وراء هذه الحوائط نلمس الدنيا.. وتلمسنا الدنيا.. وهذه الحوائط تعزل الدنيا عنا..

وفى نفس الوقت تجعلنا نراها أوضح.. إن هذه الحوائط مثل زجاج النظارة.. مثل زجاج الميكروسكوب.. والتلسكوب.. هى حوائط شفافة تقف بيننا وبين العالم حولنا.. ولكنها تقربه وتوضحه.. فهذه الحوائط ترى بعيوننا، ونرى بعيونها ـ كما قال الشاعر القديم.. ومعنى ذلك أننا نرى الدنيا من خلال ثقب في ثقب في حائط. أي من عين بعد عين.. إلى هذه الدرجة يصبح عالما محدودًا.. عالم الكاتب والفنان.. ولكن الكاتب، رغم ذلك، يحاول أن يرى أبعد.. ويسمع أعمق، ويلمس أرق.. ويشم أكثر..

ولا أحد قال كل شيء.. ولا استطاع!! وكل كاتب يحاول.. ويكفي أنه حاول.. وما أجمل ما قال الأديب العظيم أوسكار وايلد عندما عاب الناس على أحد عازفى البيانو أنه لم يحسن العزف، فقال: لا تلوموا العازف.. إنه يبذل أقصى ما يستطيع! وكلنا ذلك العازف! وكلنا يعزف على أوتار نفسه.. ليسمعه ويراه الآخرون!

كلنا ذلك المهدود حيله !

اسأل أي إنسان وأنت تسمع منه هذا الردّ: أبدًا.. عندما أصل إلى البيت أتناول غدائى، وأرمى نفسى على السرير، وأقوم بعد ذلك، ولا أدرى لماذا أحس أن جسمى كله مكسر.. وآخذ الشاي، وأنظر من النافذة، أشمّ بعض الهواء.. وأستمع إلى الراديو أو التليفزيون وبسرعة جدًّا يجيء منتصف الليل. وأنام حتى الصباح.

وإذا لاحظ هو أنك اندهشت لهذا الذي عمله، فإنه يقول لك: وأحيانًا أذهب لزيارة بعض الأقارب، أو أفاجأ بهم. ومرة أو مرتين في الشهر أذهب إلى السينما..

وإذا كان عنده أولاد يقول لك: والآن موسم امتحانات وأنت تعرف تلامذة هذه الأيام!!

وتنتقل المناقشة إلى عيوب الراديو والتليفزيون والأفلام والدروس الخصوصية، والمقارنة بين أيام زمان وهذه الأيام، وكيف كان كل أب متقدِّمًا وأنه كان الأول باستمرار وأن أولاد هذه الأيام ترتيبهم الأخير دائمًا!!

ومن الطبيعي أن يحدثك عن أمراضه.. وعن الدواء والعلاج والدكاترة وأن الأدوية مغشوشة.. وأن الصيدليات تسرق «العبوة» من زجاجات وعلب الأدوية. وفي استطاعتك أن تجرب ذلك بنفسك فتجد أن الزجاجات كلها ناقصة.. لماذا؟ هذه قصة أخرى!

ومهما تنوعت الموضوعات وتشعبت فأنت أمام واحد لا يختلف عنك كثيرًا في أن العمل يهدّ حيلك، الذهاب والمواصلات واللطعة في الانتظار وفي الوقوف، والذهاب إلى العمل، والجلوس بلا عمل.. أو العمل الذي تقوم به وحدك. وغيرك لا يؤدي أي عمل ولا مكافأة لمن يعمل.. والمكافأة كلها لمن يعمل أراجوزًا لرئيسه في أي عمل.. والكتمة وابتلاع هذه الأوضاع الفاسدة في كل مكان. كلها نار ودخان تحتبس في نفسك وعقلك وقلبك. ويضاف إليها هموم أخرى في البيت.. وفي الطريق إلى البيت، وهموم بعدد الذين في بيتك وفي البيوت المجاورة.

مصيبة كبرى في هذا العصر: أن الإنسان يرهق نفسه في العمل من أجل الضروريات.. وبعد ذلك لا تبقى عنده قدرة على أي شيء آخر!!

ربما كانت القدرة الوحيدة الباقية هي اليأس من نفسه.. ومن الناس!

البكاء يطيل العمر !

غلطان جدًا الذي قال لنا ولملايين قبلنا: الدموع للمرأة، أما الرجل فلا..!

ولا بد أن يكون صاحب هذه النصيحة قد لاحظ أن المرأة تبكي كثيرًا لسبب ولغير سبب.. وأن الذي تذرفه المرأة كثير جدًا.. وأن الرجل لا يستطيع أن يجاريها.. وأنه من الأفضل أن يكف عن المحاولة؛ ولذلك نصح الرجال بألا يحاولوا.

وظلت هذه المحاولات متروكة للأطفال.. فإذا بكت طفلة قالوا: أليست هى حواء الصغيرة؟! وإذا بكى طفل قالوا له: عيب ستصبح رجلاً!!

فأصبح البكاء عادة وضرورة ولحنًا مميزًا للمرأة، وعيبًا عند الرجال وعارًا أيضًا!

وحرمتنا هذه القاعدة التربوية من نعمة كبرى لا تعرف المرأة قدرها.. الدموع تغسل العين وتجلوها، وتجعلها أكثر لمعانًا.. فلولا أن العيون مبللة بقليل من الدموع لالتهبت وفقدت القدرة على الإبصار.. لأن الدموع طبقة عازلة وواقية.. والمرأة عندما تبكي فإنها تخفف توترها العصبي.. والدموع تريحها.. ولذلك فالدموع نعمة.. إنها

دموع التماسيح.. فالتمساح يبكي عندما ينجح في اصطياد الفريسة.. وعندما يأكلها.. فدموعه مظهر من مظاهر الارتياح ومن مظاهر التخفيف عن توتره العصبي.. وكذلك دموع المرأة!!

أما الرجل فإنه مع الأسف لا يعرف كيف يبكي.. إنه يغلي من الداخل تمامًا كإناء يغلي ويتبخر ويحتبس البخار في نفسه.. أما الغليان في داخل المرأة فإنه يصادف جسمًا باردًا فيتحول البخار إلى قطرات دموع.. وإذا كانت المرأة تنفجر بالدموع، فإن الرجل ينفجر فقط!!

ولذلك فهموم الرجال تقتلهم.. وهموم النساء تذيبهن وتريحهن.. وتعطيهن خبرة وقدرة على تحمل هموم أخرى أكبر.. وقد يموت الرجل من همّ واحد ينفجر في داخله.. ولا تموت المرأة من عشرات الهموم.. لأنها تبكي.. أي لأنها تريح أعصابها أولاً بأول.. فالدموع نوع من «الفائض» عن حاجة الجسم.. وهناك رجال كثيرون يقولون: لو كنا نعرف كيف نبكي!!

ومن الأصح أن يبكي الرجل أمام الناس.. لأنه إذا بكى سرًا فمعنى ذلك أنه يخجل من دموعه.. من ألمه.. والألم ليس ترفًا.. إنه ضرورة.. والتأوّه ليس عيبًا. وأهون أن يعصر الإنسان عينيه بيديه، من أن يعصر قلبه ويحطم حياته.. فالدموع تاج على رأس المرأة لا يعرفه إلا الرجل.. ولأن الرجل يريد أن يكون «رجلا» فإنه لن يبكي، ولذلك يتركون العمر الطويل للمرأة دائمًا..

ابكوا.. ابكوا.. تطل أعماركم!

عندما تشعر بأنك بايخ!

فجأة اكتشفت أن الكلام الذي أقوله بايخ.. وأنه كان من الأفضل أن أسكت منذ ساعة على الأقل.. واكتشفت أيضًا أن الأصدقاء الجدد الذين أتحدث إليهم على درجة عالية من الصبر والكرم..

فقد كان الموضوع الذي نتحدث فيه عن تربية الطفل، وضرورة ذلك، وعن عيوب الخناقات بين الأب والأم على مسمع من الأطفال، وأن هذه الخناقات إذا كانت تؤدي إلى تمزيق ملابس الآباء فإنها تمزق نفوس الأطفال وتشتت عواطفهم. وانتقلت بعد ذلك على أثر سعال شديد من أحد الموجودين إلى الكلام عن مضارّ التدخين.. وأنه ليس صحيحًا أن الذي يدخن يحرق السجائر، وإنما يحرق صدره وينفث عمره نفسًا نفسًا!!

ولما لاحظت أن واحدًا من الأصدقاء قد وضع يده على خده لم أفهم هذه الحركة بوضوح.. ولم أتصور أنه يريد أن ينام ولم أعرف أن سبب النوم أن الحديث مُمِلّ.. أو أنه صريح.. لدرجة تجعل النوم هو أنسب عمل يقوم به.. وجاء الكلام عن النوم طبعًا.. وعن عيوب النوم المتقطع أو القصير المركّز..

وجاءت لحظة الاستكشاف أي اللحظة التي تضاء فيها الغرفة أو يتضح فيها الموقف كله.. فإذا الجميع ليس لهم أولاد، وإذا هم لا يدخنون وإذا هم يعانون من الأرق.. ومعنى ذلك أنني كنت أتحدث لمن لا يحبون أن يسمعوا حرفًا واحدًا مما قلت، وإذا بي أكتشف أن ضحكاتهم لم تكن لسعادتهم، وإنما هي فرصة يفتحون بها أفواههم، ويتثاءبون ويضحكون في وقت واحد!!

وتذكرت أستاذنا العظيم أرسطو، أعظم فلاسفة الإغريق، فقد كان يقول إن عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل..

وتزوج أرسطو مرتين. ولم يفكر مرة واحدة في أن يفتح فم واحدة منهما ويحصي أسنانها. وكان أرسطو يقول أيضًا إن الطفل يولد في صحة جيدة إذا حملته أمه عندما تكون الرياح شمالية غربية على الساحل. ولم يلاحظ أرسطو إن كانت زوجتاه تفتحان النافذة لتتأكدا من اتجاه الريح قبل أن تذهبا إلى الفراش!!

إن الفيلسوف العظيم كان يقول، ولكنه لم يفكر كثيرًا في أن يفتح عينيه على أصغر الأشياء.. ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الإنسان عندما يفتح فمه، يطبق عينيه وأذنيه؛ فلحسن حظه.. وسوء حظ الناس!

هذه جريمة فما هي العقوبة ؟!

لا بد أن تكون هذه مشكلة المدرسين والنظار: ما الذي يخيف التلميذ الصغير؟ ما الذي يفعله المدرس إذا خالف التلميذ الأوامر وجاء متأخرًا أو أهمل في دروسه أو غش في الامتحان؟

إذا كان هذا هو الخطأ فما هي العقوبة؟ هل طرد التلميذ من المدرسة عقوبة؟، هل هي عقوبة له أو لوالديه؟ هل استدعاء والديه في كل مرة ممكن؟ هل خصم الدرجات من الطالب عقوبة؟ إن المدرس يجب أن يكون محترمًا، وأن يكون من ضمن الاحترام عنصر الخوف.. أي أن يكون مخيفًا مهيبًا مهابًا، لا خائفًا من الطالب ووالد الطالب والناظر والمفتش والمراقب والوكيل والوزير.. وإلا فلن يتمكن المدرس من أداء واجبه وهو: أن يعلم التلميذ معنى النظام والطاعة والخلق الكريم واحترام العلم والمعلم.. بذلك يكون مواطنًا صالحًا مفيدًا.. قادرًا على أن يكون مدرسًا وطبيبًا وأبًا وزوجًا..

ولكن المدرس غير قادر على أن يكون مخيفًا للتلميذ الصغير، إنه لا يستطيع أن يعاقبه.. لا يستطيع أن يضربه مثلاً.. والسؤال: هل من الضروري ضرب التلميذ الصغير؟

والجواب: إن كل أم تضرب طفلها ولا يتهمها أحد بالقسوة والوحشية وانعدام الإنسانية.. بل إن كل الأمهات والآباء في عالم الإنسان والحيوان يستخدمون اليد والرجل والمنقار في تعليم الصغير حتى يكبر..

بعض المشتغلين بالتربية في مصر والخارج يرون ضرورة الضرب..

وبعض المشتغلين بالتربية يرون أن الضرب ضرورة ولكن بشرط أن يكون منصوصًا عليه في القانون.. وإنما يتغاضى عنه الناظر والمفتش.. والوزير.

ولقد عرفت عندما كنت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أن هناك مدارس للتدريب المهني قد أعادت الضرب.. فالمدرس يضرب التلميذ أمام والديه.. ودون إذن من والديه.. فبعد الحرب تحلل الشباب في ألمانيا واتجهوا إلى الرقص ومضغ اللبان.. وبناء الشعوب لا يكون إلا بالقوة والعلم. والعلم صعب والإنسان يكره الصعب؛ ولذلك يجب أن نرغمه بالقوة على التغلب على الصعب.. أي نعلمه بالقوة كيف يكون قويًا.

ربما كان الضرب البدني ليس هو الشيء الموجع ولكن الإهانة أمام زملائه الصغار هي التي توجعه أكثر.. وأكثر!

وهذا الموقف يحتاج إلى شجاعة.. وإلى مواجهة صريحة لقضية خطيرة: الاستخفاف والتهاون والاستهتار وهزّ الكتفين وإخراج اللسان للمدرس ولكل من يعلم الإنسان شيئًا جديدًا.. وإذا أصبحت المدرسة ملعبًا أو ملهى فكل مكان آخر هو كباريه.. وكل قيمة.. لا قيمة لها!

إنسان ولا تعرف معنى الإنسان

هذه طبيعة الإنسان ـ عبارة نقولها تعليقًا على مواقف متناقضة.. ومع ذلك نقولها.

فإذا حقد أخ على أخيه قلنا: طبيعة الإنسان هكذا.. فأول جريمة ارتكبها إنسان ضد إنسان كانت بين الأخوين قابيل وهابيل.. كما أن يوسف عليه السلام ألقاه إخوته في البئر!

وإذا ضحى الصديق من أجل الصديق قلنا: إنها طبيعة الإنسان؛ لأن الإنسان مهما كان شريرًا ففى جانب من نفسه يكمن الخير، كالشمس وراء السحاب.. ويجب أن نعطى للخير فرصة.. والدنيا بخير!؟

وإذا خان الصديق أعز أصدقائه قلنا: إنها طبيعة الإنسان.. فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان..

وقديمًا قالوا: اللهم احمني من أصدقائي أما أعدائي فأنا كفيل بهم.. وقالوا أيضًا: احذر عدوك مرة، واحذر صديقك ألف مرة..

وإذا أحبّت المرأة وأخلصت قلنا: إنها طبيعة المرأة تحبنا أكثر من نفسنا.. والمرأة هي التي تعرف الحب، لأن المرأة لا تحب إلا شخصًا واحدًا في وقت واحد.. أما الرجل فصاحب قلبين وبالين؟

وإذا لعبت المرأة بقلوبنا وعقولنا وانصرفت عنا إلى غيرنا قلنا: إنها طبيعة المرأة، لا أمان لها ولا أمان معها.. وهي كالقلب دموية.. وهي كالقلب تخفق للمال والرجال!

فما هذه الطبيعة الإنسانية؟

لا يوجد شيء اسمه الطبيعة الإنسانية.. فكل إنسان يمكن أن يتغير إذا تغيرت ظروفه وتغيرت الأرض التي يقف عليها والمقعد الذي يجلس عليه أو تحته أو أمامه.. ضع أشجع إنسان في النار يصرخ كالطفل..

فلا أحد خير بطبعه.. ولا شرير بطبعه.. ولا شجاع ولا جبان.. ولا كريم ولا بخيل.. وإنما الإنسان يصير كريمًا وشجاعًا وخيِّرًا..

والطبيعة الإنسانية نحن الذين نصنعها.. فنعلم الطفل الصغير ألا يكذب.. ونعلم الكبير ألا يكون صريحًا.. وإنما أن يلف ويدور؛ لأن الناس لا يحبون الصراحة.. ونعلم الصغير أن يكون شجاعًا ونقول للكبير لا تكن مقهورًا.. ونقول للصغير لا تكن بخيلاً.. ونقول للكبير لا تكن مسرفًا..

فالطبيعة الإنسانية قماش نلونه ونقصه ونفصله حسب المناسبات!

نصيحة لا تقتل هذا الرجل

لم أكن في حاجة إلى مزيد من وجع القلب عندما جاءني والد حزين يقول لي: ابني كان يحبك كثيرًا.. وأخوه الذي قابلك في باريس منذ شهور.

– كان يحبنى كثيرًا؟ وأين هو الآن؟

– أين هو الآن؟ من أجل ذلك جئت أحكي لك أين هو الآن.. وأين أنا الآن..

فى يوم من الأيام كانت هذه الأسرة سعيدة.. الابن الأكبر حصل على بكالوريوس التجارة.. الابن الذي يليه حصل على الثانوية العامة.. والذى يليه نجح في الإعدادية.. أسرة حسدت نفسها.. ولا بد أن يدق جرس التليفون.. لا بد من شيء يفسد هذه السعادة. وكان المتكلم صديقًا للأسرة يعاتب الأب: كيف يرى ابنك الأكبر زوجتي في الأتوبيس ولا يقف لها.. ألا ترى أن هذا سوء أدب.. أو جليطة لا تليق؟ وكان ردّ الأب: لقد سمعت من ابني قصة أخرى.. فقد صعدت الأتوبيس سيدة كبيرة في السن.. ولأنه متعب لم يشأ أن ينهض لها.. ولما جاءت زوجتك وهي شابة خشي أن يفسر الناس ذلك على أنه احترم الشابة

الحلوة الجميلة ولم يحترم السيدة التي في سن أمه.. أو خشي أن يقول الناس أنه يعاكسها أو يريد ذلك..

وقبل أن يضع الأب سماعة التليفون قال: سوف يجيء ابني ويعتذر لك ولزوجتك. وقبل أن يضع الرجل الآخر سماعة التليفون سمع الابن يقول: إنني لن أعتذر لرجل حمار مثل هذا.. وعاد التليفون يرن.. ودارت مناقشة حادة.. انتهت بأن هجم الأب على ابنه وضربه..

لماذا؟ ضربه والسلام.. وتدخلت الأم. ووافق الجميع على أن يذهب الابن ويعتذر. وذهب الابن وانفتح الباب وانهالت الأيدي على وجه الشاب والشتائم كذلك.. ولم يتمكن الشاب من أن يعتذر.. وبعدها بساعات مات هذا الشاب بسبب انفجار في مخه!!

ومطلوب مني أن أبعث برسالة للابن الثاني أقول فيها: أبوك منكوب وهو لم يقتل أخاك وإنما هي أعمار.. وإذا كنت حزينًا على أخيك فما بالك بأبيك الذي هو حزين عليه. وحزين أيضًا عليك؛ لأنك تتصور بل تؤمن بأن أباك هو القاتل..

إن هذا التصور يقتل أباك.. فترحَّم على أخيك القتيل وارحم أباك ولا تجعله قتيلاً.. أنت قاتله!

أنت مهمل أنت قاتل !

أنت إنسان مهمل بعض الوقت أو كل الوقت.. وكما أن الدقة ظاهرة إنسانية عامة، فالإهمال عام، ومنذ أقدم العصور وسقوط البيوت واحتراق الطائرات وفشل سفن الفضاء.. كلها تؤكد أن شخصًا ما في لحظة ما قد أهمل في شيء ما وكانت النتيجة التي نعرفها!

هذه الملحوظة آمن بها كاتب أمريكي طريف اسمه د. لورانس بيتر فأصدر كتابًا مفيدًا ساخرًا اسمه «نظرية بيتر» أو لماذا تلخبط كل شيء في هذه الدنيا؟..

وهو يشمل حوادث عالمية مشهورة للإهمال، ثم ينصح القارئ كيف ينجو من إهماله ومن إهمال الآخرين لكي ينجو هو على الأقل.. وقد استجاب لدعوته هذه أكثر من عشرة ملايين قارئ - أي عشرة ملايين اشترى كل واحد نسخة من هذا الكتاب!

فى سنة 1682 شكا المفكر الإنجليزى ماكولى من فساد الأسطول البريطانى وقال: إنه نموذج للفساد والفوضى والاستخفاف.. والجهل فلا ضبط ولا ربط.. ولا قيادة. ورجال البحرية البريطانية نموذج للاستهتار ولا أرى كيف يصف الإنجليز أنفسهم بأنهم سادة البحار!!

وفى سنة 1810 قبل أن يسافر ولنجتون الذي هزم نابليون في البرتغال، استعرض ضباطه ثم قال: آه لو عرف البرتغاليون أي نوع من الرجال هؤلاء الذين أعتمد عليهم لطاروا من السعادة.. إنهم حثالة الرجال وزبالة الجيوش!!

وفى الحرب الأهلية الأمريكية أعلن الجنرال ريتشارد تايلور قبل حرب «السبعة أيام» أن جنوده لا يعرفون من المدن الأمريكية أكثر مما يعرفونه من أواسط إفريقيا.. جهلاء ولدوا في هذه البلاد وزرعوا في أرضها وكأنهم أشجار لا ترى إلا الشمس والسحاب ولا تعرف أبعد من ظلها على الأرض!

وفى الحرب العالمية الثانية اكتشف العلماء الإنجليز في سنة 1940 أن القنابل التي يستخدمونها أقل فاعلية من قنابل الألمان.. ثم عرفوا السبب: أن القنابل الإنجليزية كانت في حاجة إلى مزيد من مركبات مسحوق الألمونيوم فقط.. ورغم اكتشافهم لهذه الحقيقة البسيطة الرخيصة الثمن فإنهم لم يطبقوها إلا سنة 1943!

وعشرات من الألوف من الأمثلة على هذا الإهمال، وهذا القصور والعجز عند كل الناس في كل التاريخ.. ولكن لا بد من علاج لهذا المرض.. لا بد من حل لهذه العقدة..

أحد هذه العلاجات: أن نعمل عندما تكون لنا رغبة ويقظة وشهية أما الذي يعمل وهو تعبان فهو أقرب الناس إلى الخطأ وسوء التقدير.. وهو واحد من الملايين الذين تسببوا وسوف يتسببون في كل كوارث البشرية..

ولكن كيف؟!

نسختك عند رئيس التحرير!

أحب الخيول والنظر إليها تمامًا كما أحب التأمل في نجوم السماء.. أحبها ولا أملكها. وأقرأ عن الخيول وأشاهد العروض. ولا أحب سباق الخيل لأنه تشويه لجمال الخيل وإرهاق لها.. وأنا أحبها تمشي وتتمخطر.. ولا أنسى كيف طلبت منهم في دبي أن يتركوني أتفرج على مهرة جميلة فاتنة.. أجمل من مارلين مونرو.. وكانت تجري وتتدلل وتتدلع، فهي تعلم أنها جميلة وأننا مبهورون بها.. وبس.

وعندى أفلام وكتب عن الخيول، وأعرف أسماءها. وأشارك أحيانًا في لجان التحكيم، فقط لأننى عاشق وعلى شيء من المعرفة. ولم أندهش عندما قرأت نعيًا في الصحف البريطانية لأحد أبطالها ـ البطل حصان اسمه (أوركيد الصحراء) مات أخيرًا عن 27 سنة. وقد رأوا الدموع في عيني الملكة وكثير من النساء والرجال حزنًا وأسفًا على هذا البطل الذي أسعد الملايين بانتصاراته الساحقة في كل السباقات التي دخلها.. حتى أصبح انتصاره شيئًا عاديًا، فكانوا إذا تحدثوا عنه لم يذكروا أنه انتصر أو سوف ينتصر؛ فقد اعتاد واعتادوا على ذلك. وإنما يتحدثون عن عينيه وأذنيه وذيله وحوافره وعنقه. وكانت الشركات إذا أرادت أن تفتح فرعًا جديدًا أعلنت أن (أوركيد

الصحراء) سوف يكون من المدعوين، تمامًا كما نعلن عن زين الدين زيدان أو صوفيا لورين.. وكان الناس يتزاحمون ليروا الجمال والقوة والرشاقة في كائن نبيل.

وهذا الحصان من السلالة النمساوية المعروفة باسم ليبتسر ـ ارتفاع الكتفين 150 سم والرأس كبير والأذنان كبيرتان والعينان واسعتان والعنق قصير والظهر طويل والجسم كله ممتلئ والسيقان رفيعة والحوافر متينة سليمة.

وقد رجوت الأستاذ طارق الحميد رئيس التحرير أن ينشر صورة هذا الحصان الفاتن ليسعد به الملايين من عشاق الخيول. ومن غريب أمر هذا الحصان أنه يكره الفرشاة ويكره الصابون ويكره المشط الذي يسوى به شعره كأنه العالم الكبير أينشتاين الذي كان يكره الماء والصابون ولا يستحم إلا مرة كل ثلاثة أشهر. لماذا؟ يقول أينشتاين: إنما أحب أن أعيش في درجة حرارة واحدة وأكره أن أجدنى مضطرًا إلى تغييرها بالاستحمام. ولولا عبقريته ما احتمل الناس رائحته الكريهة!

ويقولون إن المهرة عندما تكون جميلة وحاملاً فإنهم يضعون أمامها مرآة لكي تتوحم على نفسها. أما هذا الحصان العبقري وأعظم حصان في التاريخ، وكل هذه صفات النقاد الإنجليز ـ فيقولون إن أمه قد توحمت على الحصان بجاسوس أحد أبطال الأساطير الإغريقية..

احجز نسختك من صورة هذا العبقري عند رئيس التحرير!

من قتل الملك توت ؟!

أخيرًا عرفنا كيف مات (توت عنخ آمون) الذي عاش في القرن 14 قبل الميلاد. وصار ملكًا في التاسعة ومات في التاسعة عشرة. أي بعد وفاة إخناتون أول داعية للتوحيد في التاريخ، ولأن العصر الذي عاش فيه الملك توت كان مضطربًا فقد ظن المؤرخون أنه مات قتيلاً؛ فقد كشفت الأشعة سنة 1968 عن وجود كسر في الجمجمة. ولم نعرف إلا أخيرًا جدًّا أن الوفاة كانت لأسباب أخرى. فقد التقطت لجثة الملك توت 1700 صورة أشعة مقطعية لعلماء من مصر وإيطاليا وسويسرا. وأعلن عالم الآثار د. زاهى حواس عن وجود كسر في إحدى ساقي الملك توت، وأن الكسر أدى إلى وجود جرح مفتوح. هذا الجرح أدى إلى وفاة الملك الصغير..

أما الكسر الذي في الجمجمة فقيل إن المكتشف الإنجليزى كارتر هو وفريق الحفر قد تناولوا مومياء الملك بشيء من العنف. حتى هذا ليس صحيحًا. وإنما الصحيح أن هذا لم يكن كسرًا وإنما هي فتحة في الجمجمة لإدخال مواد التحنيط.. ولم يعثر العلماء على عضو الذكر والخصيتين للملك توت. وقيل الكثير عن ذلك. ولكن الأشعة المقطعية

كشفت عن وجود عضو الذكر والخصيتين في داخل الكفن. ولكن لماذا؟ هذا ما لا يعرفه أحد حتى الآن..

وسوف يعلن العالم المصري د. أشرف سليم نتائج هذا البحث في المؤتمر الدولي لأطباء الأشعة في أمريكا، وسوف يكون التقرير علميًّا دقيقًا. أما الذي سبق أن أعلنه العالم الأثرى د. زاهى حواس أمين المجلس الأعلى للآثار فقد كان تقريرًا لعامة الناس. وقد استمعت إلى هذا التقرير مرتين: مرة في سويسرا ومرة في إيطاليا.. وإلى جوار تابوت الملك توت، أصغر ملوك مصر القديمة، وقفت مع الملك أحمد فؤاد أصغر ملوك مصر الحديثة، وكان ذلك في مدينة بازل بسويسرا. سألوني فقلت: إن اثنين قد ظلما ظلمًا شديدًا في مصر: آخر ملوكها الملك فاروق أبو الملك أحمد فؤاد، وأول رؤسائها الأربعة: الرئيس محمد نجيب. أما الملك فاروق فقد ألصقت به كل المصائب، مع أنه كان ملكًا وطنيًّا صميمًا. ولكن ظروفه السياسية كانت قاسية. كما تكاثر عليه رجال السياسة كل واحد يريد قطعة من حكم مصر. واستضعفه الضباط الأحرار وقبل ذلك الإنجليز؛ فخرج الملك فاروق بلا مقاومة ولا ضجة. خرج ولم يعد. أما ابنه أحمد فؤاد فقد صار ملكًا وهو رضيع وخلعوه من الملك ولا يزال رضيعًا أيضًا.. أما الرئيس محمد نجيب فقد تكفل الرئيس عبدالناصر بتعذيبه وإهانته وإذلاله ومنعه أن يمشي في جنازة زوجته وابنه الذي اغتالوه.. ومنعه من ممارسة أقل القليل من الحرية الشخصية. مثلاً: طلب مَنْ يذبح له خروف العيد. رفض عبدالناصر؛ فقام هو بذبحه.. طلب من يقوم بتقطيع الخروف ويوزعه على الفقراء. رفض عبدالناصر؛ فدفن

الخروف في حديقة البيت الذي عاش ومات فيه. ودفن الخروف تحت لافتة تقول: هنا يرقد أعز أصدقائي ـ أما أعز أصدقائه فهي الكلاب! هذا ما قلته لأصغر ملوك مصر الحديثة وهو واقف إلى تابوت أصغر ملوك مصر القديمة ـ يرحم الله من يستحق الرحمة من الجميع!

واحد وأمامه 621 صفرًا

هذا هو الكون!

نشرت هيئة الفضاء الأمريكية (ناسا) عشر صور هي أروع ما التقط المرصد الفضائي (هابل) في 16 عامًا وقد تكلفت 1500 مليون دولار. وسوف يضعون عيونًا أخرى لهذا المرصد. أما الصور فأعجوبة في الشكل واللون. الصورة رقم واحد اسمها السومبريرو (القبعة المكسيكية. وهي مجرة تبعد عنا 28 مليون سنة ضوئية (السنة الضوئية عبارة عن ستة أمامها 12 صفرًا من الأميال). وهذه المجرة بها 800 ألف مليون نجمة مثل الشمس وعرضها خمسون ألف سنة ضوئية!

ورقم 2 هي السديم الذي يشبه النملة وهو يبعد عنا ما بين ثلاثة آلاف وستة آلاف سنة ضوئية..

ورقم 3 اسمها الإسكيمو لأنها تشبه وجه أبناء الإسكيمو والقبعة التي يرتدونها. وهذا الفرو المصنوع من القبعة يبدو كالمذنبات ملايين ملايين من السحب الغازية الهاربة من نجوم تموت وتبعد عنَّا ثلاثة آلاف سنة ضوئية..

والرابعة هي سديم يشبه عين الساحر في قصص الطفل هاري بوتر..

والخامسة صورة سديم يبعد عنا ثمانية آلاف سنة ضوئية وهي عبارة عن حلقات متداخلة. والرياح التي تهزها وتجرها في وسطها أضعف من الرياح الخارجية..

والسادسة هي سديم على شكل قمع والجزء الذي التقطه المرصد هابل طوله سنتان ضوئيتان ونصف أي ما يعادل 23 مليون رحلة ذهاب وعودة إلى القمر..

السابعة ويسمونها العاصفة الكاملة وهي منطقة صغيرة في سديم البجعة وهي تبعد عنّا 5500 سنة ضوئية ويصفها العالم بأنها محيط من فقاقيع الهيدروجين وكمية أقل من الأوكسجين والكبريت وعناصر أخرى..

والثامنة يسمونها (الليلة التي تتلألأ) لكثرة النجوم الزاهرة فيها. وهي تشبه لوحات الفنان الكبير فان جوخ لأنها هالة من الضوء حول نجمة في الطريق اللبني..

والتاسعة اسمها العينان اللامعتان فهي تبعد عنا 114 مليون سنة ضوئية وهي عبارة عن سديمين متداخلين.

والعاشرة يسمونها (سديم الحضانة) وتبعد عنا تسعة آلاف سنة ضوئية، وفي هذا الكون الهائل تتوالد النجوم.

ولعلك تلاحظ أن عبارتي، وعبارة أي واحد يتعرض لهذه الأبهة والعظمة الضوئية والكونية يعجز عنها التعبير.. إنها صورة تراها وتتوه فيها..

أما آخر نظرية في تفسير الكون - هذه العبارة فيها خطأ علمي لا يمكن السكوت عليه – فهى ليست (آخر) وإنما هي (أحدث) نظرية.. لأن آخر نظرية هي عندما يقولها آخر إنسان على كوكب الأرض.

فأحدث نظرية تقول إن الكون الذي نعرفه ليس إلا جزءًا من كون آخر أو أكوان أخرى. وهذا الكون عبارة عن 1 وأمامه 621 صفرًا!! هل تستطيع أن تتخيل ذلك؟ طبعًا لا! ولكن هذه هي بعض الحقيقة حتى الآن.. فما أصغرنا في ملكوت الله.. وما أروع هذه العينات من صور الكون الصغير جدًّا الذي نعرفه!

الغناء: في تنظيم التنفس

عندما جاء المخرج الأمريكي سيسل دي ميل إلى مصر لتصوير فيلم (الوصايا العشر) بالقرب من منطقة الأهرام سألته: من فضلك ما هي الوصايا العشر لمن يريد إخراج أو إنتاج فيلم؟ فقال: الوصايا السبع الأولى أن تكون القصة جميلة!

وهي مشكلة السينما المصرية والعربية في هذا الزمان. فما أكثر الوجوه والحناجر، ولكن ما أندر القصة الحلوة!

ولما جاء الموسيقار والمطرب الأرمني الفرنسي شارل أزنافور سألته: ما هي وصيتك أو وصاياك العشر لأي مطرب؟ أجاب: أولاً أن يكون صوته جميلاً. أما الباقى فأمره سهل!

فعلاً. كان محمد عبدالوهاب يقول إنه مستعد أن يلحن ويغني خبرًا منشورًا في صحيفة. فالمهم هو الصوت أما الكلام واللحن فيجيء في الدرجة الثانية..

وقال أزنافور أيضًا: إنهم في المعاهد الموسيقية يعلمونهم (طول النفس) أو تطويل النفس.. أي بالغوص تحت الماء أطول فترة ممكنة.

المعنى: أن يتحكم المطرب في تنفسه؛ لأن الغناء هو فن تنظيم التنفس؛ ولذلك أم كلثوم لا تسمع صوتها وهى تتنفس.. إنها قادرة على أن تخرج أنفاسها بحساب.. أما معجزة القراءة الشيخ محمد رفعت فهو يستطيع أن يقرأ سورة من قصار السور في القرآن الكريم في نفس واحد ـ من دون أن تسمعه يتنفس، بينما المطرب الشابّ يغني ويلهث. لماذا؟ لأنه ليس في صحة جيدة؛ ولأنه لم يتدرب تحت الماء ولأنه يسهر ويشرب ويرهق نفسه وينتقل بين الكباريه والشارع. أي من درجات حرارة متباينة مما يؤثر على حنجرته. وكان من رأيي ـ ولا يزال ـ أن المطرب الشعبى أحمد عدوية هو أقوى صوت عربى على الإطلاق.. فهو يشرب ويدخن ويخرج من الدافئ إلى البارد كل ليلة ولا يزال صوته قويًا. ومن الغريب العجيب أن هذا رأي الموسيقار محمد عبدالوهاب.. ولكنه لم يشأ أن يجاهر بذلك حتى لا يُغضب المطربين. ولكن هذا رأيي ولو غضب كل المطربين. وقد غضبوا!

أزنافور حضر مهرجان القاهرة السينمائى.. قصير القامة أبيض الشعر جميل الصوت. كان سائق تاكسي.. فلاحظ أحد الركاب أن صوته جميل، فسأله: من صاحب الأغنية؟

قال: أنا..

قيل له: أقصد المؤلف والملحن؟

أجاب: أنا أيضًا..

وأخذه من يده إلى الإذاعة الفرنسية؛ ليولد نجم الغناء الرومانسي في القرن العشرين!

عبدالقادر خان هو السبب !

رصدت المخابرات البريطانية والأمريكية عددًا من السفن تقف طويلاً وليلًا في ميناء تارانتو في أقصى الجنوب من إيطاليا، ومن هذه السفن تنزل صناديق في طريقها إلى ليبيا. وكان هذا هو أول الخيط في شبكة اليورانيوم التي يديرها العالِم الباكستاني عبدالقادر خان..

وكان الهدف تزويد ليبيا باليورانيوم تمهيدًا لتخصيبه وصناعة قنبلة ذرية.. واتسع نطاق هذه الشبكة السرية أو السوبر ماركت النووي إلى إيران وكوريا الشمالية.. هم يدفعون بالملايين وهو ومعاونوه من الألمان والهولنديين يكسبون عشرات الملايين..

وكان عبدالقادر خان وطنيًا متطرفًا يريد أن يزود بلده بالقنبلة الذرية.. وكان بلده على علم بنشاطه ويذكر له ذلك ويشكره وييسِّر له المال والحركة.. والمخابرات الأمريكية ترصده خطوة بخطوة وفي نفس الوقت لا تريد أن تقامر بالصداقة التقليدية بين باكستان وأمريكا؛ فباكستان هي التي تساعد المجاهدين في أفغانستان ضد القوات السوفيتية.. واتسع نشاط عبدالقادر خان فكان يلتقي الزبائن في إسطنبول وفي أماكن أخرى من جنوب إفريقيا. والبضاعة هي

أنواع من اليورانيوم المخصب أو الذي يمكن تخصيبه من أجل رؤوس نووية أو قنابل نووية..

وانتقل عبدالقادر خان من إيران إلى صدام حسين. ففي الحرب الأولى على الكويت اكتشف الأمريكان بعض التعاقدات مع عبدالقادر خان. وفي الحرب على العراق نفسها تم تفتيشه تفتيشًا دقيقًا لم يجدوا أسلحة الدمار الشامل ولكن وجدوا تعاقدات مع شبكة عبدالقادر خان على تزويد العراق بمفاعلات وبكميات كبيرة من اليورانيوم المخصب من مفاعلات سرية في جنوب إفريقيا..

وحاولت كل أجهزة المخابرات محاصرة عبدالقادر خان ومعرفة نقاط ضعفه. لم يجدوا إلا نقطة ضعف واحدة هي: الفلوس.. الجشع الشديد. وتكدست الملايين فوق الملايين. وكان لا بد أن تتخذ الحكومة الباكستانية موقفًا صارمًا. وكان لها موقف؛ فاعتقلت عبدالقادر خان في بيته.. فقد اعترف بكل شيء. ومن المؤكد أنه رجل وطني. وهذا هو الذي يشفع له، وهو مريض بالسرطان ويكفيه عذابًا..

ورفضت حكومة باكستان أن تتصل به أية هيئة علمية أو مخابراتية لمعرفة من هي الدول الأخرى التي باع لها اليورانيوم ثم أعطاها تصميمات المفاعلات والتى لا يعرفها أحد. ولكن الحكومة أصرَّت على الرفض. وسوف يموت عبدالقادر خان، وكثير من الأسرار يحملها إلى قبره؟!

أيها الكون من أنت ؟!

مش عـارف هل أطلـب إلى كـل قـارئ أن يجرب النظر إلى السمـاء. لا توجد سماء في المدن، وإنما تراب وهباب وسحاب ودخان وراء هذا الكون.. ووراءه بعيدًا جدًّا: نجوم السماء. وليس في استطاعة أي قارئ أن يذهب إلى صحارى السعودية أو الصحراء الغربية أو صحراء نيفادا أو صحراء كلهاري؛ ليرى جلال الله وعظمته.. سوف يرتعش ويرتعد مما سوف يراه؛ فلا أول ولا آخر ولا بداية ولا نهاية لما يراه. ومجرد التفكير في ذلك يصيبه بالدوخة..

وهذه محاولة متواضعة لتبسيطه وتفسيره. هذه المحاولة ليست من عندي ولا أقدر عليها، ولكني أنقلها لك عن العالم الفلكي الكبير كارل ساجان. وقد جاءنا في مصر وذهب إلى الإسكندرية، ورأى في الإسكندرية ودرس وتعمق وقال ذلك في سلسلة أحاديثه التليفزيونية بعنوان «الكون».. تحفة علمية رائعة..

نفرض ـ أقول نفرض ـ أو الأصح هو يقول: نفرض أن الكون الذي خلقه ربنا عمره سنة، أي 365 يومًا. نفرض.. أقول نفرض أننا نريد أن نفسر لأنفسنا هذا الكون: ما طوله ما عرضه ما وزنه ما عمره؟ سوف نجد أننا شيء ضئيل جدًّا بين الأبدية والخلود. فهذه المجرَّة التي هي

ألف مليون نجمة كالشمس تقع منظومتنا الشمسية في أقصى الجنوب منها. وهذه المجموعة مثل ذرة تطير في الهواء في ضوء الشمس..

ندخل في الموضوع، ولا ننسى أنني قلت نفرض أن عمر هذا الكون 365 يومًا.. ففي أول يناير من هذا العام ظهرت المجرة أو الطريق اللبني أو درب التبانة.. وفي يوم 9 سبتمبر ظهرت المنظومة الشمسيّة.. ويوم 18 سبتمبر ظهر كوكب الأرض.. ويوم 25 سبتمبر بدأت الحياة بأشكالها البسيطة البدائية على سطح كوكب الأرض.. ويوم 9 أكتوبر عرفنا أقدم الحفريات التي توجد بها البكتريا.. ويوم أول نوفمبر ظهر الجنس بين الكائنات الميكروسكوبية (المجهرية).. ويوم أول ديسمبر ظهر للأرض جو من الأوكسجين.. ويوم 24 ديسمبر ظهرت الديناصورات.. ويوم 25 ديسمبر ظهرت الثدييات.. ويوم 28 ديسمبر ظهرت الزهور وانقرضت الديناصورات..

أما عن يوم 28 ديسمبر الساعة العاشرة مساء فقد ظهر الإنسان.. وفي الساعة الحادية عشرة و59 دقيقة ظهرت اللوحات التي رسمها الإنسان في الكهوف الأوروبية.. وفي الساعة الحادية عشرة و15 دقيقة اخترع الإنسان الزراعة.. وظهرت الحضارة. وظهرت الأسرة المالكة في سومر ومصر الفرعونية، ثم ظهرت النهضة الأوروبية والعلوم والتكنولوجيا.. والآن نحن في الثانية الأولى من أول دقيقة في أول ساعة من أول يوم في سنة جديدة!

نفرض مرة أخرى - وأقول نفرض - أن الكون في مثل مساحة ملعب كرة القدم. فالمجموعة الشمسية مثل حبة سمسم في ركن من هذا الملعب..

قطط الأدباء وكلابهم!

إنها مسألة مزاج؛ فعدد من الأدباء لهم مزاج خاص في العناية وعشق بعض الحيوانات أو الحشرات..

فالشاعر اللاتيني فرجيل كان يتأمل الذباب.. والشاعر المصري البديع محمود حسن إسماعيل كان يربي الثعابين.. والأديب الروسي نابوكوف مؤلف رواية (لوليتا) كان يحب الفراشات ويجري وراءها في الغابات حتى اكتشف نوعًا منها ودخل التاريخ باسمه..

وتوفيق الحكيم كان يحب الحمار، وكان سعيدًا بطيبة الحمار واستسلامه وأعصابه الهادئة. وكذلك كان الشاعر الإسباني خيميز الفائز بجائزة نوبل في الأدب؛ له كتاب رقيق من أبدع النثر في اللغة الإسبانية اسمه (بلاتير انا) وبلاتير هو اسم الحمار. والكلمة معناها الذي لونه فضي. وكان الحمار أبيض فضيًّا.

والأستاذ العقاد كان يحب الكلاب.. وله قصائد في كلب له اسمه (بيجو)..

والدكتور لويس عوض قد ملأت زوجته الفرنسية بيته بالقطط عشرين.. ثلاثين..

والعالم الموسيقي الدكتور حسين فوزي عنده قطط أضعاف ما عند لويس عوض. وقبل أن يموت حسين فوزي ترك بيته بكل ما فيه من أثاث وكتب وقطط لخادمته لعلها تعتني بهذه القطط وألا تتناقص.. ويقول الذين زاروا بيت الدكتور حسين فوزي أخيرًا: لا توجد به قطة واحدة!

وكان الأستاذ العقاد يضع على مكتبه تمثالًا لبومة، وكان يسكن البيت رقم 13 ـ ويقول: إنه لا يتشاءم لا من البومة ولا من هذا الرقم. وكان الناس يتشاءمون من دراسة ابن الرومي؛ فكتب العقاد عن ابن الرومي أروع دراسة في الأدب الحديث..

وكان عندي قط سيامي، وكان مشكلة لأنه يذهب إلى بيت أحد الجيران ويقضي حاجته هناك. ولا أعرف حتى الآن كيف عرف القط أنني لا أحب هذا الجار؛ فاتخذ هذا الموقف، وسقط هذا القط من الطابق التاسع ومات!

وأتيت بقط آخر استطاع أن يملأ البيت بالقطط من أبنائه، وكان يعود آخر الليل مرهقًا ويلقي بنفسه على الأرض مرفوع السيقان مهدود الحيل: فأخذته إلى حديقة الحيوان المجاورة وأجري له الأطباء عملية تنهي علاقته بالإناث.. وفي يوم سمعت مواء وصراخًا من القطط. ولما فتحت الباب وجدت القطط الإناث قد قضت عليه، وحزنت. وتأكد عندي أن الأنثى انتقامها رهيب، كأنه خانها وانسحب فجأة وتركها بلا ذكر. وفي يوم فتحت الباب فكادت القطط الإناث أن تفتك بي ـ ومعها حق!

بخلاء .. ولكن ظرفاء أيضًا!

أشهر البخلاء في حياتنا الأدبية توفيق الحكيم.. سألت طه حسين إن كان الحكيم بخيلًا فعلًا، قال: لا.. ولكنه يحب أن يتحدث عنه الناس!

وكان توفيق الحكيم يحب أن يتكلم عن بخله هو.. ويضرب لذلك أمثلة كثيرة. فكانت فلوسه وهي قليلة في أصغر جيب في البنطلون أو يضعها في حافظة النظارة. أقسم بعضهم أن الحكيم كان يضع الفلوس في جوربه. ولكني لست على يقين من ذلك. مع أنه لا خوف منه ولا خوف عليه. ولم يكن الحكيم غنيًّا؛ فأمه هي التي تدير الأرض التي تركها والده وهي التي توزع عليه وأخوته ما يخرج من الأرض وتبيع ثمارها وخصوصًا (مخلفات) الحمام والدجاج! وكل واحد من أعضاء المجلس الأعلى للثقافة عنده حكاية مع توفيق الحكيم لدرجة أنه عندما أقيمت له حفلة بمناسبة عيد ميلاده فبدلاً من أن نتحدث عن الأديب صاحب المقال البديع والقصة الرشيقة والمسرحية المحبوكة أخذنا الكلام والحديث عن بخل الحكيم. ورأيت أن هذه جلسة وحفلة تافهة فقررت إلغاءها وعدم إذاعتها في التليفزيون!

وقالوا أيضًا عن أستاذنا العقاد ولا أعرف كيف؛ فلم تكن علاقتنا بالعقاد تسمح بذلك؛ فنحن نراه كل يوم جمعة. هو المتكلم ونحن المنصتون. وبس. وأحيانًا نلتقي به في المكتبات. وأصدقاؤه المقربون يتناولون الغداء والعشاء معه. ولم يذكر أحد أنه بخيل. ولا أعرف لو كان العقاد كريمًا فما الذي يصنعه في جلسة أدبية فلسفية كل أسبوع؟!

وقالوا عن أستاذنا طه حسين أيضًا. ولا أدَّعي أنني كنت في وضع يسمح لي بالحكم عليه.. أو بمثل هذا الحكم. مرة واحدة قال لي: إذا تحدثت في التليفزيون فيجب ألا أعطى مبلغًا أقلّ من العقاد. وهذا حقه. وهذا ما حدث. ولا أرى في ذلك لا كرمًا ولا بخلًا. وإنما كبرياء وكرامة!

وأستاذنا الفيلسوف عبدالرحمن بدوي. قالوا بخيل. وأقول أيضًا؛ فهو غني، ولكنه يرتدي بدلة واحدة، وحزامًا من الجلد. حزامًا واحدًا. وكرافتة من جلد الأفعي. كرافتة واحدة. وأذكر أنه دعاني إلى الغداء في حي سيدنا الحسين، هو يأكل كثيرًا. وأنا آكل الصلصة فقط فأنا لا آكل اللحم. ولم يشأ د. بدوي أن يطلب طعامًا آخر؛ فاكتفى بالنظر وأنا آكل الخبز والصلصة. وبدلًا من أن نركب التاكسي من سيدنا الحسين إلى البيت في الجيزة سرنا على الأقدام أكثر من عشرة كيلومترات. هو يقول إن الطعام يجب هضمه قبل أن نصل إلى البيت.. طعامه هو يحتاج إلى هضم أما طعامي أنا فمحتاج إلى طعام! وأقول إن منصور باشا فهمي كان رجلًا بخيلًا؛ فقد تصادف أن جاء أستاذ سويسري ليلقي محاضرة موضوعها (ميتافزيقا الموسيقى).. وكان لابد أن

ننقل البيانو من بوفيه الكلية إلى أحد المدرجات. ولكي ننقل هذا البيانو لا بد أن ندفع مبلغًا من المال لمن ينقلون البيانو. أما أنا فلا أقدر على ذلك ولا زملائي. وكان المبلغ لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين قرشًا. ونحن طلبة صغار والباشا لم يحاول بل راح يناقش ويفاصل. فماذا حدث؟ لقد ألقى المحاضرة!

أحدهما ميت!

ليس أسهل من علاقة بين ذكر وأنثى.. عند المرأة والحيوانات.. إنها علاقة متينة ناجحة خصيبة، من ملايين السنين. وهذه العلاقات بين الناس ممكنة أيضًا. وهي لا تحتاج إلا لنفس الدوافع الغريزية الموجودة عند الحيوانات الأخرى. وفي المجتمعات الإنسانية ملايين يحققون هذه الرغبات بنفس الحيوانية، أي لا يشترطون أي عاطفة أو احترام..

أصعب العلاقات: الزواج.. فالزواج علاقة أو رباط من الممكن أن يكون مجرد التقاء رغبات ومصالح. وهناك زيجات قائمة على مجرد رغبة أحد الطرفين في الآخر من دون أن يكون هناك اتفاق بين الطرفين على قيام هذه الشركة.. ملايين الفتيات تزوجن رجالًا لا يشعرون نحوهم بأي حب.. وقد أمكن مثل هذا الزواج من مئات الألوف من السنين.. ولا يزال ممكنًا!

أصعب العلاقات الزوجية: الحب..

فالحب معناه التقاء حر بين رغبات كثيرة نفسية واجتماعية وعقلية وجسمية أيضًا.. ومحاولة مستمرة بين الاثنين على توفيق كل

وجهات النظر حتى تكون واحدة.. وفي الحب قوة عجيبة غريبة قادرة على تحريك كل الطاقات المخزونة والمعطلة في الأعماق الإنسانية.. كأن هذه القوى الغريبة تحرص على أن تجعل المحب عريسًا.. أو كأنه عريس مزود بكل أسلحة القوة والجمال والحنان والأبوة والفروسية.. وتجعل الفتاة في غاية النعومة والأمومة وبعد النظر.. من أجل أن تبقى هذه العلاقة، ومن أجل أن يكون عش وفي العش عصافير صغيرة تستأنف رحلة الأبوين نحو أعشاش جديدة!

والحب أصعب العلاقات وأروعها وأكثرها قسوة أيضًا.. فالمحبون قساة على أنفسهم.. ظالمون لأنفسهم ولغيرهم من الناس، ويبالغون في كل شيء.. وتصبح العلاقة مرهقة للجميع.. لأن الحب هو جوهر كل العلاقات.. فإذا اهتز، اهتزت الدنيا كلها!!

وأصعب من الحب: الصداقة!

الصداقة بين رجل وامرأة صعبة جدًا؛ لأن الصداقة معناها أن يرتفع الجميع بشعوره فوق كل ما يثير ويمتع ويوجع أيضًا.. فوق اللمس.. فوق الهمس.. فوق المنفعة.. يرتفع الإنسان فوق الإحساس.. ولكن لا ينكره. وارتفاعه فوق الإحساس، معناه ألا يهتز به، وفي نفس الوقت يحتفظ به وهذا صعب.. ولكن ليس مستحيلًا. فما أندر أن يجد الإنسان صديقًا يحبه بلا مصلحة، ويقدره بلا ثمن.. وربما كانت صعوبة الصداقة بين الرجال والنساء أو بين الرجال والرجال، هي التي جعلتنا نستريح إلى زيارة المقابر.. فهذه الزيارة لها معنى واحد: أن الصداقة لا تقوم إلا بين اثنين: أحدهما ميت.. أو من الأفضل أن يموت!

طالت أعمار الذي كتبوه !

تعرف أنك كبرت وطال عمرك عندما يقول لك أي واحد ومن غير مناسبة: ربنا يديك الصحة وطول العمر.

يعني أن صحتك مش ولا بد. وأن عمرك رغم أنه طال، فهو يدعو الله أن يزيد في عمرك. فأنت عادة لا تدعو للصغير أو للشباب بالصحة، فهو صحيح. وإذا مرض سوف يعاود الصحة، ولا تطلب له العمر الطويل؛ لأن عمره أمامه طويل، والسعوديون استراحوا إلى أن يقولوا لكل إنسان: طال عمرك أو يا طويل العمر، صغيرًا أو كبيرًا!

ومن علامات تقدمك في السن أن يأخذك الناس على (قد) عقلك ويسمعوا كلامك ونصائحك، فما دمت كبيرًا في السن، فلا معنى لمناقشتك لرجل أفكاره قديمة أو أحلامه مختلفة.

وكان الكاتب الساخر برنارد شو يقول: انتهى كل شيء، فالرأس جاف والعضلات مترهلة والجليد في كل مكان والقرف في المعدة وفي النظر إلى وجوه الناس الذين يتظاهرون بأسفهم على مرضي أو شيخوختي، ولكني لم أشعر بالشماتة فيهم، فسوف يلقون نفس التعب والجحود وشماتة الصغار فيهم.

وكان تولستوي إذا أدخل فراشه قال لنفسه: هذه آخر ليلة لك في هذه الدنيا، فحاول أن تنسى المقلب الذي جاء مع ميلادك.. فإذا صحا من نومه ونظر حوله: لم يتغير شيء؟ كان يقول: فأنا نمت وصحوت ولكن الدنيا هي التي ماتت من أمس إلى اليوم إلى غد.

وكانت إذا نادته زوجته لأن البيت قد امتلأ بالفلاحين الذين يحبهم تولستوي وتضيق بهم زوجته كانت تقول له: ليو.. الكلاب في البيت.. انهض.. انبح. ابصق على رعاياك يا مولاي إن كنت ما تزال حيًا!

وكان الشاعر الألماني الساخر هينه ينظر من النافذة وهو في فراش المرض ويقول: أيتها السحب وأيتها النجوم لن تجدي من يراك ولا من يعجب بك، أنت تستأهلين هذا العقاب، والآن أموت كما أنت ميتة من ملايين السنين!

وفي كتاب «في بيتي» للأستاذ العقاد يصف لنا كيف أن السن تقدمت به. وأنا أكتب من الذاكرة ـ يقول العقاد كيف كان يصعد الدرج إلى بيته رقم 13 شارع السلطان سليم بمصر الجديدة:

كنت أصعده ثلاثًا ثلاثًا، وصعدته اثنتين اثنتين والآن أصعده واحدة واحدة، كنت أصعده وبياض شعري يتوارى في سواده، واليوم سواد شعري يتوارى في بياضه.

لم يعد لهم عمر، ولكن طالت أعمار ما قالوا!

الذين لا يعرفون الإجازة !

في حفلة عشاء على شرف ولي العهد المغربي - الملك الآن - قابلت السيد علاء مبارك ابن الرئيس مبارك. قلت له: عندي رسالة للرئيس، لماذا لا يأخذ إجازة أسبوعية وسنوية يستريح فيها، ويستريح الوزراء أيضًا.

وقلت: إن الرؤساء الذين يحكمون الكرة الأرضية والكواكب أيضًا يصيدون الأسماك ويركبون الخيل، والإجازة مقدسة، واليهود،لكي يجعلوا الإجازة مقدسة قالوا: إن الله خلق العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع الذي أصبح راحة لكل الناس، أو يجب أن يكون، وسألته: هل يمكن أن تنقل هذه الرسالة إلى الرئيس، فأجاب: سوف أفعل.

ثم التقيت بالسيدة سوزان مبارك وقلت لها: يبدو أنني سوف أقنع الرئيس بأن يأخذ إجازة، وسوف يتبعه الوزراء ويتبع الوزراء المديرون وبقية موظفي الدولة.

وضحكت السيدة سوزان مبارك وقالت: ياه.. إيدي على كتفك، نحن نحاول ذلك من ثلاثين عامًا ولم نفلح!

وعرفت من زملاء الرئيس في الكلية الحربية أنه لم يكن يغادر الثكنات ولا يعطي نفسه إجازة لا أسبوعية ولا سنوية.

والتقيت بالرئيس مبارك وقلت له: يا ريس أنا بعثت لك رسالة مع علاء مبارك فما رأيك؟

وبدت الدهشة على وجهه وخيل لي أن علاء مبارك لم يبلغ والده، فأعدت ما قلته من قبل، واندهش الرئيس وسألني: يعني إيه؟ يعني إيه إجازة، وماذا أفعل بهذه الإجازة؟ قلت: ولا حاجة يا ريس!

لقد انضبطت حياته على أن يعمل كل يوم ولا معنى للإجازة، وعرفت أن كلمة «الإجازة» أو «ويك إند» ليست موجودة في اللغتين الصينية واليابانية، وأن اليابانيين لم يعرفوا الإجازة إلا في ظل الاحتلال الأمريكي.

وأعجبني توني بلير رئيس وزراء بريطانيا؛ فقد أصرَّ على الإجازة، وعابوا عليه أن هناك مشاكل في الحزب بينه وبين الوزراء، وتمسك بإجازته هو وأولاده، وعندما كانت زوجته حاملًا بأصغر أبنائه طلب إجازة وضع، أي إجازة حتى تضع زوجته طفلها، وقالوا كثيرًا، واستنكروا، ولكن من حقه أن يأخذ إجازة، وأخذها حتى ولدت زوجته.

وأطباء الصحة النفسية والعقلية يرون أنه لا بد من الراحة، لا بد أن توقف نشاطك الجسمي والعقلي والنفسي، أي لا بد أن تريح نفسك من نفسك، أو تريح جسمك من عقلك، وأن تريح عقلك من كل شيء، والحديث النبوي الصحيح يقول: إن لبدنك عليك حقًّا.

والذي لا يأخذ إجازة بالذوق يأخذها بالقوة، أي بقوة المرض الجسمي أو النفسي. أقول قولي هذا وأنا لا أعرف كيف أستدرج نفسي إلى اللا عمل واللا فكر .. مع الأسف!

موسوعة المرأة عبر العصور ..

سألت السيدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية: ما رأيك؟ فأجابت: موافقة تمامًا. فقد كنت أعرض عليها أن أتولى نشر موسوعة عن المرأة المصرية والعربية والإنجليزية؛ لأن القليل جدًا مكتوب عن المرأة المصرية والعربية، وبعد سنتين أكملت الموسوعة في عشرة أجزاء.. وهي معروضة الآن في المعرض الدولي للكتاب. واسمها «موسوعة المرأة عبر العصور». وتشرفت برئاسة تحريرها والإشراف عليها ومراجعتها.

فقد لاحظت أن دوائر المعارف العالمية للمرأة إذا تحدثت عن مصر ذكرت كليوبطرة ونفرتيتي وحتشبسوت. وإذا حاولت أن تكون معاصرة أضافت لها أم كلثوم، وإذا حاولت أن يكون لها مذاق اجتماعي تحدثت عن السيدة هدى شعراوي، وإذا أرادت الموسوعات أن تتحدث عن حرية المرأة العربية أشارت إلى السيدة راوية عطية أول عضو في البرلمان المصري.

وجاءت الموسوعة شاملة لا كاملة، فالأسماء التي لم نضعها في الموسوعة ما تزال في مراحل تكوينها، فلم تقدم ما يستحق الإشارة إليه والإشادة به؛ ولذلك لا بد أن تظهر هذه الأسماء في الطبعات القادمة لهذه الموسوعة..

وحرصًا منّا على أن نحقق العدل والإنصاف طلبنا من كل الدول العربية أن تبعث إلينا بأسماء من تراهن علامات بارزة في النشاط العلمي والأدبي والفني والاجتماعي، أي من تختاره هي وليس نحن، ومن الغريب جدًّا أن أكثر الدول العربية لم تشأ أن تبعث لنا بأسماء السيدات اللاتي يشغلن أماكن مرموقة في كل مجالات الحياة. شيء غريب. إن الوقت كان كافيًا جدًّا لاختيار رموز الحياة في كل بلد. ولكن أحدًا لم يفعل!

والموسوعات العربية القديمة كانت تتحدث عن الشاعرات والمغنيات والراقصات والعشيقات، مثلًا كتاب «الأغاني» للأصفهاني وغيره من الكتب.. ففي «الأغاني» تجد المطربات والشاعرات.. هذه لها أغنية وهذه لها قصيدة. ولكن لا نعرف شيئًا كافيًا عن حياتهما ولا متى ولدتا ومتى ماتتا..

وليس من الضروري أن تكون الأديبة أو الفنانة أو العالِمة قد ماتت وإنما أكثرهن من الأحياء، فقد أنتجن ما يستحق الاهتمام، ولذلك اتسعت هذه الموسوعة لكل الأديبات والشاعرات والفنانات والممثلات والمطربات والراقصات والوزيرات والعميدات والمذيعات.

ولا بد أن تضاف أسماء أخرى كثيرة من البلاد العربية الشقيقة كما اتسعت إلى ألوف الأسماء العالمية في كل اللغات والقارات.

ولا أعتذر عن أسماء لم ترد في الموسوعة، فسوف تظهر في الطبعات القادمة.. فكما أنها قابلة للزيادة، فهي قابلة للتصحيح والمراجعة. وهي مشروع سوف يكبر ويتكامل. والمهم أنها صدرت!

الثلاثة يحبونها ويلغون أنفسهم!

من خطايا الشباب ما فعلناه نحن الثلاثة: إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعي وأنا. وهي غلطة لم نستطع أن نعترف بها أو نشير إليها.. ومضى الزمن الطويل غطاء وسترًا وترابًا انهال على هذه الواقعة القديمة..

كنا في بيروت وأمامنا حمام السباحة في فندق فينقيا.. والدنيا صيف.. والبنات الجميلات يرحن ويجئن. وبعضهن كن يلتفتن إلى إحسان عبدالقدوس وإلى يوسف السباعي.. وجلست أكثر من واحدة. وكان كلام.. وكان إحياء لعلاقات قديمة..

ثم جاءت واحدة. ونظرت وابتسمت وجلست وطال جلوسها ولقاؤها يومًا بعد يوم. وصارت صديقة لنا. وكذلك زوجها السياسي الكبير. وجاءت إلى القاهرة وظل الود القديم متجددًا. وامتلأت المسافات بيننا بجميلات من لبنان ودمشق. ولكن بقيت هي.. وليكن اسمها «ع»..

وقفزت من حواراتنا فكرة. وقلت: ولم لا والله فكرة!

أما الفكرة فقد اهتدينا إلى قصة قصيرة وناقشناها. وأطلنا مقدمتها وخاتمتها أيضًا. وجاء السؤال: من الممكن أن نكتبها.

يوسف السباعي يبدأ بكتابة ثلثها الأول وإحسان يكتب الثاني وأكملها أنا.. وعدنا إلى القاهرة وظهرت القصة واقترح إحسان عبدالقدوس أن أجري فيها قلمي وألعب وأتلاعب بالعبارات والمعاني. ولم لا! واقترحت ألا نكتب أسماءنا عليها وإنما نكتب اسم «ع».. فلسنا في حاجة إلى مثل هذه اللعبة أو النكتة.. ووافقنا.. وأهدينا الرواية إلى صديقتنا. وقبلتها سعيدة شاكرة.. وأقامت حفلة بهذه المناسبة وكان زوجها أكثر سعادة منا. فلم يكن يعرف أن زوجته أديبة بهذه القوة والجمال وظهر الكتاب في لغات مختلفة ويكفينا نسخة هدية مع كل طبعة جديدة. وبسبب هذه الرواية أصبحت أديبة مرموقة.. ها ها، ولا كلمة من أي واحد منا!

نصفق بمناسبة وتصفيق حاد بلا مناسبة!

لا أعرف متى ظهر التصفيق في التاريخ. وأغلب الظن أنه ظهر عندما ظهر الكذب أيضًا..

ومرة واحدة عايشت تجربة التصفيق بلا معنى. فقد كنت في كوبا عضوًا في الوفد المصري لدى «مؤتمر القارات الثلاث» في هافانا عاصمة كوبا.

وذهبنا إلى سماع خطاب الرئيس كاسترو. ورأيت ولم أكن أتخيل قط. فالخطاب ست ساعات. ولا شيء يوجع أكثر من التصفيق وقوفًا لكل عبارة. مثلاً: اجتمعنا هنا. وهذا شرف لنا (وقوف وتصفيق حاد). نحن دول آسيا (تصفيق ووقوف).. وإفريقيا (تصفيق أطول ووقوف) وأمريكا اللاتينية (تصفيق أطول ووقوف أطول وجلوس متكاسل).. لقد أحصيت عدد المرات التي وقفناها أربعين مرة.. ولم أعد أكلف نفسي أن أعد المرات التى وقفنا فيها.. إلى أن انتهى الرئيس كاسترو من خطابه فكان الوقوف أطول والتصفيق أعنف. وجلس الرجل وجلسنا!

ونحن الشرقيين نصفق كثيرًا. ولولا أنه حرام لصفقنا للقراء في المساجد. وإن كنا نقاطعهم بالاستحسان مع أن هذا يفسد الموقف المحترم. ولا نجد حرجًا في أن نقاطع أم كلثوم وهي تغني.

وجاءنا المايسترو الألماني الأرمني فون كاريان. ولم نفلح في إقناعه بأن يتقبل تصفيق الجمهور فليس مألوفًا عند العازف أو المايسترو والجمهور الأوروبي مثل هذا التصفيق. إنهم يصفقون في النهاية لا في لحظات الصمت.

وغضب المصريون ووضعوا أيديهم في جيوبهم. لم تعجبهم شجاعة وجرأة الرجل الذي لم يهمه أن يكون الملك فاروق بين الحاضرين.. فصفقوا له تصفيقًا حارًا. وأحنى الرجل رأسه (فقد غلبه الموقف فابتسم). فصفقوا له!!

العيب فيهم لا في الشمس!

حاورت الأديب الإنجليزي الكبير سومرست موم. جاء إلى القاهرة وقد تجاوز الثمانين من عمره، وارتعشت يداه وصوته، وتساقطت الكلمات في المسافة التي بيننا فكانت السكرتيرة تجمع الحروف وتضع جملة مفيدة. وحاولت أن أتوقف عن المشاركة ولكنه كان يجب أن يقول، والذي قاله بديع. فهو من أصحاب الأساليب الجميلة في كتابة الرواية.

وكان جوابه: لا أعرف. أما الأسئلة فهي هل تعرف العقاد وطه حسين والحكيم وشوقي والمازني وأم كلثوم.

أما الذي قرأه في كل الأدب العربي فهو «ألف ليلة وليلة». وحاول أن يضع أصابعي على مواطن الجمال والخيال في هذا الكتاب البديع. وأدهشني ذلك!

وقابلت الأديب السويسري صديقي ديرنمات الذي ترجمت له سبعًا من المسرحيات ظهرت كلها على المسارح المصرية. وقابلته في برلين وفي سويسرا وفي مصر. وأعدت عليه نفس الأسئلة التي وجهتها للأديب البريطاني. وكان جوابه لا شيء إلا ألف ليلة وليله!

ونشرت ما دار بيني وبين موم وديرنمات، وغضب الأستاذ العقاد وقال: نفرض أن رجلاً أعمى لم ير الشمس. فالعيب فيه وليس في الشمس.

وإذا كان هذا الأديب أو ذاك لم يقرأ الأدب المصري، فهو الجاهل وهو الخاسر. وقد يكون روائيًّا عظيمًا، ولكن من المؤكد أن جهله عظيم!

ولا أرى الحق مع الأستاذ العقاد.. فهو لم يقرأ كل ما كتب موم، ولا قرأ ما كتبه ديرنمات. ولا أقول إن العقاد جاهل أو ليس مثقفًا!

ولما سألت طه حسين عن رأيه فيما قال موم، قال: يا سيدي إنها غلطتنا، فلم ننقل أدبنا إلى لغته. وألف ليلة قد نقلت إلى كل اللغات. ولا أتوقع إن كتابي (الأيام) يستطيع أن يقف إلى جوارها.

وضحك هاها.. هاها.. وقال: العقاد زودها شويتين، هاها!

ذهبت الحمير وبقيت الفصاحة

من أجمل الموروثات الفرعونية، نقلاً عن عميد المؤرخين المصريين الدكتور سليم حسن حكاية الفلاح الفصيح.

هذه الحكاية دخلت التاريخ من باب الأدب وليس من باب الظلم والعدل والسخط واللامبالاة.. يقال إن فلاحًا مسكينًا كان لديه عدد من الحمير، وعلى ظهر الحمير ينقل الحبوب من القرية إلى المدينة.

وفي يوم ذهب يحل مشكلة لدى كبار الموظفين، وترك حميره.. ولم يجد حلاً. ولا وجد الحمير. سرقوها. انتهت حادثة السرقة لتولد حكاية الأديب صاحب الحمير. راح يشكو ويتفنن في الشكوى.. ولما التف الناس حوله راح ينظم شكواه شعرًا.. وكل يوم يضيف جديدًا إلى قصيدته الحزينة ويلتف الناس حوله يستمعون إلى موال الفقير الذي سرقوه. ليجوع ويتضور أولاده جوعًا.

والناس يجيئون إليه من كل مكان يستمعون ويعجبون بما يقول. وقد تسامع به المصريون. حتى الحاكم أيضًا. فاستدعاه وطلب إليه أن يسمعه نشيد الألم واليأس. وأعجب به وكان يستدعيه كلما جاءه ضيوف. وبلغ الأمراء والملك أيضًا ما يقوله هذا الفلاح الفصيح.

ولما ذهب إلى الملك طلب إليهم أن يأتوا له بحمار. ووقف أمام الملك ورحب الحمار. ووجه كلامه إلى الحمار وإخوته «الذين ضاعوا». وبعد أن فرغ من الكلام إلى الحمار وإلى حاشية الملك اتجه إلى الملك وقال وأطال وغنى وتغنى وصفق له الملك وكل الحاضرين. انتهت أوبرا الألم وسيمفونية الفقر..

ولكنَّ أحدًا لم يحل مشكلة الفلاح. أعجبوا بحزنه وأساه. وبس. وخرجت الحمير من التاريخ ودخل الفلاح وبقي شاعرًا مفلسًا مسجلاً على قومه سلبيتهم الأبدية!

نسيت ونسيت وتملكني الفزع!

حدث لي من ثلاثين عامًا. ولا أعرف لماذا؟ تذكرتها بالأمس. فقد اتصل بى رئيس الوزراء وقال لي: أنا في انتظارك..

وبسرعة ارتديت ملابسي وعلى سلم مكتب رئيس الوزراء اكتشفت أنني نسيت أن أرتدي الجزمة.. وإنما ذهبت بالشبشب. وبسرعة عدت إلى البيت وأدخلت قدمي في الجزمة وذهبت إلى رئيس الوزراء. ونسيت أنه في الرباط وليس في القاهرة. وأنه في انتظاري هناك وليس هنا. وأنني نسيت أنه في الإمكان أن أظل مرتديًا الشبشب وسوف يجد لي الناس عذرًا. كأن يقال إن قدمي توجعت أو ساقي أو القدمان والساقان.

وكان لابد أن أذهب إلى أحد أصدقائي من علماء النفس. وذهبت.. ووجد الطبيب أسبابًا كثيرة. من بينها أنني مستغرق في عمل أدبي جديد. وأن هذا الاستغراق عزلني تمامًا عن الواقع. أما هذا الواقع فإنني أكرهه وإنني أريد أن أحذفه من واقعي وحاضري. وهذا الواقع أن أحد أصدقائي قد اعتقلوه. وأرى أنه مظلوم. وذهبت إلى وزير الداخلية ووعدني. ولكنه لم يفعل شيئًا. وقررت أن أذهب إلى رئيس الوزراء الذي سوف ألتقي به في الرباط في اليوم التالي. وذهبت إلى

مكتبه ناسيًا أنه ليس هناك. وأن هذا الحادث الذي ضايقني جدًّا.. وأحزنني على صديقي. وأنني وعدت والدته وإخوته بأنني سوف أحل هذه المشكلة. ولم يكن الأمر سهلاً. فكرهت أن أفشل في حل مشكلة قد وعدت بحلها.. وفي نفس الوقت كرهت أن أذهب إلى الطبيب النفسي وخشيت أن يراني أحد. وقد رآني عدد كبير من المرضى. وهذه الكراهية المركبة أنستني أنني قد جئت إلى الطبيب قبل يومين. ونسيت كل ذلك!!

وسألني الطبيب: كم ساعة نمت أمس؟ فقلت: لا أمس ولا قبل أمس.

وصحبني الطبيب إلى البيت وأعطاني حقنة فنمت عشر ساعات. وبعدها تذكرت كل ما حدث. وأحزنني ذلك على نفسي!

في كل الأحوال انفخ في الناي!

إذا لم تجد ما تقوله فارقص - عبارة قالها الفيلسوف العظيم نيتشه..

وعبارة أخرى قالها الشاعر العظيم جيته لسكرتيره أكرمان ينصح الأدباء الشبان: لا تتعسف ولا ترهق نفسك ولا تعصر دماغك.. انتظر يومًا واثنين وثلاثة فإذا لم تجد ما تقوله فانتظر. وإذا صعب عليك الأمر فامسك نايًا وانفخ.

وهناك رواية ترجمها الدكتور عبدالرحمن بدوي للأديب الألماني فون اشيندروف اسمها «يوميات حائر بائر».. أو إنسان تافه ولا جدوى منه أو لا يصلح لأي شيء وبطل الرواية رومانسي وليس أسهل عنده من أن يزمر.. وينفخ في الناي.. فإذا الدنيا حب في حب.. وإذا نجح زمر وإذا فشل زمر فهو زمار طوال الوقت..

وفي الأساطير الأوروبية توجد شخصية «زمار هاملن».. وهو ينفخ في المزمار فيمشي وراءه الأطفال وينزل بهم إلى البحر..

ويقال إنه في زمن الطاعون في أوروبا كان ينفخ الزمار في الناي وتمشي وراءه الفئران.. ويهبط بها إلى البحر ليقضي عليها حتى لا تقضي على الناس عندما تنتقل إليها العدوى.. وكذلك يفعل

المحزون والمكروب: يزمر فتذهب عنه الهموم والكروب وإذا لم يستطع أن يزمر فليستمع إلى الذين يزمرون ويطبلون ويرقصون.. فالفن هو الذي يبدد الغيوم والهموم والكروب..

وعند الإغريق كان الشاعر الأسطوري أورفيوس الذي إذا نفخ في مزمار تحركت الأشياء كلها وسارت وراءه: أشجارًا وطيورًا وحيوانًا.. وكذلك الشاعر الأسطوري السويدي أودين..

فالكاتب سلاحه قلمه، والفنان سلاحه الناي والمزمار.. هو سلم المجد وهو نور القلب ونار العقل وموسيقاه هي سلالم المحبوبة إلى السماء.

وكل واحد يزمر ويغني على حاله..

الطوفان يجيء بعدنا دائمًا

أنا وبعدي الطوفان - قالتها السيدة بومبادور، زوجة الملك لويس الخامس عشر. والمعنى الذي قصدته أنه لا شيء يهم. أنا فقط. أما الناس والدنيا فلتذهب إلى الجحيم.

ونفس العبارة قالها وزير خارجية النمسا الشهير مترنيخ: أنا وبعدي الطوفان.. أي إذا ذهبت فلا نظام ولا سلام. فأنا وحدي القادر على تحقيق الأمن والأمان لأوروبا كلها. ومترنيخ هو أستاذ مستشار الأمن القومي الأمريكي كيسنجر. فكانت رسالته للدكتوراه عن مترنيخ.. ومترنيخ هو أول من استخدم النساء في التجسس على خصومه السياسيين. وكان عشيقًا لإحدى أخوات نابليون. وفي إحدى الليالي جاءته الجاسوسات الحسناوات واحدة وراء الأخرى يقلن: رأينا فلانًا يسكر.. رأينا فلانًا يهمس في أذن فلانة وقال لها وقالت، ووضع كأس الشمبانيا عند شفتيها وإحدى الجاسوسات على ركبته وقال من بعدي الطوفان يجتاح أوروبا.. وأنا وحدي السدود والقيود وأنا أعمدة الحكمة ووديان السلام. وسوف ترون. بل إنني الآن أرى أن كل شيء ينهدم - فقد أغمضت عيني وسددت أذني وسحبت يدي لينهار كل شيء!

وعندما كان نابليون في جزيرة سانت هيلانة في منفاه الأخير، جلس إليه الطبيب الإنجليزي الذي وضع له السم عامًا بعد عام حتى قضى عليه. وسأل نابليون كيف أقام الإمبراطورية وهو ما يزال شابًا صغيرًا.. وهل فكر في أن تنهار من بعده.. فإذا انهارت هل فكر في ما سوف يصيب الفرنسيين والأوروبيين من بعده؟ قال نابليون: لا بد أن يجيء الطوفان من بعدى.. أنا الشمس التى تضيء فإذا غربت أظلمت الدنيا.. واليوم بدأت تغيب.. ألا ترى أنها كذلك. أليس حديثك معي، وأنت من أنت، دليلاً على غروب الشمس وحلول الظلام والطوفان؟!

أول ثورة بلشفية كانت في مصر

من أجمل الموروثات الفرعونية نقلاً عن عميد المؤرخين سليم حسن: «صرخة نبي»..

أما هذه الصرخة فهي مجموعة من المنشورات الثورية في عهد الملك بيبي الثاني. فهذه الصرخة تحدثنا عن الذي أصاب الناس من فقر وقهر. وكيف جاع الناس وشبعت التماسيح في النيل. فالناس لشدة فقرهم غير قادرين على تحنيط الجثث فكانوا يلقون بها في النيل.. وكيف ثار الناس ودمروا وقتلوا. ثم ارتفاع طبقة فوق طبقة. يقول كان أبناء الطبقة الجديدة لا يرون وجوههم إلا في الماء عندما يشربون ويسقون حيواناتهم أما الآن فعندهم المرايا والعطور والحرير والخدم..

ومن منشورات «صرخة نبي» أن الناس ضاقوا بدنياهم وضاقت بهم؛ ولذلك لم يجدوا الفرح إلا في قتل الأغنياء واللصوص والطغاة من الحكام والكهنة. وفي المنشورات أيضًا تباشير الإصلاح وتهدئة الخواطر وشق الطرق إلى المستقبل الأفضل والحياة الأكرم.

يقول د. سليم حسن إن هذه هي أول ثورة بلشفية في التاريخ.. وأقول وآخر ثورة أيضًا. فمصر عرفت الثوار ولم تعرف الثورة.. فثورة عرابي باشا ضد الخديو كانت هوجة.. هيصة.. غضبة غير منظمة..

وثورة 1919 لسعد زغلول ومن أجله: مظاهرات طلبة ومثقفين وطبقة وسطى.

وثورة يوليو لعبد الناصر: انقلاب عسكري، وخلع ملك وتعيين ملك رضيع وتعيين وصي عليه.. وهي انقلاب، ثم وصفوها بأنها «حركة مباركة» ولما نجحت وتمكنوا من السلطة قالوا عنها إنها ثورة. وهي في الحقيقة ليست كذلك..

مافيا وغيرها من أصول عربية

من ضمن الكلمات التى ننطقها خطأ كلمة مافيا، أكثر الناس ينطقون الفاء كأنها حرف اللاتينية V، وهي كلمة إيطالية، ومعناها عصابة وواحد هؤلاء العصابة يسمونه مافيوزو.. مع أن هذه الكلمة عربية الأصل، هذا ما تقوله كل القواميس ودوائر المعارف، وقد جاءت إلينا هذه الكلمة من أن الإيطاليين عندما كانوا يطاردون العصابات ويتهجمون على بيوت العرب في صقلية في القرن الثالث عشر كانوا يسألون هل فلان هنا.. هل رأيتم فلانًا فيقولون: مافي.. أي ما في أحد هنا أو هناك.

وظن الإيطاليون أن (مافي) هذه هي الكلمة المرادفة للصوص أو قطاع الطرق. وفي اللغة الإسبانية مئات الكلمات العربية وبقي شكلها كما هو.. وأحدث ما عرفت أن اسم جزيرة (أبيزا) أو (أبيثا) عربي الأصل. ويقولون إن أحد القادة العرب عندما جاء لغزو هذه الجزيرة دار حولها وقال: أبي هذه. أي أبغي هذه.. أو أبغي هذا.. ثم صارت هذه العبارة أبي ذا.. أبيزا!

وفي الشطرنج نقول: شيك ميت.. أي نعلن موت الملك الذي حاصرناه تمامًا. وأن الدور قد انتهى. ويقال إن شيك ميت هذه ليست إلا (الشاه مات) أو الشيخ مات!

ونقول: كش الملك.. أو كش الوزير! ونقصد أن الملك أو الوزير قد تراجع وشلت حركته فلم يبق إلا أن يستسلم.. فقد قلبنا كلمة (شيك) إلى كيش.. وهي كلمة أخرى. فقد تركنا الكلمة العربية واستخدمنا الشكل الأجنبي.. ونقول في لهجتنا العامية في مصر: طظ.. أي لا يهم ولا يهمني. وفي الفرنسية يقولون: طظ.. ولا نعرف إن كانت عربية ثم صارت فرنسية. أو العكس. وقد تقول طظ في هذا الكلام، ومعك حق فلا يهم.. وإنما أنا استطردت في الكلام!

كان الهوى في البداية والنهاية!

لم أقف في الطابور لكي أشاهد ما تبقى من آثار الفنانة المصرية الإيطالية داليدا. فقد أدت الأمطار على باريس إلى انكماش الطابور اليومي. الدخول مجانًا. وأول ما يطالع الزائر كتابات عن داليدا: حياتها وكفاحها وحفلاتها وفساتينها. أغانيها التي تذاع ليست هي التي استوقفتني، وإنما فساتينها.. معلقة كأنها فوق سطوح على حبل غسيل. ليست جميلة، إنها أشبه بقشور اختفت ثمارها.. كلمات بلا معنى. أين الدلال والجمال. أين التي كانت تتثنى وتنكسر وتتأوه وتتأود. لم يبق منها إلا هذه الغلالات.. الرمادية والزرقاء والبيضاء – فهذا ذوقها في اختيار الألوان..

سألت جارتي: ما رأيك؟

فلم ترد. فعرفت أنه لم يبق شيء له قيمة.. فالذي له قيمة هو صوتها وأداؤها، قصص عذابها وهوانها وانتحارها من عشرين عامًا. بعد أن انتحر كل عشاقها. فخلت الدنيا فقررت اللحاق بهم. وبقي أخوها يبيع ويشتري فيها كل سنة في مثل هذا المعرض، الذي تقيمه بلدية باريس.

وتذكرت فساتين أم كلثوم التي نعرضها في القاهرة. لا علاقة لها بهلِّتْ ليالي القمر.. ورق الحبيب وياللي كان يشجيك أنيني.. كأن

أم كلثوم تسكن هذه الأقمشة.. وذهبت أم كلثوم وبقيت هذه الأكفان بلا طرب ولا موسيقى واللَّه يا ست.. على سيرة الحب وحب إيه..

كنت أعرف المطربة الإيطالية المصرية داليدا، ولا أدعي أنني تصورت أنها سوف تكون سيدة الغناء الفرنسي والإيطالي، وأن يكون لها أغنية تذاع في اليوم الواحد ألف مرة.. لقد جعلتها إحدى شركات المحمول لحنها المميز تسمعه في اليوم الواحد عشرات المرات في كل تليفون في كل جيب.. وليست قطرات المطر التي مسحتها من خدي. وإنما بقايا دموع. فقد فقدت كثيرًا من أصدقائي الفنانين والفنانات. وكانوا زينة الدنيا وبهجة الليالي، ودفء القلب ودهشة العقل.

قال السادات: أعملها يا معمر!

سمعت الرئيس القذافي يقول لزعماء السودان إنه استحلفهم بالكعبة. وهذا قسم عظيم. وقال إنني فعلت نفس الشيء مع السادات.

ويبدو أن القسم بالكعبة ليس مستحسنًا عند بعض علماء المسلمين، ولكنه أهون كثيرًا جدًّا من الحلفان بالنبي، كما نفعل نحن المصريين وأذكر أنه كان عندنا مسلسل طويل اسمه «عادات وتقاليد» بطولة عقيلة راتب. وكان ينتهي بعبارة واحدة.

كنت واحدًا من أربعة نصلي معًا في الكعبة: الرئيس السادات والرئيس القذافي والأمير فواز أمير مكة وأنا. وأثناء الصلاة سمعت الرئيس القذافي يرفع صوته، ولم يكن صارخًا ولا متأوهًا.. ولكني لم أفهم.

وعندما نزل الرئيس وفي طريقنا إلى السعي بين الصفا والمروة سألته فقال: الراجل القذافي الـ.. كذا وكذا أمسك بيدي وقال: نعاهد الله أن نفعل كل ما في وسعنا من أجل القضية الفلسطينية. فتضايق السادات وقال له: أنا عملت لكن أنت ماذا فعلت: أنت لا تفعل شيئًا!

ونزل الاثنان من الكعبة غاضبين، وبدلاً من السعي معًا انفرد كل بحاشيته، وعادا معًا إلى قصر الضيافة في جدة، وحدث في الطريق

إلى جدة أن توقف الموكب الطويل جدًّا وبدت المصابيح الحمراء للسيارات الكبيرة والكثيرة مخيفة، ثم استأنفنا السير وسافر الرئيسان وسألت الأمير فواز عن الذي حدث فقال ضاحكًا: شيء عجيب.. لقد أصر الرئيس القذافي على أن يشرب كوكا مع أننا كنا على مدى خمس دقائق من قصر الضيافة. وتوقفنا وجاءت الكوكا وازداد غضب الرئيس السادات – وكان الرئيس السادات قد طلب من القذافي ألا يتأخر في النزول، فالأمراء في انتظاره وهم أناس مهذبون جدًّا، قال له السادات: لا تتأخر يا معمر عيب.. قال القذافي: إذا تأخرت اضربني بهذه العصا..

فقال السادات: أعملها يا معمر!

الراحة والارتياح!

فرق كبير بين الراحة والارتياح.. بقرص أسبرين يذهب الصداع، ولكن الدماغ لا يعرف الراحة.. بحبة منومة يجيء النوم ويستريح الجسد، ولكن العقل لا يعرف الارتياح..

بكلمة حلوة تجف دمعة، ويلتئم جرح، ولكن راحة القلب لا تجيء.. وكان آلهة الإغريق يحولون أنفسهم من آلهة إلى حيوانات أو من حيوانات إلى بشر، على سبيل التغيير.

ومن يقرأ قصص آلهة الإغريق يجد أنهم أكثر عذابًا من البشر، لأنهم في غاية القلق وعدم الرضا عن حالهم. ترى الواحد منهم طائرًا في الهواء فيجد أحد رعاة الغنم تحت شجرة فيحسده على ما هو عليه.. مع أن هذا الراعي قد نام على التراب، وتوسد الحجارة، وغطته أوراق الشجر، وهبت عليه رائحة الأغنام.. فإذا بهذا «الإله» يجعل نفسه ذئبًا ويعوي فيفزع الراعي، وتنفر الماشية، ثم لا يجدون أحدًا!

وكما يكون التعب تكون الراحة منه.. فالذي يتعب قدميه من المشي، فراحته أن يمدد ساقيه، والذي يتعب من الأرق، راحته أن ينام.. والذي يتعب من الكلام فراحته أن يسكت أو يستمع إلى من يقول له.. أو أن يقرأ كلامًا أجمل وأمتع من الذي يقوله أو يسمعه..

إلا الارتياح.. فأنت تجده عندما تقول كلامًا من أعماقك.. أو تسمع كلامًا من وجدان أحد.. أو عندما لا تقول ولا يقال لك شيء.. أو عندما لا تسمع أو يسمعك أحد.. أي عندما تكون في حالك.. على راحتك.. على حريتك.. لا يهزك الناس ولا تهزهم.. أي عندما يسكت كل شيء حولك أو في داخلك.. أي أن تكون في حالة من الغنى بالنفس والغنى عن الناس..

ولذلك فأروع أوصاف أهل الجنة والنعيم هي التي جاءت في القرآن الكريم.. يقول الله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا (25) إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ صدق الله العظيم..

أي أنك في الجنة لا تسمع فيها كلامًا فارغًا فأقصى كلماتهم أن يقول لك الواحد: سلام عليكم فتقول له: وعليكم السلام.

فإذا جاءت نسمة ارتياح واحدة فهي رائحة الجنة قد هربت من ثقب الباب الذي يقف عليه سيدنا رضوان.. ومن النادر أن يحدث ذلك في هذا الزمان!

بيت في أريزونا!

عندما ضاقت الأرض بالإنسان اتجه إلى الكواكب الأخرى.. وحتى إذا اتجه إلى الكواكب الأخرى فسوف يبقى هو هو..

هو إنسان الأرض انتقل بكل مصائب الأرض إلى ميادين أخرى.. وبسرعة تحولت الأقمار الصناعية إلى سفن إلى مدن إلى أقمار للتجسس.. وإلى حرب الكواكب..

أي أن الإنسان لا يعرف بالضبط ما الذي أصاب كوكب الأرض.. إننا نعيش في السموم لنموت بها.. فالصناعات الكيماوية قد فرقت الحجاب الحاجز. أي الحزام الواقي لكوكب الأرض.. أي طبقة الأوزون التي تمتص أشعة الموت القادمة إلينا من الشمس ومن الفضاء الخارجي. ولذلك فأشعة الموت – فوق البنفسجية – تتسلل إلى الحيوانات وإلى الإنسان والإصابة سرطان!!

ولذلك لابد من أن نقلل من إنتاج غاز «ك.ف.ك» الذي نستخدمه في بخاخات العطور وفي أجهزة التبريد.. وفي نفس الوقت يجب أن نقلل من إنتاج ثاني أكسيد الكربون الذي يخرج من المداخن ومن عوادم السيارات والمصانع.. وذلك باختراع غازات أخرى تمتصه. وهناك محاولات كثيرة لمعرفة – بالضبط– ما الذي يحدث على

الأرض وكيف تكون الوقاية منه. وذلك بالحياة وقتًا طويلاً حول الأرض.. أو تحت الأرض أو فوق الأرض في بيوت زجاجية..

أحدث هذه المحاولات في صحراء أريزونا في أمريكا.. فقد أقام الباحثون بيتًا زجاجيًّا على ثلاثة أفدنة. هذا البيت الزجاجي مكون من ثمانين ألف عود من الصلب وثمانين ألف لوح زجاجي و 28 جهاز تكييف وعشرة عقول إلكترونية.. وبه صحارى وأمطار استوائية وجزء من ماء المحيط وثلاثة آلاف نوع من النبات والحيوان والطيور والحشرات والفواكه والأسماك جاءت من القارات الخمس..

هذا البيت الزجاجي اسمه «المجال الحيوي 2» لأن «المجال الحيوي1» هو كوكب الأرض. وقد تفرغ للبحث في هذا البيت الزجاجي أربعة رجال وأربع نساء يدرسون سنتين منعزلين تمامًا عن كوكب الأرض.. لقد قرروا أن يعرفوا بالضبط ما الذي يحدث للإنسان في مثل هذه الظروف الصناعية الصحية.. بعيدًا عن كل أشكال التلوث الإنساني لكوكب الأرض.. المشروع تكلف في ست سنوات مائة مليون دولار!

التاريخ كله عند أذنيك

عودة إلى الإذاعة.. أي المعلومات المسموعة. فقد ظهرت كتب مسموعة. هذه الكتب مسجلة على أسطونات. هذه الأسطوانات تضعها في الكومبيوتر، وتضع يدك على خدك وتسمع وأنت مغمض العينين. فقد أوجعنا عيوننا واحترقت في ظلام الليل.. وامتلأت مكاتبنا بزجاجات القطرة، وغسيل العينين، ووضعنا البلاستيك البارد على عيوننا حتى لا تلتهب. وجاءت الكتب المسموعة، إنقاذًا للعين وتنشيطًا للأذن..

وأقبلت على الكتب المسموعة واشتريت العشرات. هذه الكتب سوف أنقلها على الكومبيوتر، ثم أنقلها على جهاز صغير تضعه في جيبك اسمه (آي – بود) هذا الجهاز قادر على أن يحتفظ لك بمئات الكتب تضع السماعة على أذنيك وتغمض عينيك وتسمع.. وتستعيد ماسمعت. وتتوقف وتعود إلى أول الكتاب وتقلبه وتسمعه وأنت شبه نائم في مقعدك.

وقد بدأت الكتب المسموعة بالروايات البوليسية المثيرة ثم بالنصائح: كيف تنجح.. كيف تكسب المليون.. كيف تأكل وتشرب دون أن يزيد وزنك..

وكانت الكتب العربية المسموعة أكثرها دينية.. القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والمذاهب والشروح.. ثم وجدت كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي.. أما الكتب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية، فهي من نعيم الحياة: في الفلسفة والتاريخ والأدب والنقد الأدبي.. الله.. الله!

ووجدت دراسات فلسفية وتأملات جمالية وتاريخ الحضارة!

شيء رائع أن تجد هذا التراث الإنساني البديع، مسجلاً على جهاز صغير في حجم الكف. إلى جانب الأغاني.. عبد الوهاب وأم كلثوم وفيروز وعبد الحليم.. أروع ما كتب ولحن الفنانان المصري واللبناني.. وأروع ما أبدع الفلاسفة والأدباء.. كل هذا في جيبك. فليس لأحد من مشكلة أن يقرأ ويسمع ويرى وأن يتلقى العلم والفن جالسًا وقد مد ساقيه واسترخى لتهبط عليه الحكمة والجمال!

فاسمع واستمتع!

التاريخ يعيد نفسه!

يبدو أن العبارة الشهيرة التي تقول: إن التاريخ يعيد نفسه، صحيحة إلى حد كبير.. فانظر ماذا حدث في حياة اثنين من رؤساء أمريكا هما: إبراهام لنكولن وجون كيندي.

اثنان من إخوة لنكولن اسماهما إدوارد وروبرت.. إدوارد مات في الثالثة من عمره.. والأخوان كيندي اسماهما إدوارد وروبرت وقد اغتيل روبرت.

لنكولن أصبح رئيسًا سنة.1860. وكيندي أصبح رئيسًا سنة 1960.

كان للنكولن سكرتير اسمه كيندي، وكان لكيندي سكرتير اسمه لنكولن..

زوجة لنكولن مات بعض أطفالها في البيت الأبيض، وكذلك زوجة كيندي.

اغتيل لنكولن على مرأى من زوجته وكذلك كيندي، وكان اغتيالهما يوم جمعة، وقاتل لنكولن مثل قاتل كيندي لم يحاكما.. لأنهما قتلا!

وبعد اغتيال لنكولن خلفه في الرئاسة أندرو جونسون الذي ولد سنة 1808.. وكيندي خلفه لندون جونسون الذي ولد سنة 1908.. وكلاهما عضو في مجلس الشيوخ.

وفي اللغة الإنجليزية يتكون اسم لنكولن وكذلك اسم كيندي من تسعة حروف..

وكانت مشكلة لنكولن أنه ينام على جانبه الأيسر، وكيندي على جانبه الأيمن.. فكلاهما يشكوان من آلام شديدة في العمود الفقري والركبتين..

كان لنكولن يتوارى نصف ساعة قبل اجتماعه بمستشاريه.. وكانوا يعرفون أين يذهب.. إنه يشعر بجوع مفاجئ ويبتلع بعض البيض المسلوق والفاكهة والقهوة، وينام جالسًا دقيقتين أو ثلاثًا.

وكان كيندي قبل الذهاب إلى أية وليمة يتوارى نصف ساعة، ليأكل طعامًا خاصًا.. ويقف لينظر من النافذة.. لابد أن يفعل ذلك.. والحقيقة أنه لم يكن يتطلع إلى شيء.. وإنما كان ينام واقفًا دقيقتين أو ثلاثًا!!

وكلا الرجلين كانا يلعنان اليوم الذي دخلا فيه البيت الأبيض!

حضارة النوبة!

نظرية جديدة تبناها علماء الآثار في أمريكا، تؤكد أن الحضارة الغربية كلها تأثرت بحضارة إفريقيا.. أي حضارة مصر وحضارة النوبة.. وهذه النظرية تقول: إن علماء الآثار ركزوا اهتمامهم على مصر.. وأغفلوا تمامًا حضارة النوبة التي أثرت في حضارة مصر، التي أثرت في الحضارة الإغريقية.. فنظام الملك قد أخذته مصر عن النوبة.. لا شك في ذلك..

وقد عثر الأثريون على تحف من الذهب والخزف في بلاد النوبة.. هذه التحف تؤكد براعة الفن النوبي وتطور الحضارة النوبية.. وكانت بلاد النوبة تمتد من جنوب مصر إلى شمال السودان كله.. ثم إن النوبة حكمت مصر في الأسرة الخامسة والعشرين..

وقد أثبت الأثريون الأمريكان أن النوبة كانت على صلة مباشرة بروما.. فقد وجدوا فيها تماثيل للإمبراطور أغسطس.. ومعنى ذلك أن الرومان كانوا يعبرون مصر إلى بلاد النوبة دون أن يتوقفوا فيها..

وقد قدم المعرض الأمريكي الذي كان مقامًا في ولاية بنسلفانيا 350 أثرًا فنيًّا نوبيًّا، يؤكد عمق الثقافة النوبية وتنوع العلاقات الإنسانية فيها.. كما أن علماء الآثار قد وجدوا بالقرب من أسوان

تماثيل للأميرات ومجوهرات ومقتنيات جنائزية، وكلها لها معنى واحد: أن حضارة النوبة كانت حضارة متميزة، وأن أثرها في حضارة مصر كان عميقًا..

أكثر من ذلك أنهم عثروا على قصص شعبية وشعر في شمال السودان.. وهذه الآثار الشعبية لا صلة لها بالسودان، وإنما هي من آثار النوبة. بل إنهم وجدوا نقوشًا واضحة لأدوات موسيقية ولم يجدوا لمثل هذه الآلات نظيرًا في مصر أو في السودان أو في ليبيا.. ولكن وجدوا نقوشًا مطابقة لها في كريت وفي روما..

وعلماء الآثار الأمريكان والأوروبيون يرون الآن أن إفريقيا هي مصدر الحضارة الأوروبية، وأن أثر إفريقيا في الحضارة الإنسانية سواء في أمريكا وأوروبا أعمق من أثر جميع الحضارات الآسيوية.. فالإنسان الأسود هو صاحب الفضل الأول على تطور الحضارات البيضاء في كل العصور القديمة!

ويتنقل هذا المعرض الضخم إلى كل مكان في العالم..

ويرى العلماء الأمريكان أيضًا، أن الإنسان الأول إفريقي أسود.

رهذا يفسر لعلماء الفلك لماذا ترك سكان الكواكب الأخرى آثارهم في شمال ووسط إفريقيا، وليس في آسيا وأوروبا!!

ولا يزال البحث جاريًا عن البدايات الإفريقية لحضارات الإنسان في كل مكان!

إنها فكرة جميلة جدًا

في عيني صور متتابعة لأناس راضين ضاحكين.. أحدهم يجلس على الأرض في أحد الشوارع بالقاهرة يمزق إطارات السيارات يصنع منها نعالاً للأحذية القديمة.. من أين له هذا الرضا؟ هذه القناعة؟ هذه السعادة؟ إنه يجلس على الأرض.. على قطعة من الحجر.. ظهره للحائط.. رجلاه ممدودتان. أهو يغترف من ذلك الكنز الذي يسمونه القناعة.. القناعة كنز لا يفنى.. أهو الصبر على ما عنده.. ليس عنده شيء.. أهو الإيمان؟ الإيمان بماذا؟ أهي طبيعة الوجه أن تمتلئ بالنور والسعادة؟

وسيدة أخرى تحمل على رأسها «مشنة» بها الفول السوداني.. ظللت أرقبها مسافة طويلة. إن أحدًا لا يشتري منها.

نفس الوجه.. نفس الابتسامة.. والينبوع الخالد.. ينفجر من وجهها وعينيها وصوتها ومشيتها. أهو الصبر هو مفتاح الفرج؟ أهي طبيعتها المصرية؟ ولكن هل هناك شيء اسمه «طبيعة» مصرية وطبيعة إنجليزية أو فرنسية.. أم إنها طبيعة واحدة لكل الناس؟

ورجل ثالث ورابع وخامس. هذا الابتسام أو هذا الضحك أو هذه القناعة ما معناها؟ هل معناها أن هؤلاء الناس نفوسهم لم تصدأ.. وأن جذوة حياتهم لم تخمد؟ ولماذا؟ هل هي روح المقاومة لقسوة الحياة؟ أهو الإيمان الذي يمدهم بأسلحة وعتاد لا ينفد.. أهو الانتظار

لا يدرون ماذا يصنعون امام الجليد والعواصف والبحر والخوف والسعر.. لا شيء إلا الصلاة.. وفيهم ملحدون لأنهم لا يخافون أحدًا أو شيئًا..

إنه العالم المحدود الذي يملأ قلوب الناس بالسعادة. وعندما ذهب «جليفر» إلى بلاد الأقزام قابله الملك والوزراء وسألوه هل رأيت أروع من بلادنا؟ هل سمعت عن أناس أقوى وأعظم منا؟ هل شاهدت هندسة وعمارة وفنًّا أجمل مما في بلادنا؟

وضحك الملك وتمايل الوزراء.. فقد سكت جليفر.. وسكوته ما معناه؟ ليس معناه أن الملك قد أقنعه بشيء.. والملك سعيد وحاشيته والشعب سعيد في هذه الدولة المحدودة التي يقطعها جليفر طولاً وعرضًا في بضع دقائق.. إنه العالم المحدود المريح.. إنها القناعة التي تشبه ذباب «تسي تسي» الذي إذا لدغ إنسانًا جعله ينام وينام إلى الأبد..

إنني لا أحسد أحدًا من هؤلاء على الرصيد الذي لا ينفد من الابتسام والقناعة.. ولكن أتمنى القليل مما لديهم دون أن أجلس وظهري إلى الحائط أو أبيع الفكرة الجميلة جدًّا!

من الممكن أن أعيش من غيره

على عشاء في بيت الفنان فاروق حسني وزير الثقافة، دارت مناقشة عن الفوائد السحرية للميلاتونين - المنوِّم والمأخوذ من الموز. وتسابق الحاضرون حول ذكر مزاياه.. هذا ينام كالطفل ست ساعات.. وهذا ثماني ساعات.. وبسرعة أجمع الحاضرون على أن الميلاتونين أعظم اختراع في القرن العشرين.

ولكني لم أجد شيئًا من ذلك.. فقلت: حاولت، وكانت النتيجة كثيرًا من الهلوسة. وتوقفت عن تناوله..

وكان من المدعوين مسيو فريديريك مايور، أمين عام اليونسكو السابق. وقال إنه كيميائي. وإنه شخصيًا استخدم الميلاتونين ولم ينم. وفي بعض الأحيان كان فريسة للهلوسة - إذن لست وحدي.

وتشجع آخرون. وبسرعة أنزلنا الميلاتونين من فوق عرشه إلى الأرض ودفعناه بأقدامنا إلى ركن من القاعة!

ومضى السعداءُ يتناولونه ولا يزالون.. وتحت تأثير مناقشات عملية، مددت يدي إلى الميلاتونين الذي أدخلت عليه تعديلات حتى صار يلائم كل أنواع المصابين بالأرق..

وقيل وقالوا: إنه ليس على معدة خالية. وقالوا: بل يستحسن أن يجيء بعد طعام خفيف وقبل النوم بساعة، وقيل: ساعتان، وقيل: بل في الفراش وأنت تتفرج على التليفزيون..

وفي ليلة وقبل النوم بساعتين تناولت طعامًا خفيفًا وتفرجت على التليفزيون وبعد ساعة وبحركة ناعمة مددت أصابعي إلى قرص الميلاتونين لا راجيًا ولا متوسلاً وإنما على يقين من أن النوم سوف يجيء. وانزلقت تحت الغطاء. وكان نومي توسلاً واسترخاء وإذعانًا واستسلامًا. ولم يحترم النوم ضعفي ولا الميلاتونين. وانتظرت وغالبت الأرق. وانتظرت الذي يرفرف بجناحيه على الباب ساعات من الهناء وراحة البال.. فلا رفرف النومُ ولا بعث رسولاً من عنده يقول إنه يعتذر الليلة عن عدم الحضور ليعود في نفس الوقت غدًا.. ولم يأت أيضًا.. فالنوم ليس إلا طاغية مستبدًا يختار من يعجبه من الناس.

ولا أعرف من أكون! وقد عشت دون أن أعرفه وسوف أكمل حياتي يائسًا متقلبًا على شاطئ النوم. والحمد لله على ذلك!

حكايتي مع الشاعر ريلكه

بالصدفة وعلى سور حديقة الأزبكية القديم وقعت عيني ويدي على صورة جميلة. ولما قرأت الغلاف وظهر الغلاف، وجدت أنها كنز أدبي.

هذه الفتاة الجميلة المصرية التركية هي معشوقة الشاعر النمساوي راينر ماريا ريلكه (1855 – 1926).. وكنت قد قرأت عنه من ترجمات د. عبد الهادي أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية. فقدم ترجمة «مذكرات مانته بريجه». وهو إحدى روائع ريكله. هل أعجبني ما قرأت؟ هل بهرني؟ هل هزني؟ هل أطار النوم من عيني؟ لا شيء من ذلك.

ولكن تابعت الشاعر.. ثم وجدت رسائله إلى المعشوقة المصرية التي مات على صدرها. جميلة وليست الوحيدة بين الجميلات يدرن في هواه ويتساقطن.. حكايات ومذكرات ووجع قلب في كثير من اللقاءات. وكانت فرحتي بالمعشوقة المصرية نعمت علوي ولا أعرف لماذا كنت مندهشًا: إنها حلوة أحبت شاعرًا جميلاً. فلابد أن تقع في غرامه أو يقع هو في غرامها.

وكتبت عن هذا الاكتشاف بسعادة لم يفسدها إلا أن بعض أقاربها هددوني بالقتل. ولم أتوقف وإنما تمنيت أن ألتقي أيًّا منهم لأسأله عنها وعنه. ولكن أحدًا لم يفعل. وفي يوم كتبت مقالاً طويلاً عن غراميات الشاعر وكتبت أنه مات بسرطان الدم بسبب وخز وردة.

وفوجئت بأن صديقي الأديب صلاح ذهني قد أصابه نفس المرض. فأجلت النشر حتى يسافر ويعود بالسلامة. ولسوء حظي فإنه هو قد أجل السفر وقرأ الموضوع وقال: هذه نهايتي أيضًا!

وكانت نهايته وحزني عليه..

ومنذ أيام وجدت كتابًا جديدًا لم ينشر للشاعر ريلكه بعنوان «صندوق المجوهرات». مررت على صفحاته.. توقفت عند عبارات بديعة. وانشغلت بكتب أخرى وسوف أعود إليه.

والتقيت بأميرة مصرية وهمست في أذني: وأنا كنت أعرفه أيضًا وبيننا رسائل سوف أعطيها لك.. شكرًا يا أميرة يا جميلة أمس واليوم!

الانحياز وعدم الانحياز من جديد

والله زمان.. لقد نسينا التهديدات الروسيةوالأمريكية المتبادلة.. ونسينا التوازن النووي والردع النووي.. أي كل علامات الحرب الباردة بين القطبين ولم نسترح إلى أن انهار قطب على نفسه وانفرد بنا قطب واحد هو الولايات المتحدة. وبقدر سعادتي بظهور جورباتشوف وفلسفته الجديدة التي حررت السوفييت من القهر حتى تفككت الإمبراطورية السوفييتية، بقدر حزني على دولة عظمى لها تاريخ عظيم في تحرير الشعوب وفرض العدالة والمساواة ودولة لها تاريخ عظيم في الأدب والفن والعلوم. وهي دولة غنية بمواردها الفنية وعبقرياتها الإنسانية.

وكنا نمد أيدينا إلى الروس نعزيهم في عزيز لديهم. ولكنهم كانوا يقبلون التعزية ويرفضونها في نفس الوقت: كلها سنوات عشر انتظرونا!

لقد رأيت الرئيس جورباتشوف في روسيا. ويوم رأيته وبشرته الحمراء الصافية وتلك (الوحمة) القرمزية في جبهته، كان كافرًا بالشيوعية.. ولما انهارت روسيا بسرعة حاول أن يوقف الانفلات والانهيار. وكان التيار أقوى منه. إنه مثل الطفل الذي تحدثت عنه

الأساطير الذي حاول أن يسد السدود التي أزاحها الموج بأصابعه. واتهمه الروس بأنه رجل رجعي - أي راجع عن الديموقراطية والحرية التي فتح أبوابها على الآخر.

وذهب جورباتشوف وظهر من بعده ساسة عتاة: يلتسين وتلميذه بوتين. الذي قال بأعلى صوته: أنا الديموقراطي الوحيد في هذا الكون، أي روسيا هي الدولة الوحيدة الديموقراطية، وليست أمريكا، قالها وهو يرفع يديه فظهرت أصابعه صواريخ عابرة للقارات.. قادرة على تحطيم حائط الصواريخ الأمريكية التي نصبوها لحماية «مش عارف مين» من الدول من الصواريخ الإيرانية(؟!)..

والله زمان، فغدًا أو بعد غد ينقسم الكون أو ينفلق نصفين: روسيا وأمريكا، وتعود دول العالم الثالث فيما عدا الصين والهند تلوذ بأمريكا مرة وروسيا مرة.

وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا، كما يقول المثل الشعبي المصري.. وتعود ريما لعادتها القديمة، كما يقول مثل شعبي آخر. وسوف تدفع الدول الصغيرة ثمن الانحياز أو عدم الانحياز لواحد من هذين العملاقين - عليه العوض في الديموقراطية والحرية وعدم الانحياز!

حتى لا يظلوا حميرًا!

من التعليقات النابية لأحد القراء على ما جاء في مقال لكاتب كبير يسأله مستنكرًا: ولماذا تكتب ما دمت هكذا لا تعرف ما تقول؟

يقول هذا لكاتب محترم جاد يكتب ويجد الملايين تقرأ له لأنه يقول ويشير ويثير. ولابد أن الكاتب قد قال كلامًا ليس على هوى القارئ أو صدمه في عزيز لديه. لا أعرف.. وقد عدت فقرأت ما كتبه الكاتب الكبير، وأعجبني ما قال. وليس من الضروري أن أكون متفقًا معه. ولكن الذي قال يستحق الاحترام، ثم إنها وجهة نظر. ولم يذهب الغرور بالكاتب فيقول إن هذا هو رأيه وحده، ولا رأي لأحد قبله أو بعده. وإذا كان من حق القارئ أن يسأل كاتبًا فيقول له: لماذا تكتب؟ فمن الممكن أن يسأل الكاتب: ولماذا تقرأ؟ أو إذا كان هذا الكاتب يضايقك أو قد ضايقك أخيرًا، فما حرصك على قراءة ما يضايقك، اتركه! استبعده.. احذفه من قائمة مشترياتك. وبس!

ولكن القارئ يريد أن يعرف أثر كلمته الموجعة، وهل أدت إلى توقف الكاتب عن الكتابة. وفي ذلك انتصار للقارئ على الكاتب أو أنه ماضٍ في كتابته يقول ما لا يعجب واحدًا من القراء!

أستاذنا طه حسين قال، وكأنه يرد على هذا القارئ بالذات: أهدي كتابي هذا إلى الذين لا يعملون ويضايقهم أن يعمل الناس! أي إلى الذين لا يكتبون ويضايقهم أن يكتب الناس.

وأتذكر في «صالون العقاد» أن سأله أحد الحاضرين: «ما شعورك يا أستاذ إذا عرفت أن الحاضرين جميعًا لا يقرأون لك؟» فتضايق العقاد ولكنه قال: لا يدهشني هذا يا مولانا، في زمن الجهل يتباهى القارئ بأنه لا يقرأ والعالم بأنه لا يضيء للناس.

وكأن العقاد أحس بأن الذي قاله ليس مفهومًا. فقال: إن المفكر الإنجليزى كارليل التقى بأحد المعلمين، ولم يكن المعلم يعرف المفكر الكبير. ولكنه سمعه يشكو من الأرق والإمساك، وأنه لا ينام الليل من أجل التحقق من كلمة فاندهش الرجل وقال له: سيادتك تعمل ماذا؟ فأجابه كارليل: أقوم بتربية الحمير.. فقال الرجل إذا كنت تعلم الحمير فلماذا تشغل نفسك بالكتابة عنهم أو التحقق من أية معلومة عنهم. وكان رد كارليل: إنني لا أتعب من أجل الحمير، وإنما أتعب من أجل سبب آخر وهو أنني لا أحب أن يظلوا حميرًا!

ادخلوها بلا سلام ولا أمان لكم!

يهمني - همني وأهمني- أن أقرأ رسائل القراء التي يبعثون بها للكتاب. إنها وجهات نظر. وصورة لردود الفعل. وحرص القارئ على أن يكون له رأي وأن يكون له موقف - تمامًا كالكاتب. بل إن هذا الكاتب ما كان ينبغي له أن يكتب. بل كثير عليه أن يكون نجارًا أو حدادًا، أو يقترح عليه أن ينتهز هذه الفرصة ويأوي إلى جبل يعصمه من سهام القراء..

فإن كان الكاتب جادًّا، وكتب مرة يمزح. انزعج القارئ لأن الكاتب قد غير ريشه وجلده ولسانه. فكيف يفعل؟ ولو كان هازلاً مازحًا مسليًا، وكتب مقالاً جادًّا فكيف يفعل ذلك. لماذا لا يكون في حاله ولا يتعرض لأحوال الآخرين!

كان القارئ قد علق للكاتب لوحة. هذه اللوحة صنعها للقارئ من أفكار الكاتب. أو لا شبه بينها وبين الكاتب. وإنما هي صورته. ويجب عليه أن يقلد صورته ولا يحاول أن يغير كل يوم الصورة التي علقها القارئ أو شنقها القارئ على جدران بيته. وفي بعض الأحيان أجد أن الحق مع القارئ. فهو حريص على الكاتب الذي يحبه ولذلك يريده أن يكون عند حسن ظنه وأن يكون كما أحبه. وأمير الشعراء شوقي قال:

ومن الحب ما قتل. وهذا هو الحب القاتل الذي يرفض الكاتب أن يحظى بمثل حرية القارئ. ولكن في زمن السوق والاستهلاك فالزبون على حق دائمًا. والبائع ليس على حق دائمًا. وإذا كان هناك خطأ فالكاتب وليس القارئ. هل هذا تدليل للقارئ وإذلال للكاتب؟

وأنا لا أتحدث عن القارئ الذي يقرأ لي، فكتب معلقًا أو مندهشًا أو مباركًا أو لاعنًا.

وأرى أن الكاتب قد اعتاد على ذلك. فكم مرة لعنوا الأب والأم وهددوني بالقتل.. ثم فتحوا لي أبواب جهنم وقالوا: ادخلوها بلا سلام ولا آمنين..

ولم نكن نحن المفكرين في حاجة إلى مزيد من جهنم في الدنيا، فألوان العذاب والأرق والوجع والألم والقرف واليأس لدينا منها الكثير. وإذا كان القارئ الفاضل يرى أننا نستحق أكثر، فشكرًا له على ذلك!

بل الرجل أيضًا له دورة!!

عندما تقول: ليس عندي مزاج اليوم! فأنت تقصد أنه لا توجد عندك رغبة لعمل شيء. ولذلك فأنت ترى ضرورة الانتظار حتى يجيء المزاج أو حتى يكون عندك مزاج.. أو حتى يعتدل مزاجك، وتجد نفسك راغبًا في عمل شيء.

ولا أحد يعرف بالضبط معنى «المزاج».. وهناك أناس لا تعجبهم الكلمات الواسعة أو الشاعرية..وإنما يفضلون البحث عن المعنى العلمي الدقيق لها.

وقد لاحظ الصينيون من ألف سنة أن هناك «دورة» للمزاج هذا.. أو دورة للنشاط الحيوي للإنسان وأن هذه الدورة لها أول ولها آخر.. ففي أولها يكون الإنسان في غاية الحيوية، قادرًا على أن يأكل بشهية ويشرب بنهم ويحب بعنف ويعمل بذكاء.. وفي نهاية هذه الدورة يكون فاقد المزاج ضعيفًا مقريفًا.

وفي أوائل القرن التاسع عشر اهتدى العالم السويسري إدوارد روش إلى أن هذه الدورة عبارة عن 28 يومًا. ففي أيامها الأولى تكون الحيوية والأمل والإرادة، وفي نهايتها يتجمد كل شيء..

ومن خمسين عامًا تمامًا اهتدى كيميائي ياباني إلى أن الذي نسميه «بالمزاج» هو نشاط الغدد الصماء في الجسم.. وهذا النشاط له دورات أيضًا.. وهذه الدورات تخضع لنظام سري سحري في جسم الإنسان.. وهو يستطيع أن يرصد ذلك بوضوح شديد.. ولكن لا يمكنه أن يعرف لماذا هذا النشاط.

واستطاع عالم سويسري آخر هو لوسيان رينو أن يحدد بالضبط بداية الدورة عند كل إنسان إذا أحس بأولها ولكن أكثر الناس لا يعرف ذلك.. فربط بين هذه الدورة وبين يوم الميلاد والبرج السماوي الذي ولد فيه.. فكل إنسان له «مزاج» خاص أو «دورة» حيوية خاصة به وحده.. وبعملية حسابية بسيطة جدًّا أمكن تحديدها، تمامًا كما أمكن للسيدة أن تعرف أيام الحمل بدقة، ولذلك وجدنا إحدى شركات السيارات في سويسرا تضع علامة حمراء بالقرب من الزجاج الذي يجلس عنده السائق.. ومعنى ذلك أنها تلفت نظر الناس إلى أن السائق في مرحلة الخمول الخطرة وأنه لذلك عصبي جدًّا.

وربما كان الطبيب القديم أبقراط هو أول من أشار إلى أن الإنسان يجب أن يراعي مزاجه.. وألا يفعل شيئًا هامًّا إلا عندما يكون عنده مزاج.

ولو اعتمدنا على المزاج في الأكل والشرب والنوم والصداقة والزمالة ما أكلنا ولا شربنا ولا صادقنا ولا أحببنا.. فإن أكثر ما نلمسه باليد والعين والعقل والقلب يقضي على أي مزاج!

بل لابد أن نعيش معًا!

القاعدة المطلوبة للحياة في بلدنا: أنا أعيش وأنت أيضًا..

ومرفوضة: أنا أعيش وأنت لا..

ومرفوضة: أنت تعيش وأنا لا..

أي يجب ألا أقيم حياتي على هدم حياتك، يجب ألا أنفرد أنا بكل شيء وأنت لا حق لك.

مهما اختلف الناس في الدرجة.. في الطبقة.. في اللغة.. في الدين.. في السياسة. فلابد أن نعيش معًا. لا بد.. وحياتنا معًا تجعل من الضروري أن نتوافق وأن نتفق.. ليس من الطبيعي أن نتطابق، ولكن من المهم أن ننجح في جعل الخلافات بيننا إلى الحد الأدنى.. فإذا اختلفنا فنحن متحضرون: نتناقش نتفاهم ونختلف ونتفق.

ولكن في حياتنا العامة عكس ذلك.. أي حياتنا نحن الكبار والصغار.. فصاحب الرأي السياسي يؤكد أن الحق دائمًا معه. وليس معك.. خطأ. بل الحق معنا.. ونحاول بالعقل والمنطق أن نتحاور وأن يقنع أحدنا الآخر. فإن لم نفلح فسوف نبقى مختلفين.

وصاحب المذهب في الدين الواحد: الشيعي يحاول أن يفرض اجتهاداته على السنّي بالقوة خطأ.. فإذا حاول السني أن يلجأ إلى الدم فخطأ أيضًا..

والقرآن الكريم يقول: «وجادلهم بالتي هي أحسن».. أي ليس بالمسدس أو القنبلة، في النور وليس في الظلام.. بالكلمات وليس باللكمات..

وأنت حر في أن ترى من الآراء ما تشاء ومن النظريات ما تحب.. وأن تدعو إلى ما تؤمن به بالذوق، بالعقل، بالحكمة، بالموعظة الحسنة.. لا لوم عليك. ولكن أن تتحول أصابعك إلى أصابع من الديناميت ولسانك إلى نار، غلط.. غلط.

وإن الدولة عندما تتدخل فلحماية كل الأطراف، لحماية المجتمع من الشرر والشر.. ولتؤكد لنا الدولة أنها موجودة وأنها لن تسكت على النار الصغيرة حتى لا تكون حريقًا شاملاً.

وأن يكون لك دينك: الإسلام أو المسيحية أو اليهودية.. أو الماركسية.. أنت حر.. فافعل بدينك وفي دينك ما تشاء بشرط ألا تدخل أنفك في دينى.. ألا تستخف بما أعبد.. ألا تسرق حياتى وأن تفتح لنفسك الجنة تنعم بها وتحرمني منها.. «لكم دينكم ولي دين» صدق الله العظيم.

العب العب ليطول عمرك!

مسكين كل إنسان لا يحب كرة القدم.. هذا اقتناعي أخيرًا.. إنني أندم اليوم على كل السنوات التي مضت من دون أن أضيعها في الجلوس في الملاعب أو في المدرجات أصرخ وأصفق وأهتف للكرة تنطلق يمينًا وشمالاً.. تهز الشبكة أو تهز الخشبات الثلاث..

مسكين كل إنسان لم يطرب لصفارة الحكم.. أو لم يهتز طربًا وهو يسمع ذلك الصوت الصارخ صوت المعلق يقول له: الله يا ست.. يا عظمة على عظمة!

إذا كنت مثلي لا تنتسب إلى ناد من الأندية.. أو تنتسب إليها من دون أن تمارس طقوس الحب والصلوات والدروشة.. فإنني أقول لك ما الذي يفعله المحبون والعشاق للكرة؟!!

لا يكاد الواحد منهم يتحدث في أي موضوع جاد، حتى ينحرف الحديث إلى الكرة.. أو على الأصح لا يكاد الواحد منهم «ينحرف» بحديثه عن السياسة وتكاليف الحياة حتى «يستقيم» الحديث ويتجه إلى الكرة والكأس والدوري.

مثلاً: عندما تكون هناك مباراة، يسبقها الكلام والاستعداد النفسي والانتقال إلى الملاعب في السيارات والأتوبيسات.. ثم

الانتظار ساعات في الملاعب.. حيث الهواء منعش والشمس مشرقة.. والضحك لسبب ولغير سبب وحيث يسحب كل واحد احتياطيه من القوة والحماس ويضعه في عينيه وأذنيه ويديه.. وفي نفس الوقت يشرب ويأكل ويضحك ويرتفع صدره ويمتلئ بالصحة والعافية..

لقد تحول كل إنسان إلى كائن حي شاب منتعش.. وتمضي الساعات وهو يصرخ ويصفق.. ويغضب ويقف ليجلس ويتحول من دون قصد، أو بقصد إلى طفل صغير..

كم ساعة مضت من كل يوم؟

ساعات وأيام وشهور وسنوات وهو في غاية الحيوية والنشاط.. جسمه قد نفض كل متاعبه.. وعقله قد طرد كل الهموم وسقط عنه كل شيء كأنه تراب أو هباب وأصبح مغسولاً نظيفًا نقيًّا ثم إن كل مناقشاته ومنازعاته وخلافاته تمثيل في تمثيل. لأن الرياضة لا تعرف الكراهية والحقد وأرجوك بعد ذلك أن تنظر إلى وجوه السياسيين والكتاب: أنت لا ترى عليها إلا الهم والغم الذي يطيل ألسنتهم وأقلامهم ويقصف أعمارهم.

فأقصر الناس عمرًا أكثر الناس همًّا، وأطولهم عمرًا أكثرهم لعبًا أو تفرجًا على اللاعبين.

ثم إنها – أي هذه الدنيا– لا تساوي شيئًا.. اسمعها مني وعلقها في أذنيك.. وسوف تنساها ولكن عندما تتمدد أمام الطبيب سوف تحسد مجانين كرة القدم.. لأن هذا الجنون هو منتهى العقل!

على مهلك على مهلك حتى الموت!

لم يبق أمام العالم كله إلا أن يمشي ويجري ويأكل وينام ويموت على طريقة «اليوجا».. لأن الموت بالطريقة الغربية شيء رهيب.. ولذلك فأحسن طريقة لكي يموت بها الإنسان هي أن يكون هنديًّا صينيًّا.. وطريقة الموت هي طريقة الحياة نفسها، لأن الإنسان يموت كما يعيش.. فالذي يجري طوال عمره يموت وهو يجري، والذي يجلس إلى جوار الحائط ينام «ملطوعًا» إلى جوار الحائط.. والقاتل يموت قتيلاً.. والحاسد يموت محترقًا..

أما الموت على طريقة اليوجا فهو كهبوط سفن الفضاء على الكواكب هادئًا شاعريًّا.. كيف ذلك؟

يجب أن تكون هادئ الأعصاب طوال الوقت. لماذا؟ لأنه لا شيء يدعوك إلى الانفعال، أي لا شيء يدعوك إلى الغضب أو السخط أو الفرح الشديد.. فإذا مددت يدك إلى رغيف أمامك، فما الذي يجعلك تخطفه خطفًا وتزلطه زلطًا؟! إن الرغيف أمامك. ويدك ممدودة والمسافة بين الرغيف وفمك قصيرة، ولا أحد ينازعك على الرغيف.. لو نازعك ففي السوق طوابين امتلأت بالخبز. ولا داعي لأن تجري في الشارع.. إن الجري لا يجعل الشارع أقصر ومكان عملك أقرب، ثم إن هذه الدقائق

التي ستوفرها في الطريق، ماذا عساك أن تفعل بها إذا جلست إلى مكتبك؟ لا شيء. وإذا لم تجد الأتوبيس فلا تغضب، فالطريق طويل وليس عندك شيء آخر تعمله غير المشي. امش.. فالمشي محروم منه كل من يجد مكانا في الأتوبيس أو في سيارة عامة أو خاصة.. فاستمتع بهذا الحرمان الجميل.. فإذا عدت إلى البيت فلا شيء يمكن عمله بسرعة ولا ضرورة لذلك.. الأكل والشرب والنوم.. خصوصًا النوم، فأنت وأنا وكل الحيوانات التي تمشي على ساقين مثلنا تقفز إلى السرير ومنه، مع أن نصف عمرنا نقضيه فوق هذه المراتب والمخدات وتحت اللحاف.. وأكثر مشاكل الدنيا صعوبة كلها تتعقد وتنحل وتتعقد من جديد وتنفك فوق السرير أو في الطريق إليه.. وهذه قصة طويلة ليس هنا مجال مناقشتها.. فأنت لست قذيفة انطلقت من مدفع لتستقر فوق هدف على سرير، ولا أنت كرة ضربها حذاء متين من فوق السرير إلى الشارع. والمعنى: لا تسرع ذهابًا وإيابًا. على مهلك! إن مصائب الدنيا كلها.. وهذه فلسفة اليوجا.. لم يخلقها وينميها سوى الذين يستعجلون الحل والخلاص منها، فإذا أردت لنفسك السلام والسلامة فضع قدميك في ماء بارد أو ضع رأسك مكان قدميك وأنت ترى الدنيا أجمل وأحسن!

وهرب النوم منا!

همس في أذني قائلا: ب. ب.. هذه هي الوصفة الأخيرة! جربها.. دعك من كلام الدكاترة.. كلامهم فارغ! اسألني أنا!

وب ب هذه مع الأسف ليست اختصارًا لاسم كوكب السينما: بريجيت باردو! ولكنها اختصار لشيء آخر.. وذهبت فورًا وطلبت من الخواجة خرالامبو أن يضع لي هذه الوصفة فورًا، فإنني لم أنم منذ ثلاثة أيام لا ليلاً ولا نهارًا.

لقد جربت الحبوب المنومة.. لقد جعلتني أنام.. أسقط في بئر عميقة ولا أعرف كيف نزلت إليها.. ولكن في الصباح أعرف بوضوح أنني سقطت برأسي.. فرأسي لا يزال يوجعني.. لا أزال نائمًا.. كان القرص المنوم حشرة غريبة، تسللت إلى داخلي وسكنت هناك.. وكان لابد أن أقاومها بالمبيدات الحشرية من الشاي السادة والقهوة المرة.. وأظل أطاردها حتى تختفي.. ويجيء الليل ولا أعرف كيف أنام.. فأعود إلى الأقراص المنومة.. وإلى الشاي والقهوة.. وأخيرًا قررت أن أعدل عن هذه المعركة.. وأن أبحث عن طريقة أخرى..

قال الخبراء: عليك باللبن الساخن قبل النوم.

وكنت أشرب ما تنتجه بقرة هولندية.. ويظل الأرق يمسك رأسي كأنه كورسيه من حديد.

وقال الخبراء: بل عليك بالدش الساخن.

في الصيف؟ في هذا الحر؟ يقولون: ما يهمش!

وعانيت حرارة الماء، وحرارة الهواء، واكتويت بالعرق.. وهلك النوم في داخلي.. وجاء ورثة النوم.. الصداع والأرق.. والإمساك يطالبونني بأن أوقع على كل ساعات الليل كأنني حارس لأحد الورش.. أو عسكري الدورية.. وكنت أفعل..

وقال لي ناقد رياضي: بعض الحركات الانسيابية..

وفي الظلام كنت أقول لنفسي: يمين.. شمال.. محلك سر.. إلى الأمام.. كتفًا سلاح..

وهرب النوم مني ومن الذين ينامون في الغرفة التي تحتي!

آه.. لم يبق أمامك إلا الموسيقى.. إن النوم يتسلق السلالم الموسيقية إلى عيون الناس.. لماذا؟ لأن هناك قصة إغريقية قديمة تقول: إله النوم اسمه «مورفيوس» وكان مورفيوس هذا يمسك مزمارًا وينفخ فيه.. فإذا الطيور تتساقط من السماء، والوحوش تخرج من الغابات، والحشرات تنطلق من الصخور.. وكلها تمشي وراءه، وهي مغمضة العيون.. إن موسيقاه هي النوم.. وفتحت الراديو وكانت موسيقى.. ويبدو أن السلالم الموسيقية لهذه الرقصات عصبية متشنجة.. لقد كانت تقذف بالنوم من فوقها بعيدًا عني.. ولم أنم!!

ومن النافذة أرى على الأسطح المجاورة أناسًا ناموا.. تكوموا والتووا كأنهم مغص سطحي.. وفي نومهم يتحركون كالدود في الطين.. وقد أسند كل منهم رأسه إلى شبه وسادة.. من قوالب الطوب.. وهات يا نوم.. وأتلفت حولي.. الأنوار كأنها عيون ساهرة.. وبدأت تطبق أجفانها الواحد بعد الآخر.. والأصوات بدأت تتلاشى..

إن النوم يتمشى من بيت إلى سطح من أب إلى أم إلى طفل إلى كلب.. إن النوم ساهر على الآخر.. مسكين لقد طار النوم من عينيه.. ومع ذلك لم يشأ أن يمر على غرفتي.. إنها رائحة الوصفة الملعونة: إنها رائحة ب.. ب.. أقصد البيض والبصل!

سبقتنا الطيور إلى التدخين!

هناك نظرية تقول: لا يوجد شيء عند الإنسان ليس موجودًا عند الحيوان!!

أي أن كل ما هو إنساني مهذب متحضر ليس إلا صورة متطورة لعادات وسلوك عند الحيوانات.. أي أن هذه الحيوانات ليست إلا «تسويدة» الإنسان..

ولا نهاية لذكر الأشياء التي اقتبسها الإنسان من الحيوان أو التي حاول أن يقلده فيها..

ومن السهل أن تختار مثالاً واضحًا: الطيران.. انظر إلى أي عصفور.. بل انظر إلى أية ذبابة وانظر إلى أحدث ما اهتدى إليه العلم الحديث.. سوف تجد أن الأجنحة وحركتها، والصعود والهبوط.. كل ذلك قد تعلمه الإنسان بعبقريته العظيمة من ذوات الأجنحة من الحشرات والطيور.. بل إن الإنسان بعد أن اهتدى إلى الرادار عرف أن الوطواط هو أعظم محطة استقبال وإرسال راداري في العالم.. وعندما اهتدى إلى الخلايا الضوئية اكتشف أن الفراشات والثعابين وكثيرًا من الحيوانات الليلية كلها من ذوات الخلايا الضوئية..

وأضرب أمثلة صغيرة عندنا: أن طائر «أبو قردان» هو أول من تعلمنا منه «الحقنة الشرجية».. فهذا الطائر عندما يصاب بإمساك يملأ فمه بالماء ثم يضعه بالقوة في مؤخرته ومن مئات الألوف من السنين!

آخر ما اهتدى إليه أحد علماء الطيور النمساويين في البرازيل أنه وجد منظرًا فريدًا على شجرة.. أنثى طائر مغرد متعدد الألوان تلف السيجارة لزوجها، ثم تأتي بأعواد من الحطب وتحكها بعضها في بعض فتلتهب.. وتحترق السيجارة.. ثم تقدمها لزوجها ويتناوب الاثنان هذه اللفافة.. حتى آخر نفس!

والأوربيون عندما سافروا إلى أمريكا وجدوا الهنود الحمر يدخنون.. فنقلوا هذه العادة إلى العالم كله.

والمكتشف الإنجليزي كوك عندما نزل في جزر هاواي انحنى له أهل الجزيرة مندهشين عندما رأوه يدخن!! فقد اندهشوا كيف أن رجلاً يدخن، ثم لا يحترق.

واهتدى هذا العالم النمساوي د. سجفريد لونت إلى أن هناك أنواعًا من القردة تمضغ المطاط.. تمامًا كما نفعل باللبان.. ولكن القردة تستخدم هذا اللبان لحكمة أخرى هي مساعدة الأسنان المسوسة على السقوط.

فلا يزال الحيوان ملهمًا للإنسان. فالله قد أودع حكمته البالغة البليغة في كل شيء خلقه!

هدية للملك سليمان!

تعرف أشهر الجراد في التاريخ؟ أنا أقول لك: إنها ثلاث جرادات:

قال الشاعر:

جاءت سليمان يوم الحرب قبّرة
أهدت إليه جرادًا كان في فيها
وأعلنت بلسان الحال قائلة:
إن الهدايا على مقدار مهديها
لو كان يهدى إلى الإنسان قيمته
كانت هديتك الدنيا وما فيها!

ولخص هذا المعنى أديب ظريف فقال: إن القبرة ألقت بالجرادة في الماء وقالت: من فاته اللحم فعليه بالمرق!

أما الجرادة الثانية فهي التي وقفت على أنف الإسكندر الأكبر. وداخ العرافون في تفسير هذا الحادث الغريب.. كيف تجرؤ وتحط على أنف أعظم قائد عسكري في التاريخ.. وقالوا: لعلها تريده أن يحني رأسه قليلاً.. أو أنها نذير شؤم بأنه سوف يجيء وقت قريب ينكسر فيه الإسكندر الأكبر. وقال أحد العرافين: بل إنها موفدة من ملايين الجراد التي سحقها الإسكندر ذهابًا وإيابًا! وتساءل الإسكندر جادًّا: هل لو

قتلت هذه الجرادة التي هي سفير الجراد إلينا، يستسلم بقية الجراد؟ وقال عرافون: نعم.. وقال عرافون: لا..

ولما فوجئ أحد الشعراء بأن الجراد أتى على الأخضر واليابس. وظهر عجز الإنسان تمامًا أمام الملايين ذات المناشير الحادة قال:

مــر الجراد عــلــى زرعــي فــقــلـت لــه:

لا تــأكــلــن ولا تشــغــل بــإفســاد

فــقــام مــنــهــم خــطــيب فــوق ســنــبــلــة:

أنــا عــلــى ســفــر لابــد مــن زاد!

هذه الحبال حول عنقي وعنقك!

حاولت أن أتخلص من الحبال التي تربطني كل صباح كأنني خيمة صغيرة في مهب الريح.. حبال غريبة.. إنها تسحب الغطاء من وفوقي، ثم تسحبني من فوق الفراش. وتدفعني أمام المرآة.. وترمي في وجهي بالفرشاة والصابون. وتلقي بالملابس فوقي. وتضرب الباب ورائي وتركلني إلى مكتبي وتقلع عيني وتقذف بهما على الورق.. وتلصق سماعة التليفون على أذني، وتصب في فمي خليطًا من الذرة المحروقة ونوى البلح والكاكاو (القهوة يعني!).. وتعصر أصابعي على القلم.. وتهز الأرض تحت قدمي.. والدنيا أمامي.. كل يوم أشعر كأنني طفل في طريقه إلى المدرسة لأول مرة. وأكاد أبكي وأقول: عاوز ماما..

وأقول «حاولت» أن أمزق هذه الحبال.. وخرجت منها.. وانطلقت إلى الريف. أريد أن أرى الشمس التي يصفونها بأنها في جمال صوفيا لورين وبريجيت باردو.. أريد أن أراها وهي تغتسل في طين البرك، ثم تتسلق السماء على بيوت من الوحل.. وتبدو جميلة.. أريد أن أستحم مثلها، فأترك طين المدينة وحبرها.. وأبدو لا في جمال مارلين مونرو.. ولكن في رشاقة زوجها وصفاء عقله.. ودخلت القرية.. وعلى ضفة جدولها الصغير.. وتحت أشجارها جعلت أتطلع في صفحة قاتمة

كأنها قهوة مخلوطة باللبن.. ورأيت ما يراه النائم.. رأيت قرية أرضها من الرخام أو من البلاستيك.. بيوتها من أحجار ناعمة.. إذا لمستها بيدك غسلت يدك كأنها قطع من الصابون.. وفي نوافذها ورود، وبين الورود طيور.. وعلى أبواب البيوت يقف شبان فيهم حياة وفي عيونهم ذكاء.. كل شيء في القرية له اسم.. البيوت والشوارع والناس والكلاب والأبقار.. لها أسماء يعني لها قيمة.. يعني لها أشياء تخصها وحدها.. وكأن حبلا شدني من عنقي واعتدلت ولم أكن أحلم وإنما تذكرت قرى سويسرا.. والساكن الحقيقي للقرية لا يمكن أن تراه..

إنه رجل يعيش في ظل جاموسة، والجاموسة هي مصدر حياته، إنها الأرض والمحصول والفيضان، وهي المصطبة العالية التى يقف فوقها ليشكر الله على ما أعطاه! إن الجاموسة هي التي تفتح بيته.. لا بأن تضربه بقرنيها.. ولكن هي رأس ماله الحي. هي اللبن الذي يشربه ويبيعه ويلبس منه هو وزوجته وأولاده.. إنه يجد في قربها كل حب، وفي رائحتها كل عطر. وكل محاولة للتفريق بينه وبينها في الحياة أو في النوم أو في المعاملة.. يرفضها ويثور عليها.. ونظرت إلى بعض الشبان الذين تمددوا على جانب من الترعة وقلت: من هؤلاء؟

وعرفت أنهم بعض الشبان التافهين الذين تعلموا في المدرسة واكتفوا بقدر هزيل من المعرفة.. ورفضوا أن يظلوا فلاحين، وأن يذهبوا إلى المدينة.. لقد تركوا المحراث إلى القلم. وتلمست الحبال الملفوفة حول رأسي وعنقي وقلبي.. وحمدت الله، فقد كانت أقوى مما تركتها!

وهذه هي الميزة الوحيدة للريف: أنه ينعش إحساسنا ويجلو أفكارنا فنشعر بمتاعبنا أوضح وأقوى!

نظرية: ضع يدك في جيبك!

نظرية سلوكية اسمها: انتظر دقيقة واحدة!

فقد لاحظ علماء النفس أن بين الخطأ والصواب فترة قصيرة. دقيقة. دقيقتان. فمثلا إذا ضايقك شيء فلا تغضب سريعًا. توقف. خذ نفسك. انتظر..

مثلا إذا جاء الجرسون في مطعم وأوقع كوبًا على ملابسك فلا تغضب لدرجة أن تصفعه على وجهه. إنه غلطان. فلم يتعمد إسقاط الماء عليك لأنه يعرف أنه سوف يلقى عقابًا يؤدي إلى فصله من عمله.. وخاصة إذا كانت هذه ليست المرة الأولى، وأنها غلطة متكررة لأسباب لا تعرفها. ولكنك إذا صفعته على وجهه فهو رد فعل عنيف، وسوف يلومك صاحب المطعم لأن من واجبه حماية موظفيه. ثم إنه من الممكن إصلاح هذا الخطأ بشكل ما.

قال لي وزير السياحة المصري الأسبق د. وجيه شندي إنه في إحدى رحلاته جاءت المضيفة وأوقعت القهوة على البنطلون. مشكلة. أزمة مصيبة ولكن الوزير أنقذ المضيفة من الحرج ودخل دورة المياه وخلع البنطلون وأزال آثار البن.. وفوجئ بأن إحدى الراكبات قد فتحت الباب الذي نسي أن يغلقه الوزير واعتذرت. لقد كان الوزير

نموذجيًا في سلوكه. واعتذرت المضيفة وأكد لها الوزير أنها لن تلقى أي عقاب من أي نوع!

وهذه الحادثة يدرسونها في كلية السياحة نموذجًا للصبر وضبط النفس وتطبيقًا لنظرية: دقيقة واحدة..

أي بين الغضب وضبط النفس!

ونظرية أخرى تقول ضع يدك في جيبك!

أي عند الغضب أدخل يدك في جيبك وأدر وجهك إلى الناحية الأخرى.. أي افعل شيئًا يمتص غضبك.. ويخفض درجة حرارتك حتى لا تكون ضحية لغضبك وعجزك عن ضبط نفسك.. وأعصابك وعضلاتك..

وغيرها نظريات كثيرة.. والمعنى واحد.

حاول جرب!

شيء عجيب ما حدث للشاه في آخر أيامه. ولكى تفهم ما حدث تذكر ماذا تعمله الأسماك الصغيرة لكي تهرب من الأسماك الكبيرة. إنها تعكر المياه وتختفي في هذه العكارة. وفي حالة الشاه، فإن السمكة الكبيرة هي التي تعكر الماء حتى لا تستطيع الأسماك الصغيرة أن تجد ملجأ أو مهربًا من أنياب السمكة الكبيرة. والسمكة الكبيرة هي أمريكا!

فكان في إيران اضطراب في السلطة وانفصال عن الشعب. وعن الملالي.. وانقطاع التيار الكهربي والمياه أيضًا. حتى مدينة (قم) وهي بلد الخوميني، كانت تعاني من انقطاع الكهرباء والماء أيامًا.

وهناك خلافات بين كل الأسلحة. ومن أشهر الخلافات: من الذي يخدم طائرة الإمبراطور؟ هل هو سلاح الطيران الإمبراطوري أم شركة الطيران الإيرانية. وارتفاع أسعار البترول، وقبل ذلك موافقة الرئيس

نيكسون على بيع طائرات متقدمة لإيران بألوف ملايين الدولارات أي بكل ما لديهم من فلوس.

ثم جاء الرئيس كارتر وزوجته.. ورقص الرئيس مع الشاهبانو – أي الإمبراطورة ورقص الإمبراطور مع زوجة كارتر.. وأثناء الرقص قال الرئيس للإمبراطورة: إن إيران هي جزيرة الأمان في الشرق الأوسط.

ولم يكن يعلم أن المخابرات المركزية قد أعدت كل شيء لاستقبال الخوميني قادمًا من باريس– والشاه لا يدري فقد عكروا حوله الحياة الاقتصادية والسياسية والعائلية. ولم يعد يعرف رأسًا من قدمين وشمالا من جنوب. وأصبح جاهزًا للسقوط. وسقط!

وتذكرت صلاح الشاهد وزير البلاط في مصر، فقد أصدر مذكراته وانطبق عليه اسم المسرحية الشهيرة «شاهد ما شفش حاجة»..

فكلا الوزيرين كان في قلب الأخبار والأحداث، ولكنهما عندما كتبا.. كان ما كتباه تافهًا. وهذا الشيء التافه كان أكبر دليل على غربة الإمبراطور.. غربته عن بلده، كما كانت بلده غريبة عنه!

الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

1 - في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
2 - عاشوا في حياتي.
3 - إلا قليلاً.
4 - طلع البدر علينا.
5 - البقية في حياتي.
6 - نحن أولاد الغجر.
7 - من نفسي.
8 - حتى أنت يا أنا.
9 - أضواء وضوضاء.
10- كل شيء نسبي.
11- لأول مرة.
12- شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13- الحائط والدموع.
14- وجع في قلب إسرائيل.
15- الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
16- عبد الناصر - المفترَى عليه والمفترِي علينا.
17- في السياسة (3 أجزاء).
18- الدين والديناميت.
19- لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
20- السيدة الأولى.
21- التاريخ أنياب وأظافر.
22- الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ﷺ).
23- على رقاب العباد.
24- ديانات أخرى.
25- وكانت الصحة هي الثمن.
26- الغرباء.
27- الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28- عزيزي فلان.
29- هي وغيرها.
30- بقايا كل شيء.
31- يا من كنت حبيبي.
32- قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

•• للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:
33- رومولوس العظيم.
34- زيارة السيدة العجوز.
35- زواج السيد مسيسبي.
36- الشهاب.
37- هي وعشاقها.
•• للأديب السويسري ماكس فريش:
38- أمير الأراضي البور.
39- مشعلو النيران.
•• للأديب الفرنسي جان جيرودو:
40- من أجل سواد عينيها.
•• للأديب الأمريكي آرثر ميللر:
41- بعد السقوط.
•• للأديب الأمريكي تنسي وليامز:
42- فوق الكهف.
•• للأديب الأمريكي يوجين أونيل:
43- الإمبراطور جونس.
•• للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:
44- تعب كلها الحياة.
•• للأديب الفرنسي أداموف:
45- الباب والشباك.
•• للأديب الإسباني أرابال:
46- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

47- الحنان أقوى.
48- من أول نظرة.
49- طريق العذاب.
50- ألوان من الحب.
51- شباب.. شباب.
52- مذكرات شاب غاضب.
53- مذكرات شابة غاضبة.
54- جسمك لا يكذب.
55- الذين هاجروا.
56- غرباء في كل عصر.
57- أظافرها الطويلة.
58- هموم هذا الزمان.

59- زمن الهموم الكبيرة.
60- الحب الذي بيننا.
61- عذاب كل يوم.
62- كيمياء الفضيحة.
63- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

64- الذين هبطوا من السماء.
65- الذين عادوا إلى السماء.
66- القوى الخفية.
67- أرواح وأشباح.
68- لعنة الفراعنة.
69- دقات الصحة هي الثمن.

(ز) نقد أدبي:

70- يسقط الحائط الرابع.
71- وداعًا أيها الملل.
72- كرسي على الشمال.
73- ساعات بلا عقارب.
74- مع الآخرين.
75- شيء من الفكر.
76- لو كنت أيوب.
77- يعيش.. يعيش.
78- الوجودية.
79- طريق العذاب.
80- وحدي.. مع الآخرين.
81- ما لا تعلمون.
82- لحظات مسروقة.
83- كتَاب عن كتب.
84- أنتم الناس أيها الشعراء.
85- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
86- أوراق على شجر.
87- في تلك السنة.
88- دراسات في الأدب الأمريكي.
89- دراسات في الأدب الألماني.
90- دراسات في الأدب الإيطالي.
91- فلاسفة وجوديون.
92- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

93- حول العالم في 200 يوم.
94- بلاد الله خلق الله.
95- غريب في بلاد غريبة.
96- اليمن ذلك المجهول.
97- أنت في اليابان وبلاد أخرى.
98- أطيب تحياتي من موسكو.
99- أعجب الرحلات في التاريخ.
100- ماذا يريد الشباب؟
101- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

102- مدرسة الحب.
103- حلمك يا شيخ علام.
104- مين قتل مين؟
105- جمعية كل واشكر.
106- الأحياء المجاورة.
107- سلطان زمانه.
108- العبقري.
109- كلام لك يا جارة.
110- فوق الركبة.
111- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
112- يوم بيوم.
113- إنها الأشياء الصغيرة.
114- إلا فاطمة.
115- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

116- حقنة بينج.
117- اتنين.. اتنين.
118- عريس فاطمة.
119- من الذي لا يحب فاطمة؟
120- غاضبون وغاضبات.
121- هي وغيرها.
122- هي وعشاقها.
123- العبقري.
124- القلب أبدًا يدق.
125- يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات):

126- ثم ضاع الطريق.
127- النجوم تولد وتموت.
128- هناك أمل.
129- أحب وأكره.
130- الحيوانات ألطف كثيرًا.
131- مصباح لكل إنسان.
132- أتمنى لك.
133- لعل الموت ينسانا.
134- اقرأ أي شيء.
135- ولكني أتأمل.
136- حتى تعرف نفسك.
137- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

138- نحن كذلك !!
139- اللهم إني سائح.
140- كائنات فوق.
141- تعال نفكر معًا.
142- آه لو رأيت !
143- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
144- انتهى زمن الفرص الضائعة !
145- هناك فرق.
146- الرئيس قال لي.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثاني.
147- يا نور النبي.
148- وأنت ما رأيك؟
149- حضارة الإوز والبقر.
150- حلمنا الجميل.
151- ضاع الجيل ضاع.
152- قالوا (الجزءان الأول والثاني).
153- وآخرتها.
154- من أول السطر.
155- أظافرها الطويلة.
156- القلب لا يمتلئ بالذهب.
157- تكلم حتى أراك.
158- الذي خرج ولم يعد.
159- ليلة في بطن الحوت.
160- والله زمان يا حب.
161- أجيال من بعدنا.
162- قلبك يوجعني.

(ل) الترجمات القصصية:

163- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
164- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
165- (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.
166- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
167- (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
168- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

169- الفلسفة الوجودية الألمانية ـ لإميل تسلر.
170- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.
171- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.
172- مسرح العبث الفرنسي - لإتيان ماريبو.
173- الفيلسوف الروسي بردياثف - لفيكتور لوزتسيف.
174- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.
175- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.
176 - رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.
177- فاشلون لكن نبلاء - لجان ماري روار.
178- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.
179- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.
180- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.
181- كروتشه فيلسوف الحرية - لإيرابيلا دلورنتس.
182- شمعة في كل طريق.
183- أكثر من رأي.
184- معذبون في كل أرض.
185- تعالوا نفكر.
186- معنى الكلام..!

